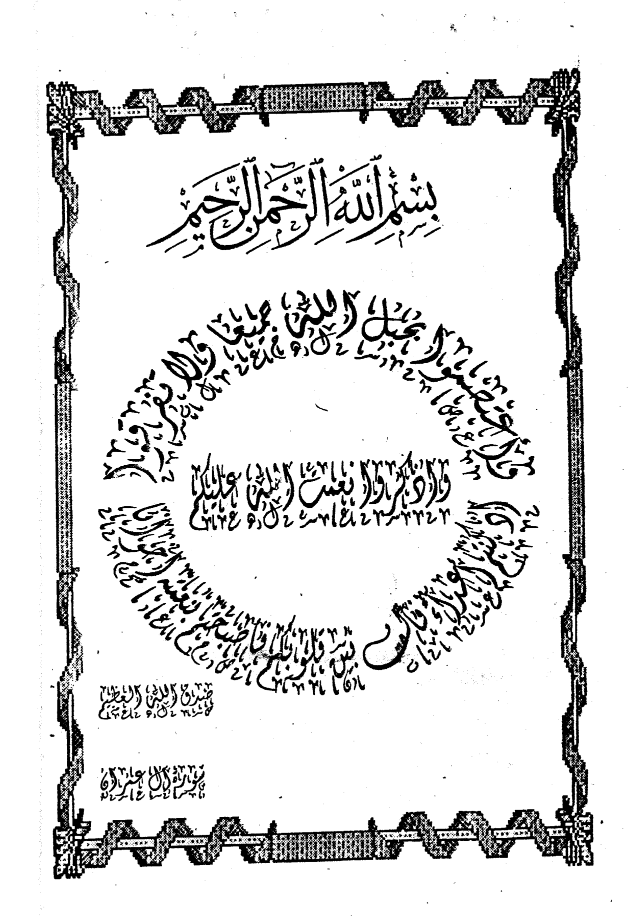
خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة

قسم الثاني

الخواطر



بسم الله الرحمن الرحيم
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا
واذكروا نعمت الله عليكم
إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا
صدق الله العظيم
سورة آل عمران

((الاهداء))

الى :

شيخى الكريم المفضال ....

أديب العلماء .. وعالم الأدباء ....

عرفت فيه العلم والحكمة ....

وتذوقت منه الحب والحنان ....

عف اللسان .. قوى البيان ....

الأستاذ الدكتور/

محمد ابراهيم الفيومى

عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية بالقاهرة الأسبق

أمين عام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية حاليا

داعيا الله أن يطيل فى عمرك ويبارك فى أثرك

انه نعم المولى ونعم النصير

د / محمد الغزالى

((المقدمـــة))

الحمد لله رب العالمين ، ميز العلماء بالخوف منه والحب له ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله أحبه ربه وللعالمين أرسله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومـــن دان له .

أما بعـــد ،

فما تزال العقلية العربية تحتضن السكينة ، وتؤثر احتباس الآهـــات الدفينة ، وربما رفع أحدهم رأسه فلا تكاد من الركام تستبينه ، ومرد ذلك: أن لعبت بتراثنا عقول غير أمينة ، استولت عليه في غفلة منا وكان قبل فـــى عرينه ، حتى محت أعلامه ومازال أنينه ، ترجمته الى لغاتها وشوهـــت لمؤلفيه مطامينه ، ولو علم بنو قومى لتداعوا معى للسارق حتى ندينـــه ، بدل أن نبكى حظا .. نبدع علما فينكشف زنيمه .

وما مثلى بالمغوار الأشد ، ولا بالفارس العنيد الألد ، وانما هـــى نفثـات مكلومة ، أبثها خواطر من الضياء محرومة ، فظروفى الصحية تعتـل ، والمجد القديم المؤمل ، وكيف أوفق بين عى ومؤمل ؟ على أنى أبثها والله المعين ، فان قبلت فما أنا إلا من الشاكرين ، وان تنكبت فماذا أنا صانـع وما أنا إلا من أضعف المخلوقين ؟

أما قبــــــل ؟

فالغرب ينفث كل يوم سمومه ، ويزعم أن العلم كله من بنيه ، وأن العالمين عالة على علمهم وذويه ، حتى تحيرت لديهم الألقاب ، وكثرت بينهم الأنساب فالفلسفة صارت عندهم أوربية مرة ، وأخرى غربية ، وثالثة أمريكية ، ورابعة ألمانية ، وهكذا سموها بأسماء كل بلادهم واستنكفوا أن يطلقوا عليها فلسفة اسلامية ، وتنكروا لماضيهم ولم يرق لهم أن يسموها عربية ٠

والمؤسف له أن من بني جنسي من تعلم في الغرب فراح يردد أوهامهم ويكرر ما تلي على ذاكرة الطلاب وأسماعهم ، ولو أنصف لناقش المسألة بموضوعية وحيدة وصدق نية ، عندئذ تبدو لكل فكرة هوية ، ويظهر لها جنس وعصب وقومية ، ويعلن الجميع أن هذا الفكر حصيلة عمر الانسانية ، وبمنتهى الصدق أزعم أن الفكر الانساني فيه أصول اسلامية وقواعد فنية ، وفكر ارتضع من رحيق الديانة الاسلامية ، وسوف أبين عنه في هذه الخواطر خلية ٠٠ خلية ٠

حول تأليف هذا الكتاب :

(١) التسمية :

سميته : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ٠

أما لماذا ؟

فلأن الخاطر يعبر عنه المرء وقد يخفيه ، وهذه الخواطر راحت تخطوا إلى فؤادى على استحياء ، وكلما هم خاطر لالتقاطه وإرضاعه لبنات الفكر ، كلما تسرب منى واختفى عنى ، فكنت أضع كل خاطر ، أو خاطرة فى موقعها من الذاكرة ،وكلما كانت تراودنى عن نفسها ، وقالت هيت لك ، قلت معاذ الله ، الإشتغال بالثوابت أجدى من الإسراع خلف الخواطر .

ولما كانت تلك الخواطر الخبيثة فى نوع من المعرفة الإنسانية ألا وهو الفلسفة ، فاقتضى أمر العنوان أن يكون فى الفلسفة الحديثة ، وبالتالى اتخذت فلاسفة معاصرين ، فلايعنى العنوان إلا الغالب الأعم ، وليس التخصص المطلق .

(٢) ظروف تأليف هذه الخواطر :

شاءت إرادة الله أن يحصل بالقسم الذى أعمل به نوع من توزيع ساعات الدراسة باليوم الأول فى حضورى ، وجاء دور الفلسفة الحديثة ، فرأيت من زميلى عدم قبول لها ، فاحتملتها وهى أمانة ثقيلة ، ثم عدت إلى منزلى ووضعت خطة تتناسب مع سنى والبحث الذى أقوم به ، والطلاب الذين تعلقوا بى ، وتعلقت بهم ، والبحث عن الحقيقة التى هى ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها من أسمى الغايات .

غير أن الأقدار تخبىء مالانعرفه ، ونحن والحمد لله نؤمن بها ، فاذا بمرض خطير يصيبنى على غير موعد ، بل ولم يطرق لى من قبل أى باب ،

وكان هو " حمى التيفود " (١) أعاذنا الله والمسلمين منها ، أنه مرض شديد الوطأة ، قوى البأس ، ألزمنى الفراش مضطرا ، ومنعنى التعامل مع الآخرين مجبرا ، وأقصانى عن كتب العلم التى أحبها لله مرغما ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم.

يسر الله لى طبيبا يؤمن بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، يحب مهنته ، ويعتز بما حباه الله من علم(٢) وهو يعلم ما أنا فيه من طلب للعلم ، واقبال عليه ، فراح يخفف من آلامى ويسر الله أمره فكان التشخيص الدقيق ، وأكدته أبحاث الدم التى قمت بها ، وحرارة الجسم ظلت قرابة أسبوعين لا تقل عن تسع وثلاثين درجة .

وتحت هذه القسوة كانت عناية الله وارادته تدبران كل أمرى ، ولما بان أن لى حياة ، استخرت الله تعالى وحبوت الى أوراقى والقلم ، يعاوننى

---

(١) كان ذلك ابتداء من الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٩٦م.

(٢) هو الاستاذ الدكتور/ محمد المهدى محمد جمال الدين قمر. أستاذ الباطنة بكلية طب الزقازيق ويحمل العديد من المؤهلات العلمية والزمالات ، ويشرف على العديد من الأبحاث العلمية فى مجال تخصصه فى الغدد الصماء وأمراض الباطنة والسكر . ومايزال دون - الخامسة والأربعين - ومايزال يتعهدنى بالسؤال والاستشارة ووصف الدواء ، والحمد لله أنى على أعتاب الشفاء . كل ذلك من غير أن يتقاضى أجرا انما أجره عند ربى ، لا عن ضيق يد منى وانما هو الحب فى الله الذى يجمع بين قلوب عباده ، بارك الله فيه وأمثاله وأكثارهم انه نعم المولى ونعم النصير .

أطفالى فى رفعى على قوائمى ، ومنّ الله علىّ بثّ بعض هذه الخواطر من خلال يد مرتعشة ، وعين لاتكاد ترى ، وجسم يهتز من آلامه حينا وينقل آخر ، على أن هذه الخواطر فى موضوع الفلسفة الحديثة ، ومما دعته الذاكرة ، فقد أوثق مصادره ، وقد لاأوثق - حسب توفيق الله وظروفى الصحية التى آمل لها أن تكون زكاة عن بدنى الضعيف ، أستودعها عند الله رب العالمين . وربما يقال كيف تكتب خواطر فى الفلسفة ؟

والجواب: أن لغة الأدب تسع الفلسفة وتضمها فى حناياه ، كما أنى أميل الى الإستعمال الرقيق وهو فى نفس الوقت دقيق ، وأستنكف الإستعمال الجاف ، أما يكفى ما فى الفلسفة من غموض فلسفى حتى أزيدها غموضا فى العبارة ، المهم أنها فى المنهج المقرر ، وفى حدود الإمكانيات المتاحة .

كما أن سلفنا من الفلاسفة كانت لهم تسميات فيها سحر وروعة بجانب المضمون ، فابن باجة كتب " رسالة الوداع " ، تدبير المتوحد ، وهى رسائل فلسفية وتحمل أجمل المعانى الراقية ، وكذلك شيخنا المرحوم أ.د / محمد غلاب كتب " من صهاريج المعرفة - تنقل فيه بين ربوع الفلسفة ، وقطف من أزاهير المعرفة ، ولن أطيل فالأمثلة تعلو على الحصر.

ولايغربن عن ذى بال أنى عاقد العزم - ان أمد الله فى العمر وبسط فى الصحة - على تناول مسائل وقضايا ورجال الفلسفة الحديثة ، حسب

توفيق الله ، محاولا إرجاع كل مغتصب إلى أهله ، وإبانة أن ما تتغنى به أبواق أوربا إنما هو من فكر المسلمين فى غالبه الأعم ، وسوف أنافح عن قضيتى ومعى توفيق الله وأدلتى ، والله أسأل أن يجعل على عمله مقبولا ، وأجرى منه موصولا ، انه نعم المولى ونعم النصير .

الزقازيق صباح الجمعة ١٩٩٦/٩/٢٧م

من فوق فراش المرض ، شفانى وشفاكم الله

د / محمد الغزالى

((الخاطر الأول))

عصور الفلسفة ومراحلها

(١)

ما ان بدأت العقليـة اليونانية تؤتى ثمارها الفكرى ، فاذا بجهول تقذف به عوالم الغيب إلى ساحة بلاد الإغريق ، فيهم مسرعا إلى إغـلاق مدارسها الفلسفية ، واعتقال مفكريها الأحرار ، حتى بات من الصعب مدارسة تلك الأفكار الجريئة التى طالما أشبعت خيالها بحثا فى أصل الكون ، والمادة التى خلق منها ، وإلى أين يسير ؟ وما الغاية من سيره •

وهكذا حبس الأحرار أفكارهم داخل صدورهم ، وراحوا يغلفون تلك المباحث الميتافيزيقية بعدة أغلفة ، فمرة تأتى مباحثهم فى صورة خيال عارم ، أو رؤى حالم ، أو أقصوصة فيها من الغموض أكثر مما فيها من الوضوح ، وظل الحال على ذلك حتى رحل " جوستنيان " ذلك الذى أعلن الحرب على الفكر وأغلق المدارس •

(٢)

وكانت الثقافة الأصيلة فى مصر تمتد من الأسكندرية التى تعلم فى مدارسها بطليموس ، وفيثاغورس ، وطاليس ، وكذلك أفلوطين المعروف " بسكاس " ، وكانت الأسكندرية والقاهرة وغيرهما من الحواضر المصرية ترسل أنوار ثقافتها الى كل دول العالم حينئذ ، وهو الذى شهد به علماء الغرب قبل العرب فى العصر الحديث •

﴿ ٣ ﴾

أقبل ميلاد المسيح السعيد ، وبدأت تعاليمه تقود الى مكارم الأخلاق والقيم النبيلة ، واحياء الفضيلة ، كالشأن مع كل أنبيائه ورسله ، الذين شأنهم الدعوة الى توحيد الله والتعريف بما له من جلال وجمال وكمال ومهابة ، والكتب والرسل واليوم الآخر ، الى آخر ما جاء به الأنبياء وبلغ به المرسلون .

غير أن الرومان لم يطيقوا تعاليم المسيح ولم يقبلوها ، وحاك اليهود كل حيلة لضرب الدعوة العيسوية والقضاء عليها ، ولما لم تكن اقامة المسيح عليه السلام بين القوم طويلة ، فقد أتيحت الفرصة لمن كانوا يريدون القضاء على أتباعه – من اليهود والرومان – فقاموا بها على الوجه الذى تمكنوا منه ، من ثم أنطلق المفكرون من النصارى فى الاختفاء من وجه دعاة المسيحية ، وجند الرومان ، وهنا بدأت بواكير الفلسفة المسيحية .

﴿ ٤ ﴾

اذن يمكن القول بأن الفلسفة المسيحية قد بدأت فى النصف الثانى من القرن الأول للميلاد ، وقد اتسمت هذه الفلسفة بالتردد حينا والاندفاع أحايين مختلفة ، كما أعلن الفلاسفة راية الاستسلام للسلطان الكنسى حينا ، والثورة عليه حينا آخر ، وكانت الغلبة فى كل حال للسلطان الكهنوتى على السلطان الفكرى المتميز بالانطلاق مع التعقل والروية .

(٥)

ثم جاء عصر الفلسفة المدرسية بكل مافيه من قسوة ومحاناة ، وتوة وضراوة ، وتصيد للأخطاء من جانب السلطة الكنسية التى تميز أفراد ها بضيق الأفق ، ونزعة الجهل ، والتبرم من كل مخالفة للأعراف الكهنوتية التى يد ونها الشماسة والقماصه ، ويعتمد ها القسس ، وكان لهذا الجو المشحون بالقهر والاستبداد أثر سئ على الحياة الفكرية وأى سوء ، مما يجعلنا نقسم الفلسفة المسيحية الى مراحل عديدة ، نعود اليها فيما بعد .

﴿٦﴾

(عصور الفلسفة)

من المعلوم أن عصور الفلسفة خمسة هي :

(١) عصر الفلسفة اليونانية : وهو ذو مراحل متعددة منها :

أ - مرحلة الطبيعيين الأوليين ·

ب - مرحلة الشكاك ·

جـ - مرحلة الطبيعيين المتأخرين

د - مرحلة التفكير المنظم ·

وهذا العصر كتبت نهايته بعد بداية الميلاد المجيد - من ناحية التقسيم - وإن امتدت آثار هذا العصر اليوناني فيما بعد لعدة قرون لكن الانساني يزاوج بعضه بعضاً ويلفع بعضه بعضا ، ومن ثم فإن آثار الفكر - ما دامت ناضجة ومفيدة في تقدم الإنسانية - تظل تؤدي مهامها على نحو ما ·

(٢) عصر الفلسفة المسيحية :

وهو الذي يبدأ من النصف الثاني للقرن الأول الميلادي ويظل ممتدا - في أوربا وحدها - حتى القرن السادس عشر الميلادي ، حيث

بدأ في أوربا عصر الفلسفة الحديثة من مطالع القرن السادس عشر الميلادي وان كانت هناك بدايات حقيقية أطلت برأسها على يد " روجر بيكون " في القرن الرابع عشر الميلادي ، ومن قبله المحاولات الفردية التي انتهـت بأصحابها الى الحكم عليها بالطرد والاعدام ، ثم الحرق والتمثيل بالجثث كما فعل بكل من برونو ، وكوبرنيقوس ، وجاليلو وغيرهم ، وان اختلفـت أزمنة وجودهـم .

(٣) عصـر الفلسـفة الاسـلامية :

وهو العصر الذهبي للفكر الانساني ، حيث بدأ في الجزيـرة العربية اعتبارا من النصف الثاني للقرن الهجري الموافق النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، وهذا العصر بحق هو العصر الذهبي للفكـر الانساني ، اذ وجد المسلمون في دينهم مايدعوهم الى حرية الفكـر ، بل والبحث في الأمور الميتافيزيقية بشكل منظم من خلال قواعد شرعية ، مثل قوله تعالى " قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون " (١) وقوله تعالى " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا " (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم " تفكروا في مخلوقات الله ولاتفكروا في ذاته فتهلكوا " (٣) .

(١) سورة يونس الآية ١٠١
(٢) سورة الاسـراء الاية ٨٥
(٣) متفـق عليـه .

وقد امتد هذا العصر الاسلامى ومايزال غضا ناضجا ، أخذه الغرب من أيدينا يانعا على يد أبى الوليد ابن رشد فى مؤلفاته التى حفلت بها مدارس الغرب وجامعاته ، وماتزال تحتفل بذكراه جامعات عديدة من أوربا نفسها ٠

وليس أبو الوليد وحده ، وانما استفادوا من مدرسة الكندى ، والفارابى وابن سينا ، وما كتابه القانون فى الطب عن الدارسين ببعيد ، وكثيرا ماعقدت المقارنات بين فلاسفة فى أوربا يعتبرهم ذويهم روادا ، وماهم الا نقلة عن الفكر الاسلامى ، لكن فى لغة أخرى مجرد ترجمة ، وماتزال الأيام تكشف عن هذه الخبايا التى تغنى بها الغرب ، ثم بان أنها وليد الفكر الاسلامى ، ونتاج العقلية المسلمة ٠

(٤) عصر الفلسفة الحديثة :

وهو الذى يبدأ من نهايات القرن السادس عشر ، وبطالع القرن السابع عشر الميلادى فى أوربا الحديثة ، وقد امتد هذا العصر حتى نهايات القرن التاسع عشر وبطالع القرن العشرين ، وظهرت فيه أسماء لامعة فى الفلسفة بشكل عام ٠

(٥) عصر الفلسفة المعاصرة :

ويبدأ مع بدايات القرن العشرين ، ومازال أصداؤه تهز الكون هزا ، معلنة فى اصرار وتحد انها تريد اعماره ودماره فى آن واحد ، وأبلغ دليل ، أنك ترى المصانع فى أوربا بعضها يحاول جاهدا انتاج أنواع الدمار الشامل ، من القنابل العنقودية ، الى الفسفورية ، الى الانشطارية ، الى الجرثومية ، الى آخر مايحاول المفكرون انتاجه من وسائل الدمار الشامل التى تغطى الأرض بأحداثها الرهيبة .

وعلى الجانب الآخر أوربا ذاتها ترى مصانع الدواء ، والأجهزة التعويضية ، وبنوك الأجنة ، وبنوك الأعضاء البشرية ، الى غير ذلك من الوسائل التى تعمل على حماية الانسان وتعويضه عن فاقده ، ومحاولة اصلاح البيئة والمحافظة عليها ، وهكذا ترى أوربا أمرا محيرا من كل ناحية ولاعاصم لهذه النيران المعدة للخراب ، الا أمر الله رب العالمين ، والاحتماء بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لا يؤمن به الغرب الملحد .

﴿٧﴾
(مراحل الفلسفة المسيحية)

يمكن تقسيم الفلسفة المسيحية الى مراحل ، وهذا التقسيم عام ، يشمل الأدوار التى مرت بها هذه الفلسفة المسيحية :

* المرحلة الأولى : آباء الكنيسة :

وهى مرحلة آباء الكنيسة الذين سيطروا بشكل ما على مجريات الأمور الفكرية فى المسيحية ، ويبدأ هذا من القرن الثانى الميلادى واستمر مدة عشرة قرون انتهت مع مطالع القرن الثالث عشر الميلادى .

وكان لهذا العصر مظهر معين ، اذ ظلت الفلسفة خادمة للدين حتى لم يعلن الفلاسفة آراءهم التى تخالف الكنيسة ، بل على العكس ، كانت الكنيسة أداة طيعة فى أيدى الفلاسفة ، الذين لم يجدوا بدا من الانخراط فى السلك الكهنوتى ، وصاروا جزءا من تراث الكنيسة نفسها ، ولعل القديس " توما الأكوينى " من أبرز هذه المظاهر .

* المرحلة الثانية : الفلسفة المدرسية :

ويبدأ هذا العصر فى نهايات القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن السادس عشر ، وظهرت فيه أفكار كانت حبيسة فى رؤس أصحابها ، ولكنها كانت تذكر مجهولة النسب كالابن اللقيط الذى تقذفه أهله عرض الطريق

منتظرين بيتا كريما يلجأ اليه حتى يتمكنوا من رؤياه فتكون لهم به الذكرى من النسيان والسلوى من الحرمان ٠

وتميز هذا العصر بوصول الكتب الاسلامية مترجمة ، وبخاصة كتب الغزالى والكندى ، وأبى الوليد ، وابن سينا ، والفارابى ، وابن باجة ، وابن الهيثم ، والخوارزمى ، وابن طفيل ، وكثير غيرهم من أبناء الاسلام ٠

كما كان لترجمة هذه الكتب أثر آخر هو توثيق الصلة بين الفكر الاسلامى من ناحية ، والفكر اليونانى وبخاصة فلسفة أرسطو من ناحية أخرى ، وبالتالى صار هذا العصر المدرسى مصب الأفكار ، وملتقى الآراء مما هيأ الظروف ، ومهد الأرض لتظهر فيها بذور ثورة عارمة على الفكر الكهنوتى زلزلت — فيما بعد — أرجاءه ، وظهرت على أثره الفلسفة الحديثة ٠

* المرحلة الثالثة : الفلسفة الحديثة :

وهذا العصر هو عصر زلزلة الأفكار ، وهدم المعتقدات ، والتخلص من سلطان الكنيسة ، ويبدأ هذا العصر من أواخر القرن السادس عشر ، ويمتد حتى يغطى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا ومطالع القرن العشرين

وتميز هذا العصر بظهور الأفكار الجديدة البناءة فى أوربا ، ومن ثم برزت فيه أسماء كان لها من ذيوع الشهرة وبعد الصيت الأثر الذى أمتد قـــرونا متتاليـــة •

وربما ظهر على متن هـــذه الفلسفة كل من :

١ ـ فرنسيس بيكون ـ صاحب التجريبية الانجليزية (١) •

٢ ـ رينيه ديكارت (٢) ـ أبى الفلسفة الحديثة فى أوربا وصاحب المذهب التجريبى فى فرنسا •

٣ ـ توماس هوبـز (٣) ـ صاحب المذهب الذرى الآلى •

٤ ـ عمانويل كانت (٤) ـ صاحب الميتافيزيقا النقدية ، ومذهب الواجب •

٥ ـ دافيـــد هيـــوم •

٦ ـ فردريك نيتشه (٥) ـ فيلسوف القوة •

٧ ـ وليم جيمس (٦) ـ صاحب المذهب البراجماتى أو مذهب الذرائع •

---

(١) بيكون : ٢٢ يناير ١٥٦١م ـ ٩ ابريل ١٦٢٦ ولد بلندن •
(٢) ديكارت: ٣١ مارس ١٥٩٦م ـ ١١ فبراير ١٦٥٠م لاهاى ـ تورين • فرنسا تخرج من لافليش •
(٣) هوبـس : ١٥٨٨م ـ ١٦٧٩ انجلترا مالسبرى ـ تخرج من اكسفورد
(٤) كانـت : ١٧٢٤/١٨٠٤م ـ بروسيا ـ
(٥) نيتشـه: ١٥ اكتوبر ١٨٤٤/ ٢٥ أغسطس ١٩٠٠ م روكسو بروسيـا تخرج من جامعة بون •
(٦) جيمس: ٩ يناير ١٨٤٢ / ١٥ أغسطس ١٩١٠ نيويورك ـ [illegible] من هارفارد •

كما تميز هذا العصر بكل من :

أ — تغليف النظريات الفلسفية :

حيث قام الفلاسفة بتغليف أنفسهم فى أثواب التواضع واحترام الدين كما تم لف النظريات الفلسفية بطابق شفاف لايتمكن من الاقتراب منه رجال الدين التقليديين ، بل ولايتمكنون من اكتشافه .

ب — الفصل التام بين العلم والدين :

وكان الغرض من هذا الفصل هو التحرر من سلطان الكنيسة التقليدى ، النزوع نحو العلم والحديث باسمه بعيدا عن أى لون دينى ، وان تناول مسائل الدين ذاتها .

جـ — اعادة النظر فيما ظن حقائق :

كانت هناك أمور تدرس على أنها حقائق متوارثة ، فجاءت الفلسفة الحديثة مطالبة اعادة النظر فيما ظن حقائق ، وكانت الفلسفة الحديثة ترفع شعارا وتنادى به "اتركوا المعلومات الموروثة ، وأبدأوا البحث العلمى من جديد وبأنفسكم " وليس معنى هذا أنها طالبت بالغاء المعلومات الدينية مباشرة ، أو أنها أعلنت نقد الدين ، كل هذا لم يحدث ، والا لوقعوا فى المصير المجهول الذى زحفت اليهم وغيرهم من العلماء والمفكرين

الذين ضاقت صدورهم بسلطان الكنيسة الباهت ، فأعلنوا أنه عدو للعلم فكان جزاؤهم الاعدام والحرق .

أما أولئك فقد نقدوا الدين باسم العلم ، وتناولوا كل مسائل الدين لكن بشكل يبعدهم عن الوقوع في رجال الدين وأبرز دليل هو أن ديكارت أهدى كتابه التأملات لرجال الدين أنفسهم وأعلن أنه لا يمس الدين وانما يتناول مسائل تخضع للبحث العلمي ليس الا ، وفرق بين الدين كمعتقد وبين قضايا البحث العلمي القابلة للأخذ والرد .

د – جعل الفلسفة خادمة لقضايا العصر :

أجل ، عاشت الفلسفة المدرسية قضايا لا وجود لها في المجتمع فكان هناك فاصل كبير بين الفلسفة والفلاسفة ، وبين المجتمع الذي يعيشون فيه ، فلما كانت الكنيسة تعتدى على الفلسفة والمفكرين ، لم يكن هناك من يشعر بهم أو يدافع عنهم ، وما ذلك الا لأن الفلسفة كانت برجالها في ناحية منزوية لا يشعر بها أفراد المجتمع فضلا عن غموض نظرياتها .

غير أن الفلسفة الحديثة عملت على تطويع الفلسفة لمشكلات العصر وقضاياه حتى تكون ملتصقة بالواقع الذى تعيش فيه ، وحينئذ ستجد من

النبلاء التشجيع ومن أفراد الشعب الحماية ، ومن المؤسسات القائمة
بعض العون ، وسوف تمتد اليهم يد المساعدة ، وهو ما سوف نلمح اليه
أثناء تناولنا لبعض الفلاسفة المحدثين ، فهيا الى الخاطر الثاني
نتناول فيه الدوافع التى أدت الى ظهور الفلسفة الحديثة .

((الخاطـــر الثانى))

الدوافع التى أدت الى ظهور الفلسفة الحديثة

(الدوافع التي أدت الى ظهور الفلسفة الحديثة)

لا أظن باحثا يعتقد أن حركة نشطة كالتي نشأت عنها الفلسفة الحديثة ليس لها من الدوافع ما يعادلها في الأثر الصادر عنها ، أو ليس لها من العوامل والأسباب ما يجعلها تعبر عن نفسها في وضوح بحيث تظهر آثارها على الحياة كلها تبدد معالم قيم ، وتقيم أخرى ، وانما الحق أن الفلسفة الحديثة كانت لها دوافع مهدت لظهورها ، ثم أدت في النهاية الى ذلك الاعلان الصارخ الذي غير نظرة الناس للكنيسة ورجالها وللمعلومات الموروثة ومصادرها ؛

أجل مع نهايات القرن السادس عشر وبواكير مابعده ، راحت الفلسفة الحديثة ترسل الى أوربا الحالمة اشعاعا قويا عبر الظلمات المتكاثفة ، آملة تصحيح مفاهيم الناس وتطلعهم على دنيا جديدة ، وتنقلهم من الأماني الحالمة الى دنيا البحث الموضوعي ، الذي لاقيمة للخيال عنده ، وانما البحث عن الحقيقة وتحريها بغرض الوصول بالانسانية المجهدة سفينتها الى شواطئ اليقين .

على أن الفلسفة الحديثة قد أحرزت في أوربا تقدما ملحوظا ، وحققت نجاحات متواصلة في المجال المادي ، مجال التقدم والازدهار والباحث

ذو الحيدة والموضوعية لايمكنه تجاهل هذه الآثار ، أو تلك النتائج التى مازال أثرها فى دنيا الناس موصولا ، لكن هل انطلقت هذه الفلسفة الوليدة حتى شبت عن الطوق من غير عوامل مساعدة ، أو مراحل أساسية ؟ الجواب : أنها نشأت على أكتاف عوامل مهدت لها ، ودوافع انطلقت بها من دنيا الأسرار ، الى شمس النهار ، أو من الأمانى المفزعة الى الواقع المعاش .. فما هى تلك الدوافع ؟

الدافع الأول : المزيد من الضغط على المفكرين والفلاسفة :

ذلك أن الراصد لحركة الحياة الفكرية فى أوربا أبان العصور المظلمة — القرون الوسطى — يرى توأمة سادت الحياة ، قامت على التعاون التام بين أصحاب السلطة ورجال الدين المسيحى ، وكان همهما مصادرة كل رأى حر مهما كان حقا ، وكبت كل حركة عقلية يمكن أن تنبه أذهان الشعب الى طغيان السلطة ، وتضليل رجال المسيحية فأدى ذلك الى الجمود والانكماش . وهما من أخطر الأمور على الحياة الفكرية لدى أية أمة .

من ثم فقد باتت أنفاس الأحرار تغلى فى مراجلها ، ونفثات المفكرين تضيق بها صدورهم ، والضاغط القوى هو كهنوت الكنيسة ، وجبروت السلطة ، فرجال الدين يبيعون للناس الجنة تحت اسم "صكوك الغفران" وفى ذات الوقت رجال الدين المسيحى الذين المفروض فيهم أن يغفروا

خطايا الناس مقابل صكوك الغفران ، هم أنفسهم لم تسلم ساحاتهم من الخروج على السلوك والتقاليد التي كثيرا ما عنفوا الناس بسببها .

على أن المفكرين والفلاسفة كانت تجرى أمام عيونهم مذبحة الشعب بين السلطة الحاكمة تحت اسم ان السلطان هو وريث اللـه فى الأرض، وأن حاشيته هم الملائكة الأعوان ، وفى ذات الوقت وجد الناس رجال السلطة فى ضلال ما بعده ضلال ، وفسق وخروج من كل النواحى ، وراحت أسئلتهم الحائرة تقفز من فوه الشفاه الذابلة ، كيف يكون المدعى ظل اللـه وخليفته والحاكم باسمه ، وهو شيطان على أية ناحية ، أليست الأمور مقلوبة ؟ وفعلا بدأ الناس فى التفكير الجاد للخروج على هذه التقاليد ومحاولة اعادة النظر فيها من جديد .

الدافع الثانى : مصادرة الحريات :

حرية الانسان أمر مقرر فى كل الشرائع والأديان السماوية ، لأنها المعبر الوحيد والمتنفس الذى لايمكن للمرء أن يحيى بدونها ، غير أن [illegible] الحاكمة ورجال الكهنوت المسيحى قد اتفقا على مصادرة الحريات للمفكرين حتى النهاية ، فكان ذلك من أسباب البحث عن طريق جديد يمكن من خلاله التعبير عن الآراء والمعتقدات فكانت الفلسفة الحديثة .

وأسوق لك دليلا وآخر ، أما الأول فعن ديكارت فيلسوف فرنسا ، أبى الفلسفة الحديثة ، ألف كتابا أسماه " العالم " وانتهى فيه الى أن الأرض تدور حول نفسها ، لكن قبل أن يدفع بالكتاب الى المطابع ظهر جاليليو بنفس الرأى ، فحوكم جاليليو محاكمة غير عادلة انتهت بالحكم عليه بالاعدام .

فلما رأى ديكارت ذلك لم يظهر الكتاب طول حياته ، وان كان قد نشر بعد وفاته ، وقد كتب ديكارت بهذا الشأن الى أحد أصدقائه عبر فى رسالته عن استيائه الشديد مما حدث لجاليليو ، واشفاقه على نفسه من أن يحدث له مثل ماحدث لجاليليو ، وجاء فى رسالته التى بعث بها الى صديقه :

" ان القضية التى أحرق من أجلها جاليليو هى نفسها موجودة فى كتابى العالم ، كما أن طريقة جاليليو فى الفهم والاستنتاج هى نفس طريقتى ، ولذلك فأنا أخشى على نفسى من أن أخرج للناس شيئا من هذا الكتاب". وبالتالى صودرت حرية الرجل ولم يتمكن من الاحتفاظ بها حال حياته بخصوص هذا الكتاب ، مما ترك آثارا سيئة فى نفسه وأنفس أصدقائه الذين يؤمنون بحرية البحث العقلى ، وحتمية الفكر المستنير ، وكان ذلك من دوافع ظهور الفلسفة الحديثة .

أما الخبر الثانى : فقد كان عن مجموعة من شباب فرنسا ، وقعت أعينهم على الأفكار الحديثة ، وتعلقوا بها مما كان يدرسولهم على يد بيكون ، وديكارت ، وكانت وغيرهم من الفلاسفة المحدثين ، وحصل هؤلاء الشباب على درجات علمية ، بل صار فيهم علماء على النمط الحديث ، قرروا أن يجلسوا معا ليناقشوا موضوعات الفلسفة القديمة وعلى الخصوص فلسفة أرسطو المتعلقة بهذا العالم .

وفعلا تعددت لقاءاتهم ، ومن خلال المناقشات تأكد لهم أن كثيرا من آراء أرسطو تتعارض مع الحقائق العلمية التى هى نتاج العصر ذاته فاتفقوا فيما بينهم على عقد اجتماع موسع يضم العلماء المتخصصين فى هذه المباحث العلمية ، وكان غرضهم هو اصدار كتاب بالنقودات الموجهة الى فلسفة أرسطو ، على أن تكون هذه النقودات موضوعية ، ومن خلال نظرة محايدة ، كما تقضى به طبيعة البحث العلمى ، بحيث لايقع على أرسطو أو فلسفته أية قسوة أو تحامل ، كما لايشفع له تعصب أو مجاملة ، المهم البحث العلمى ونتائجه الحقة .

وحتى يكتسب المؤتمر حقا قانونيا أعلنوا عنه بوسائلهم ، وحصلوا على موافقة حكومة باريس بانعقاده ، وانعقد مؤتمر العلماء فى باريس ، وما أن

بدأ في تناول الموضوعات التى سوف ينظر فيها نفاذا بكلية اللاهوت بباريس تتقدم بعريضة ضد المؤتمر ، وتطالب الحكومة بسرعة نضه قبل اتخاذ أيـــة خطوة ، لأنه – كما جاء بمذكرة أصول الدين اللاهوتية – يحاول تقويـــض الآراء المشهورة لأرسطو وخلافه .

ورغم أن أرسطو لم يكن الا يونانيا ، ولم يكن مسيحيا ومع ذلك استجابت الحكومة لمطالب كلية اللاهوت وأصدرت قرارات على وجه السرعة منها :

أولا : يفض المؤتمر الآن نهائيا ، على أن لايعود للانعقاد أبدا .

ثانيا : كل من يقوم بانتقاد أرسطو أو أى من آرائه ، أو الآراء المشهـــورة لغيره ، فانه فى ذات الوقت يكون منتقدا للدين المسيحى كلـــه ، وهو بذلك يعتبر خارجا عن الدين ويستحق الاعدام .

من ثم . راحت هذه النفثات تلقى بظلالها الثقيلة آملة بزوغ فجر جديد تطل فيه الحركة العقلية بروح وثابة على أزاهير حديقة الأمل المرجـــوة ، ولم يكن ذلك ممكنا الا من خلال الفلسفة الحديثه ، فكان ذلك من دوافـــع ظهورها .

الدافع الثالث : الاحتكاك بالحضارات الأخرى :

حين كانت الأمة الاسلامية تعيش عصر الأزدهار ، أزهى نهضتها ، وقد

لمع في سماء معارفها ألف نجم ، منها " أبو علي محمد بن الحسن ابن الهيثم " (١) ، وجابر بن حيان ، وابن سينا ، والفارابي ، وابن رشد وغيرهم ، فقد كانت أوربا في المقابل تعيش العصور المظلمة في القرون الوسطى ، ومحاكم التفتيش حتى ان العالم الفكري ليلاحظ أمرين في آن واحد .

الأول : أوربا وهي غارقة في أحضان الصمت والظلام ، ناعسة الطرف مستسلمة لحلاوة الرؤى وعذوبة الأحلام ، حتى كأنها فقدت الأمل في صحوة تعيد اليها أمنها الناشز ، أو ترد اليها حقها السليب .

الثاني : الأمة الاسلامية التي تعيش عصر انبهار وتقدم وازدهار ، حيث تتنافس المواضم الاسلامية في الحض على العلم ، والانفاق على العلماء ترابية تحاول منافسة بغداد ، والقاهرة تحاول منافسة حلب ، والحواضر الاسلامية يحرص أمراؤها على تكريم العلم وتجلة العلماء ، مما شجع على ازدهار الحركة العقلية في كافة مناحي الحياة .

---

(١) هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، عاش مابين ٩٦٥ - ١٠٣٨م ولد بالبصرة ومات بها من مؤلفاته كتاب " المناظرة " قدمه بمنهجه في البحث العلمي معتمدا على الملاحظة والتجربة ، وقرر أنه لايمكن الوصول الى الحق الا من خلال آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية وله بحوث في الطبيعيات وبخاصة - الضوء والفلك والرياضيات .

والقوافل التجارية الاسلامية تجوب بلدان العالم حاملة معها تجارتها مزدانة بالعلم متسلحة بالمعرفة ، ونظرا لهذا الاحتكاك عرفت أوربا طريق العلم في الحواضر الاسلامية ، وبات من المؤكد أن هناك أفرادا قلائل قد عقدوا العزم على معرفة الكتب الاسلامية ، وخاصة بعد أن نشط التراجمة وكان لهم من أمرهم ماكان ، فحملت قوافل التجارة النور الاسلامي لأوربا ، وايقظت النابهين الى ما في حواضر الاسلام من علم ومعرفة ، كان ذلك كله من دوافع الفلسفة الحديثة .

كما أن الحروب الصليبية أوجدت نوعا من الحوار والجدل استفاد منه أبناء أوربا فاستيقظوا من رقدتهم التي كانت طويلة ، ثم ان وقوع أوربا مجاورة لحاضرة العالم الاسلامي بالأندلس ، أتاح الفرصة لأبنائها النابهين للاطلاع على مناهج المسلمين والاستفادة منها ، وخاصة مايتعلق بطرق البحث العقلي في جانبه المادي .

وكان تراث ابن رشد بصفة خاصة من أول ماترجم من التراث الاسلامي الى اللغة اللاتينية ، وما ان ترجم حتى وجد هجوما شديدا ، سواء من أصحاب السلطة الحاكمة ، أو من رجال الدين الكنسي ، وكان الشباب في أوربا يقبل عليها ويزيد من ترجمتها في مواجهة السلطة ، حيث كانت الحركة الرشدية نشطة ، وأكدت أن مالايلائم العقل ويتفق مع الفطرة السليمة من تعاليم الكنيسة يجب الغاؤه .

ووجد الشباب فى أوربا متنفسا لهم من خلال هذا التراث الـــذى عبر عن ما بداخلهم ، وحقق لهم أمنيات غذاب ، اذ أن التراث يطعـــن السلطة والكنيسة ثم هو ليس تراثا أوربيا فيحاكم ، انما هو تراث اسلامـــى يعبر عن وجهة نظر أصحابه •

غير أن الكنيسة لم تهدأ ، وانما شكلت مزيدا من لجان التفتيـــش ومحاكم التفتيش وراحت تصدر القرارات المتتالية تتعقبت أتباع الحركة الرشدية واتهمتهم بالهرطقة والزندقة ، ومع هذا لم تنل منهم بل كان رد الفعـــل عكسيا وبقوة أكبر ، وأبسط تعبير لهذا • أن الاستاذ / جان الجندونـــى الاستاذ بجامعة باريس ، أتهم بالزندقة وأثناء استجوابه فى احدى محاكـــم التفتيش قال :

" اننى أؤمن بما جاء به الدين ، ولكنى لاأستطيع التدليل عليه ، فهنيئـــا للذين يستطيعون التدليل ، أما أنا فلا يعنى الا الايمان بالقلب" •

وقريبا من هذه العبارة قال "عمانويل كانت: " ان تعاليم الديـــن كأقراص الدواء ان ابتلعت أفادت وان مضغت كانت مرة المذاق ، وعلى هذا النحو سارت الأمور وكانت كلها تنذر بوقوع صدام وشيك بين قيم محطمـــة وأشباح أخرى تلوح •

الدافع الرابع : الرغبة في الاصلاح الديني :

فسدت الكنيسة ورجالها وأي فساد ، فلاهي بالقادرة على شرح تعاليم الدين ، ولارجالها بالقادرين على الابتعاد عن الفسق ومواطن الرزيلة ، ولا الشمامسة ومن معهم بالمتوقفين عن جمع تلك الرسوم الرأسية ، التي تدفع عن كل رأس مسيحي ساعة اعترافه في جلسة الأحد .

وفي هذه الأثناء ظهر قس مسيحي يدعى " مارتن لوثر " وكان يعتقد أن روما هي المقدسة وأن ايطاليا كلها حمى لها ، فجاء من بلاد بألمانيا لزيارة البابا ، وكان يحمل الانجيل تحت ابطه ، وما ان نزل بايطاليا حتى بدأ يتخفف من ملابسه ، فاذا ما نزل بروما خلع نعليه لاعتقاده أنها أرض مقدسة .

تورمت قدماه من السير حافيا ، وأثناء تجواله وقد اقترب من مقر اقامة البابا ، اذا به يجد القسس يبيعون للناس صكوك الغفران ، ثم يذهبون بما باعوا الى مواطن الرذيلة ومواخير الفسق والعربدة ، فهاله المنظر ، وأصيب بنكبة ، لكنه واصل السير حتى مقر اقامة البابا نفسه ، وهناك وجد نسوة عرايا ، وقسسا كالبهم ينطلقون معا على غرائزهم البهيمية دون مراعاة لأبسط القواعد .

حاول الرجل جمع شتات نفسه وعرض الأمر على الرئيس الديني الذي

رآه يقر تلك الأعمال ولايرى فيها أمرا عجبا ، رجع الرجل الى بلده وقص الخبر على زملائه ، وانتهى بهم الأمر الى مايلي :

أولا : اصلاح الكنيسة الديني بحيث تكون الأقوال مع الأعمال .

ثانيا : مراجعة كل قرارات الكنيسة بما يتفق مع الأناجيل نفسها .

ثالثا : بفتح باب الاعتراض على قرارات البابا طالما كانت لخدمة الكنيسة .

ووقع على هذا ثلاثة نفر هم : " مارتن لوثر ، كليفين ، زونجلي " فما كان من الكنيسة الا أن اعتبرهم زنادقة وطالبت برؤسهم مما حدا بهم الى اعلان استقلالهم عن الكنيسة في أيطاليا وتكوين كنيسة خاصة بهم عرفت باسم الكنيسة الانجيلية ، وعرف أتباعها باسم الطائفة الانجيلية . وهذا أحدث الشرخ الكبير في جسم الكنيسة الأم فأضعف قبضتها ، وجعل الخلاف بين أعضائها يستوعب وقتا كبيرا منهم ، وهذا مكن للفلسفة الحديثة من الظهور ولو على استحياء .

الدافع الخامس: احياء الآداب القديمة :

بعد الاحتكاك الذي وقع بين المسلمين وغيرهم ظهرت حاجة أوربا الى الآداب العربية ، باعتبار أن الآداب هي المعبر عن فكر أية أمة ، ثم ان ترجمة الآداب العربية لاتتعارض من سلطة الكنيسة بحال من الأحوال . مع

من ثم . فقد أنشأ الامبراطور فردريك الأول امبراطور ألمانيا مدرسة كانت غايتها الأولى ترجمة وتدريس اللغة العربية وآدابها ، ولم يكتف بهذا

وانما لجأ الى ايفاد البعثات المختلفة الى كل من العواصم الاسلامية فى قرطبة ، وبغداد ، وغيرها من الحواضر الاسلامية التى كانت تعنى باللغة العربية وآدابها ، من هنا عرفت أوربا طريق البحث العلمى ، وأدركت قيمة الطرق المنهجية ، وزينة الحركة الفكرية ، فلا غرو أن يظهر من آثار تلك البعثات من صاروا فيما بعد رواد الثورة العلمية التى قامت عليها الفلسفة الحديثة فيما بعد .

وعرفت أوربا قيمة المعرفة الانسانية فانفتحت على العوالم الأخرى بعد أن صار لها مخزون فكرى من تراث المسلمين ، فترجمت رسائل كل من : " شيشرون الحكيم اليونانى القديم ، وسنكا ، كما ترجمت الأعمال الفنية الكبيرة كالالياذة لهوميروس ، والأوديسا لهزيود ، وهى عبارة عن قصائد شعرية يونانية طويلة .

كما ترجمت محاورات افلاطون وفيدون حتى ظهرت أعمال ابداعية جديدة فى ايطاليا على يد الشاعر دانتى الاليجرى فى رائعته " الكوميديا الالهية " بأجزائها الثلاثة المطهر والجحيم والفردوس ، وكانت هذه الآداب التى تم ترجمتها من العوامل القوية التى مهدت لظهور حركات فكرية نشطة فى هذا الميدان وأمثاله .

كما لايخفى أن الفن كان له نصيب من تلك الحركة الهائلة ، التى رعاها أمبراطور على قدر من الثقافة ورغبة فى النهوض ببلده ، فرأينا الفن

يخطو على قدم ثابتة حيث كان ليونارد و دافنشى ، وروفائيل وغيرهما ممن صاروا فيما بعد من أعلام النهضة الأوربية وخلفوا وراءهم آثارا فنية تشهد بقيمة أعمالهم الفنية فى ناحية ابداعية .

الدافع السادس: الكشوف العلمية :

هيأت رعاية امبراطور ألمانيا للعلم والعلماء أن حذا حذوه غيره من أمراء بروسيا وغيرها ، فرصدوا جوائز مالية ، بجانب خدمة عامة فى بعض الأبحاث التى لاتتعلق بالدين . وكان من هذه النشاطات أن ظهرت الكشوف العلمية الجديدة ، على يد كوبرنيقوس وجاليليو وغيرها ، غير أن هذه النشاطات لم تتمكن من تفادى الكنيسة أول الأمر ومن ثم وقعت فى المحظور ، وانتهى الأمر باحراق أحدهما واعدام الثانى .

لكن هذه الاكتشافات هيأت الأرض لبذر نباتات أخرى ربما يقدر لها النمو وتتمكن من الاستمرار على اعتبار أن كل جديد له ضحاياه ، وأن كل مصلح يدفع ضريبة اصلاحه الى مجتمعه ، وكانت الكشوف العلمية احدى اللبنات والدوافع التى هيأت المناخ لظهور الفلسفة الحديثة التى كانت أثراً قوياً فعالاً فى ايقاظ أوربا النائمة من سباتها الطويل ، وتوجيه عينيها الغافيتين الى مابين أيديها من ورود وكواكب ، وأن النوم الطويل وراءه جهل كبير وخراب طويل .

((الخاطـــر الثالـــث))

((مفهـــــوم الحداثـــــــــة))

((مفهـــوم الحداثـــة))

ماذا تعنى كلمة فلسـفة حديثـة ؟

تنوعت وجهات النظر حول الاجابة عن هذا التساؤل وتشتت بحيث يصعب الجمع بينها جميعا على ناحية واحدة ، وهانحن نعرض الآراء فى المسألة بموضوعية وحيدة ، ثم نناقشها طلبا للحقيقة ، وكشفا لبعض الغموض واللبس الذى أحاط بالمسألة حتى صار — فى ظاهره — جزءا من نسيجها وما هو كذلك ، وقد دفعت اليه دوافع اما عن سوء نية وسواد طوية ، أو خطأ فى التوجيه أو تعمية وتضليل ، أو جهله بحقيقة الأمر . وظروف المسألة المطروحة ، فما هى الآراء وطريقة مناقشتها ؟

الرأى الأول : أنها فلسفة حديثة لمواكبتها عصر النهضة العلمية الحديثة :

ورغم أن هذا الرأى فيه نوع من الوجاهة الا أنه يفتقد الموضوعية ، وتبدو فيه نزعة العرقية والعنصرية ، أما لماذا ؟ فلأن المشهور تاريخيا أن عصر النهضة مصطلح يطلق على العصر الذى يلى العصور المظلمة فى أوربا ، وأزاح جاهلية القرون الوسطى فيها ، وجعل سلطة الكنيسة مقيدة وليست مطلقة ، كما كشف زيف السلطة وأنها ليست الهية ، وبيّن أنها وضعية فيها من السطو المسلح واجترار المشاعر للناس ، ودغدغة العواطف مالايمكن دفعه هذا كله فى أوربا النائمة .

فاذا قيل أنها حديثة لمواكبتها عصر النهضة فقد أسقط من حساباته كل تفكير عقلى حر فى كافة حواضر العالم ، ومنها حواضر العالم الاسلامى بجانب الأفكار اليونانية التى تخفت فى ظلام الليل ، حافية القدمين معتصمة بثغر من ثغور أسبرطة ، أو قانعة بالهدوء على واحة نهر الألب أو امتد بها المسير حتى شواطىء الاسكدرية ، رغم أن هذه وتلك كانت الأصل الذى قامت عليه النهضة الحديثة ذاتها .

كما أن هذا الرأى لايثبت على قدم ولايعينه ساعد ، أما لماذا ؟ فلأنه من المقرر سلفا أن الأفكار العلمية لاتنشأ من فراغ ، وبالتالى فلابد للنهضة فى أوربا من أسس قامت عليها ، فاذا جاء الآن ليمحوها من خريطة الواقع فلاشك أنه رأى معوج تعوزه الأدلة ، وتعانده وقائع الماضى نفسه . من ثم فان هذا التعليل لايقبل على هذه الناحية ، ويضحى أمر الحداثة على هذا النحو ضربا من العنصرية ، وصورة متخلفة من النزعات العرقية البغيضة .

كما أن الأعراف الموضوعية قد استقرت على تناول المسائل مجردة فاذا اشتم منها رائحة التعصب فقد الحكم مشروعيته ، وأمسى مجرد مشروع غير قابل للتنفيذ ، ومن ثم تسقط معه كل القيم والأخلاق وتصبح مجرد قشرة خارجية لاقيمة لها .

وربما كان هذا الرأى وأمثاله من الدوافع التى دفعت بفيلسوف القوة نيتشه الى القول : الذى أعلن فيه براءته من الأخلاق والقيم السائدة فى عصره لأنها من وجهة نظره شيء لا أخلاقى ، انها فى واقعه عبارة عن أقنعة وقشور تخفى وراءها حقد الانسان على أخيه الانسان ، تحت اسم القيم والأخلاق .

على أية حال فان هذا الرأى غير مقبول لما سلف بيانه ، ولأنه يزيد من الفجوة بين العلوم الانسانية ، ويسقط كافة المعارف التى سبقت نهضة أوربا ، ولو كانت من الأوربيين أنفسهم ، ولذا لم نجد له أنصارا يتفقون معه .

الرأى الثانى : أنها حديثة لكونها نتائج فلاسفة أوربا فى العصر الحديث :

وهذا الرأى ربما كان سائر الوجه فى تمثيل القوم ، انه كاللص الذى يرفع آلة حادة فى وجه عزل استقلوا وسيلة ، فلما انحصرت بهم الطرق ، وانقطع الأنيس ، وخفت النجدة ، فألقى اللص بلحيته أرضا ، وأزاح من فوق رأسه غطاءها ، ثم رفع آلته الحادة مطالبا كل الركاب باخراج مامعهم من مقومات ، فلما جمعها بين يديه حملها فى صندوق وفر هاربا زاعما أنه المحافظ عليها ، وأنه سوف يردها اليهم عند الأمان ، وماهو براد شيء .

ولنعد للرأى على أن نضع تساؤلات عديدة منها :

١ — متى كان فى أوربا فلاسفة ؟ أم تكن أوربا تعيش القرون الوسطى ، ليس بينهم فنان أو أديب ولا مفكر أو فيلسوف ، وظلوا على ذلك حتى تم احتكاكهم بالعرب المسلمين المتاجرين والفاتحين ؟

٢ — هل حدث التاريخ عن فكرة فلسفية نشأت فى القرون الوسطى وشبت عن الطوق من غير أن يجتثها سلطان الدولة أو كهنوت الكنيسة • وماخبر جاليليو وكوبرنيقوس وغيرهما ببعيد •

٣ — ما هى صفات الفيلسوف ، ومن الذى يحكم عليه بأنه مفكر جاد أم هازل لاه ، هل قامت فى أوربا مدارس نقدية قبل عصر النهضة تقيّم من خلالها أعمال المفكرين ، وابداعات الفلاسفة حتى يصح القول بأنها نتاج فلاسفة أوربا ؟ ان الحكم على عمل ما يقضى أمرين :

الأول : أن تكون هناك مدارس نقدية تقيم الأعمال التى يراد تقييمها كل فى مجال تخصصه • ولابد لهذه المدارس من متخصصين يقومون بهذه الأعمال الفنية وهو مايعرف بلجان التحكيم •

الثانى : أن تكون هناك ضوابط علمية ، مدونة فى مؤلفات موثقة يمكن الاحتكام اليها عند التنازع فى قبول العمل الابداعى أو رفضه ، وكلا الأمرين لم يكن موجودا فى أوربا قبل عصر النهضة •

٤ — الثابت أن الملك فردريك ملك المانيا وأمثاله أقاموا مدارس كان أساتذتها من العلماء العرب والمسلمين ، سواء انتقل هؤلاء العلماء

الى تلك الديار ، أم تم الأمر عن طريق البعثات التى حرص علـــــى ايفادها للعواصم الاسلامية الأمراء والملوك ، أو كان عن طريق ترجمة الكتب العلمية بل والدينية ، وآية ذلك أن عثمان الكعاك البحاثـــة التونسى كان قد سافر الى متحف اللوفر بفرنسا حيث مكتبة ديكارت وعثر ضمن محتوياتها على ترجمة بالفرنسية لكتاب المنقذ من الضلال للامام الغزالى وبخط ديكارت عبارة واضحة عند شك الغزالى قال ديكـــارت يوضع — شك الغزالى — هذا فى منهجنا ٠

اذن ترجمة الكتب العربية والاسلامية العلمية والدينية والاجتماعيـــة كانت احدى الخطط التى حرص على تنفيذها بدقة أمراء أوربا وملوكهـــا ، وبخاصة من كان سليل النبلاء فيهم ، أو كان تواقا للعلم محبا للمعرفـــة ، وهذا ما لايمكن تجاهله ، وأن أنكره أعمى فماذا يضير ضوء الشمس ، أو أنكر لذة الماء مريض فماذا يضير الماء ؟

الرأى الثالث : أنها حديثة لأن آثارها ماتزال أحداثا تواكب كل عصر ٠

وهذا الرأى فيه من الجحود والنكران أكثر مما فيه من الصدق وأيضـــا الموضوعية وذلك لما يلى :

١ — استمرار الأثر :

فهذا أمر قائم مع كافة الأبحاث التى تثبت وجودها وقابليتها للتطـــور وكيفية الاستمرار ، خذ مثلا القانون فى الطب لابن سينا فما يزال أثره ممتدا

وموصولا ، الكليات الخمس في الطب مايزال مرجعاً مهما لدارس العلـــوم الطبية لأن الحاجة ماتزال اليه قائمة •

أضف الى ذلك العديد من المؤلفات الفنية والأدبية والعلمية التـى ماتزال منتصبة على قدمين لم تعرفا العوج أو الالتواء فكتاب الطبيعيـــات والسماع لابن سينا ، مثلا استمدت العلوم الطبيعية منه ، المكان والزمـان والحركة ، ومايزال مرجعا مهما فى هذا الجانب ، وتلخيص المقولات لابـن رشـد ، بل ان الالياذة كعمل شعرى فنى فرغم أنه أغريقى الأصل الا أن : خيالها الخصب ، وأفكارها الجيدة قاومت قسوة البطش حتى ألهبت مشاعـر دانتى الايطالى فصاغ على هدى منها ملحمته الرائعة الكوميديا الالهية •

اذن استمرار الأثر قاسم مشترك ليس خاصا بالأعمال الخاصة بالمبدعين الأوربيين وحدهم ابتداء من عصر النهضة ، وانما هو مرحلة من مراحـــل متداخلة لايمكن فصل بعضها عن بعض فصلا حاسما ، اللهم الا أن يكـــون المراد ظواهر الأمور المتوقعة لا حقائق الأشياء الثابتة •

٢ — مواكبة الأحداث :

لكن أن هذا الزعم غير سديد ، وربما تسألنى لماذا ؟ والجـــواب أن كثيرا من أفكار فلاسفة أوربا تلاشت فلم تواكب أحداثا ، وانما ماتت مع الأحداث ، خذ مثلا فرنسيس بيكون صاحب المذهب التجريبى الانجليـزى

وقد عاشت فى فؤاده (أطلنطس الجديدة) تلك القصة الخيالية التى لم يقدر لها أى نوع من النجاح ، رغم أنه قد استلهم احداثها وأبطالها وكل أحداثها من المدينة الفاضلة للفارابى ، وماتت فكرة بيكون ، وظلت مدينة الفارابى .

ألم يعلن جون لوك ١٧٠٤ أن العقل الانسانى يبدأ قريب الشبه بالصحيفة البيضاء التى لم يخط فيها بخط ، ثم تتوارد عليه المعارف والمعلومات المختلفة ، ثم تلاشت هذه الفكرة عنده وقام بتعديل العبارة بما يشبه التراجع التام مما يدل على أن الفكرة ماتت فى ذهن صاحبها ولم تواكب أحداث العصر .

بدليل أنه عاد ليعرف العقل من جديد بأنه " الذى يميز بين الظواهر الطبيعية المادية ، والظواهر العقلية النفسية على اعتبار أن العقل هو الجوهر المقوم للادراك الباطنى؟ وظلت هذه الفكرة تطارده فى يقظته وتقض مضجعه فى لذيذ أحلامه ، وما ذلك الا لأنه المعارف الفطرية التى يولد الانسان مزودا بها ، ومنها معرفته بالله تعالى . قال تعالى : " فطرة الله التى فطر الناس عليها " وقوله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة " فلما أنكر لوك المعارف الفطرية سقطت الفكرة ولم تواكب الأحداث ، فدعوى أنها حديثة لمواكبة الأحداث غير مقبولة .

٣ - ثبوت حقائقها :

وهذه مسألة خطيرة ، لأن المعروف أن حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ، وليست الأفكار الأوربية من هذا القبيل ، لأنه لا حقائق فيها بدليل أنها غير ثابتة وأقص عليك ما يكشف أنها ليست حقائق وليست ثابتة ومن ذات الفلاسفة الأوربيين أنفسهم .

١ - لوك : أنكر المعارف الفطرية وظلت هذه الفكرة في رأسه وان كانت أفكاره الانهزامية نحوها لم تمكنه من الجرأة عن اعلان الهزيمة .

٢ - ديفيد هيوم : قام بزعزعة الحقائق حتى أنكر وجود العقل الانساني نفسه ، لأن العقل في نظره سلسلة من المشاعر والخواطر والذكريات وبهذا لم يعد عقل أصلا عند هيوم .

٣ - جورج بركلي : وقف عند المادة وقرر أن المادة غير موجودة أصلا ، وبالتالي أنكر وجود المادة فأين الحقائق التي يدعى أصحاب الثورات في أوربا أنها تواكب العصر وتبقى حية معه .

على أية حال ، فإن الحقائق الثابتة ليست من شأن الأبحاث العلمية والا لوقفت الحياة عند هذا الحد ، فلو كانت فكرة عدم كروية الأرض ثابتة ماكانت الأبحاث التي دارت وأثبتت كرويتها ، وبالتالي عرفت مواعيد الفيضانات ، ومسائل الخسوف والكسوف ، بل وتحددت كل المواقع على يابسة هذا العالم

انما الثابت بحق هو الحقائق الدينية التى مصدرها الله رب العالمين فهى أبدية أزلية فيها صلاح الدنيا والآخرة ، وأعمار الحياة ، ووجهها الجميل ، لأنه شرع الله ، أما الفكر الأوربى فليس له شىء من ذلك ٠

الرأى الرابع : أنها حديثة لأنها أتت بما لم تسبق اليه :

وهذا الرأى تنقصه مسألة الاستقراء ، بل ويحمل هزيمته من داخله بحيث لايقوم له أثر ، أما لماذا ؟ فلما يلى :

(١) هل تم حصر دقيق لكل الآراء والأفكار على مستوى العالم كله شرقيه وغربيه ، شماله وجنوبه ، وعلى كافة المستويات وفى كل الدوائر ، ثم تبين أن الأفكار كلها ماتت أو جاءت متخلفة بينما الأفكار الأوربية هى التى عاشت وأتت بما لم تسبق اليه ؟ الجواب معروف ، وهو أن هذا الحصر لم يتم على أقل تقدير ٠

(٢) دعوى أنها أتت بما لم تسبق اليه تنقصها الدقة ، لأنها قامت على أنقاض غيرها ، والا فعلى أى نحو نشأت ؟ هل توجد أفكار من غير قواعد تقوم عليها ؟ لاشك أنها ستكون أفكارا شيطانية ، بل سأضع بين يديك شواهد عديدة لترى أن الغرب كانوا عالة على فكر الشرق وأن التراث الاسلامى كان الواحة التى تنسم فيها الأوربيون أعابير الحياة ٠

الشاهد الأول : تلقى جامعات باريس بفرنسا وبادوا بايطاليا التراث الرشدى بحماس بالغ ، بل ان جامعة بارو العريقة بايطاليا أطلقت على ابن رشد روح أرسطو وعقله ، ومايزال هذا الاحتفال السنوى يتردد صداه حتى أعتلى العرش أعداء الاسلام والعرب فألغى هذا الاحتفال التقليدى الذى أستمر سنوات طوال ، أيام الحيدة والموضوعية والاعتراف بالجميل ٠

الشاهد الثانى : تأثر فرنسيس بيكون فى منهجه ...ى بكثرة من علماء الاسلام أمثال جابر بن حيان ، وابن الهيثم ، وابن النفيس ، وابن طفيل لأن القاعدة الثابتة عندهم كانت جرب وشاهد ثم كرر التجربة حتى تتأكد من صدق النتيجة تكن عارفا ، واياك والتسرع أو القفز الى المياه غير الصالحة للسباحة والعوم ٠

أما كيف تأثر بهم فرنسيس بيكون ؟ فلأن بيكون صاحب مذهب تجريبى ولم يكن هذا المذهب موجودا فى محيط ثقافته ، لأن الغرب حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى – كانت القاعدة عندهم تتوزع الى قسمين :

الأول : مايتعلق بالدين " خذ وأنت أعمى ٠ هكذا تعلم ، مايذكره الرب لايفهمه أفراد الشعب ، وكان هذا الحال فيما يتعلق بالدين لامنازعة فيه ، لأن مسائل الدين حل معضلاتها عند القسس والرهبان ، عند السلطة الكهنوتية بزوائدها المستمرة ، وليس لأفراد الشعب حق فى فهمها

أو تناولها ، وكذلك أمور السلطة ٠

الثاني : ما يتعلق بأمور الحياة العامة ، من معالم وفنون وآداب ، فكانت القاعدة : اقرأ مافى الكتب التى تعتمدها السلطة ، وكرر ما يقوله العلماء تكن عالما ٠ ولذلك لما خرج جاليليو على أرسطو اعتبر خارجا على الدين والسلطة معا ولذلك أحرق ، وبالتالى استفاد بيكون مذهبه التجريبى من علماء المسلمين الذين لم تكن تلك القيود عندهم قائمة بل على العكس كانت الدعوة الى العلم والتجريب — مع الاحتفاظ بالدين هى السائدة ، وقد استفاد بيكون ذلك ومن تابعه مما كان له كبير الأثر فى انتاجهم الفكرى فيما بعد ٠

الشاهد الثالث : وهو يكاد أن يكون قاسما مشتركا أما كيف ؟ فان الخيال الأدبى لم يكن موجودا فى أوربا فلما جاء فرنسيس بيكون وأنشأ قصته الخيالية أطلنطس الجديدة ظن البعض أنها من بنات أفكاره بينما هو متأثر بالخيال الخصب الذى أنشأه الفارابى من خلال " المدينة الفاضلة " فرغم أنها خيال فلسفى رائع ، الا أن هذه الفكرة الفلسفية وجدت فى كل من :

(١) بلاد اليونان وعرفت بجمهورية أفلاطون ٠

(٢) بلاد الاسلام وعرفت عند الفارابى بالمدينة الفاضلة ٠

(٣) بلاد أوربا : وعرفت عند القديس أوغسطين باسم مدينة الله ٠

وكل هذه الأفكار الفلسفية عرفت باسم الأفكار المثالية فى الفلسفة الانسانية

اذ ن بيكون متأثر بمن سبقه فى هذا الخيال الفلسفى أيضا .

الشاهد الرابع : عند توماس هوبس . ومذ هبه الآلى الذى ارتبط بعصر الصناعة والماكينة والآلة بديلا عن الانسان والحيوان ، ومع هذا طالب بضرورة الحاكم باعتباره الضامن للهدوء والمحفز على الاستقرار ، ومن يطالع مقدمة ابن خلدون يجد هذه الصورة واضحة مع اختلاف فى طريقة العرض والآراء الراجعين لاختلاف الأزمنة والظروف .

كما أن تقسيم هوبس المجتمع الى مراحل هى البدائية والمدنية ووضع صفات تميز كل هذه المراحل لايمكن أن تكون هى والأحكام السلطانية للماوردى مجرد توافق خواطر ، وانما لابد من القول بأن الأحكام السلطانية والمقدمة قد ترجما مما ترجم من التراث الاسلامى وأن هوبس مسبوق فى تلك المسائل التى تعرض لها بالفكر الاسلامى حتما لتطابق وجهتى النظر تمام المطابقة وبما ينفى تماما أن تكون هناك فكرة توارد خواطر .

الشاهد الخامس : تأثر بيكون بالغزالى فى موقفه من العقل ، ألم يقل بيكون " ينبغى ألا نمد العقل بالأجنحة بل علينا أن نثقله بالأغلال حتى نحول بينه وبين القفز والطيران ؟ راجع هذه العبارة ثم اقرأ عبارة الامام الغزالى " ثم نظرت الى العقل فاذا أغلب قضاياه لو نظر اليها لنقضت ، ولو تركت العقل وحده لما كان مأمون العواقب ، لاشك ترى الفكرتين متقاربتين على هذا النحو الذى سلف ذكر طرف منه ، وفى تقديرى أن الشواهد لاتحصى ومن ثم

سأتوقف عن ذكر المزيد من هذا الجانب خشية الاطالة ، تاركا لك مهمة البحث عن شواهد أخرى حيث تسمح نفسك بالغوص في الأعماق بحثا عن لآلئ الفكر ، وأصداف المعرفة ، واياك أن يغرك فيروز الشطآن فتؤثر المال على الجمال ، ومتعة الجسم على بهجة العقل ، فتلك شيمة السطحيين وانت لست منهم ·

الرأى الخامس: أنها حديثة في مصطلحاتها والمسميات:

وهذا الأمر جد غريب ، ذلك أن المصطلح لايمثل حداثة ولاتأخرا بل ربما كان من شبه الثوابت أن المصطلحات الفنية أمر غاية الأهمية لأنه يفرق بين المعانى المرادة التى يحملها اللفظ نفسه ، ولامشاحة في الاصطلاح لأنه لايصح التنازع فيه أصلا ، والا تحولت الأفكار الى كومة لايقع التميز بينها ، ولايعتبر المصطلح دليلا على الحداثة والجدة ، أو التأخر والتقليد ، بقدر ماهو مميز محدد ، وعرف عند المناطقة بالتعريف الاسمى · لأنه يحدد المسمى ويميزه عن غيره ·

ثم آتى بمصطلح ما مما يعتبر من الحداثة ، وسوف أقف بك على المعبر الذى انطلق منه والأصل الثابت الذى نقل منه فاذا قلت: مصطلح التجربة : أقول انه قديم وعرف باسم مراحل الصواب والخطأ ، واذا قلت الآلية أقول انه علم قديما باسم طبائع الأشياء ، واذا قلت المذهب

النفعى مثلا : قلت انه مذهب المصلحة العامة ، وهكذا فما من مصطلح حديث فى أوربا الا وله أصل قديم فى التراث الاسلامى والعربى ، أو الاغريقى والهندى ، من ثم فلاتصلح مسألة المصطلحات دليلا على الحداثة .

لكن بعض من غير ذى التخصص يحاولون الدخول اليه من غير أن تكون لديهم قواعد ثابتة وهم فى هذه الناحية يشعرون بعجز شديد فى كمية المعلومات التى يجب أن يكونوا قد اكتسبوها حتى تغوز فى أعماقهم ثم تنطلق الى الفكر ليحكم عليها ، ولكن فقرهم فى هذه الناحية لابد له من معالجة ، لكنهم بدل أن يعالجوا تقف بهم الحيلة عند حد اصطناع ألفاظ خاوية من المدلول ، ومفرغة من المعانى ، بل وليست لها أية دلالة من الناحية الفنية .

وسأنقل اليك صورة من هذا المصطلح الذى لارأس له ولاذنب ، بل ولا أم له أو أب ، ونشر فى احدى الصحف القومية ، وسأنقله لك وعندى الذى تكسبه لو فهمت شيئا ، تحت عنوان " ابن رشد محورا للحوار الفلسفى فى " ألف " كتب محمد حربى : لم يبق منى غير درعى القديمة ، سرج حصانى المذهب لم يبق منى غير مخطوطة لابن رشد ، وطوق الحمامة والترجمات بهذا المقطع الشعرى الدال لمحمود درويش دشنت مجلة " ألف " التى يصدرها قسم الأدب الانجليزى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة والتراث العقلانى فى الشرق والغرب .....

يكتب نصر حامد أبو زيد فى هذا العدد ابن رشد بين حق المعرفة وضغوط الخطاب النقيض متكئا فى تحليله لقراءة التراث على مقولة الشيخ أمين الخولى الشهيرة والداعية لقتل التراث فهما مايعنى عند أبى زيد القتل الحقيقى عبر نزع القداسة عن هذا التراث ٠

ويرى أبو زيد أن استدعاء ابن رشد فى اطار معركة التنوير العربية الحادثة الآن لن ينجح مثلما لم تنجح عملية استدعاء المعتزلة فى الستينات لمواكبة العدالة الاجتماعية والاشتراكية ، لأن بن رشد كان على هامش الثقافة العربية ، ولأن ابن رشد المنقول لأوربا والمدعم بطروحات وتأويلات أوربية ليس ابن رشد العربى ٠

بل يجب أن نقرأ المشروع الرشدى قراءتنا الخاصة فى مقابل السياق التاريخى ، ويحلل المشروع الرشدى فى مقابل المشروع الغزالى ، نسبة الى ابى حامد الغزالى — أو العقلانية فى مقابل الوسطية التى تاهت مع الاسلام نفسه فى منهج شعرى صوفى ٠

٠٠٠ غير أن على بيروك ذهب فى تحليله الفارق بين ابن رشد ، وابن خلدون الى أن المشروع الرشدى يمثل انكسارا مراوغا للعقلانية نظرا لارتباطه بالسلطة (والسياسية والثقافة) بحيث يصبح التسلط بناءاً وسياسيا أحد أهم حدائق انتاج العقلانية ، ويرفض بيروك الربط الميكانيكى لازهار الغرب بالمشروع الرشدى معتبرا ذلك المشروع نتاج العقل الغربى

فى الذرة الوسطى التى تمردت عليه حركة التنوير الأوربية بعد ذلك(١) .

واعترف أننى قرأت هذه النتف طويلا ، ومرات عدة ، وفى كل منها عدت خاوى الوفاض لا حيلة لى ، غير أنى لما كنت من المتخصصين فى هذا الفن فقد تأبت نفسى على السكوت ، واستعصت على الملاينة ، من ثم سأقدم ملاحظاتى العامة على المقال ، تاركا لغيرى فرصة التعرض له ، ثم أذكر بعض الملاحظات الفنية لمجرد الاشارة .

أولا : الملاحظات العامة :

١ — صاحب المقال والمتحاورين معه ليسوا من أصحاب هذا الفن ، بل جملتهم من العاملين بالأدب الحديث وهذا التخصص أعلن أفلاسه على أيدى رواده الذين لم يتمكنوا من تخريج كوادر فنية تحمل عبء فهم الأدب وكونه حديثا والموضوعات التى يباح لهم أن يدخلوها والتى يجب أن يتوقفوا بعيدا عنها والا ضلوا .

٢ — مجلة الألف — خاصة بنفث السموم فى المجتمع المسلم ولذا فهى تستقطب من لديهم ١/١٠ من الثقافة ويحمل فى ذات الوقت اسما لامعا ولو كان فى معصية الله ورسوله . حيث يسبق اسمه لقب دكتور فيفوز الرأى ببعض القبول .

---

(١) الأهرام المصرية ملحق الجمعة ص ٩ عمود ٢٧ /٩/١٩٩٦م

٣ — المقال يحاول الوقيعة بين عَلَمَيْنِ من أعلام الفكر الانسانى على العموم والاسلامى على الخصوص رغم أن الأمر يتعلق بكونهما وجهات نظر لأحدهما فى موضوعات معينة فجاء الثانى خلفه وناقش الأول فى وجهة نظره ، وربما لو قدر للأول أن يمتد به العمر حتى يرى عيوبه من خلال زميل مسلم ، ربما لرجع وهو أغلب الظن ، اذن المسألة ليست بين العقلانية والوجدانية ، وانما هى وجهات نظر تقبل ترجيح أحد الرأيين على الآخر ، وأكتفى بهذا القدر من الملاحظات العامة •

ثانيا : الملاحظات الفنيـة :

١ — لايوجد شىء اسمه التراث العقلانى وتراث غير عقلانى ، أما لماذا ؟ فلأن المعرفة الانسانية أنواع وهى محل اتفاق بين المتخصصين الذين يفهمون معنى التخصص ، وهذه الأنواع هى :

أ — المعرفـة الحسيـة •

ب — المعرفـة العقليـة •

جـ — المعرفـة الالهاميـة •

د — المعرفة النقلية — القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة •

من ثم فلايوجد تراث اسمه التراث العقلانى ، والا فالنسبة خطـأ من ناحية اللغة ، لأن المعروف أنه اذا نسب الى اسم صحيح ،

أضيفت الى آخره ياء النسب ، فيقال التراث العقلى ولايقال العقلانى
ولكن ماذا نفعل وهم لايفرقون بين معانى المفردات الأولية •

ثم انه – فرضا – اذا قيل تراث عقلى ، فالواجب أن يقال على كل نوع من أنواع المعرفة كذلك ، فيقال عن المعرفة الحسية : التراث الحسى ، وعن العقلية التراث العقلى ، وعن الالهامية التراث الالهامى ، وعن النقلية التراث النقلى ، وهذا لم يقل به أحد من السابقين ولا اللاحقين بل التراث الانسانى يقال عليه تراث انسانى للتفرقة بينه وبين النقل المنزل ، اذن هم لايفهمون هذه الناحية الفنية •

٢ – ألفاظ : حق المعرفة : ضغوط الخطاب النقيض – نزع القداسة عن هذا التراث – معركة التنوير العربية الحادثة المنقول لأوربا المدعم بطروحات ، انكسارا مراوغا ، الربط الميكانيكى ، الذرة الوسطى كل هذه المفردات والتراكيب تدل على أن الأسلوب الذى تمت به لايعرف الصواب فى لغة الخطاب ، لأنها تراكيب متناقضة ، فمثلا ضغوط الخطاب النقيض ، ماذا تؤدى هذه المبتسرة ، ومابعدها لم يسلم من خطأ التركيب والشرط الأول فى فصاحة الكلام أن يسلم أسلوبه من مفردات وتراكيب ، فما بالكم وقد أخطأ الأسلوب والتركيب معا •

٣ — المقال ومن حوله نقدوا الناحية الفنية وأتحدى جميعهم أن يقدم معنى محددا للمصطلحات السابق ذكرها أو قل للمشوهات التي لامعنى لها ، ثم ماهو التراث الذى قرأه أحدهم وأنا أعيد قراءته معه ، وسوف ينكشف أمام الجميع أنه لايعرف ما التراث ، بل وأتحداهم أن يفرقوا بين المتمايزات من أمثال : قراءة التراث ، فهم التراث ، نقد التراث ، تحقيق وتحليل التراث ، وأنى لهم أن يفهموا أو يجيبوا فليس هذا شأنهم ٠

٤ — الاسلام لم يَضِع : ضاعوا هم وألف ألف من أمثالهم ، انهم كشفوا عن جهلهم وعلمانيتهم ولن يفلحوا اذن أبدا أما كيف ؟ فعبارتهم تجعل العقلانية فى مقابل الوسطية ، ولا أظن عاقلا يرى تقابلا بين الطريق ومنتصفه ، أو الطريق أوله ووسطه ، وإنما التقابل يكون بين العقلانية مثلا — مع عدم موافقتى على لفظ العقلانية — والوجدانية ، أو العاطفية بحيث يمثل كل منهما طرفا لخط واحد أما انهما طريق ووساطة فلا تقابل اذن لكن لمن نقول ، ومن يفهم ٠

٥ — زعموا — لا سامحهم الله — أن الاسلام تاه فى نهج اشعرى صوفى والله ماضاع الاسلام ولن يضيع انه دين الله ، ولو عرفوا الفرق بين الاسلام والفكر الاسلامى لما سقطوا فى هذه الهوة العميقة التى لايرجى بعدها سلامة ٠

ياسادة : أوقفوا هؤلاء الغفلة وعلموهم أمرين :

أ – الاسلام : وهو النقل المنزل – القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وهذا لن يضيع أبدا ، لأن الله هو الحافظ له ، قال تعالى : " أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " .

ب – الفكر الاسلامى : وهو محاولة المسلم الناضج الملتزم المتمكن من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهذا الفكر قابل للأخذ والرد ، والصواب والخطأ ، لأنه ليس كلام الله ولا سنة رسوله . وانما هو فهم فى كتاب الله وسنة رسوله ، وقد يضيع بعض الفكر الاسلامى ، لأن فيه فقها ، وتفسيرا وعقيدة ، وأخلاقا ، وسلوكا وتصوفا وكافة شئون الحياة ، فقد يضيع بعضه بالحرق ، أو السرقة أو التدمير لكن يبقى الاسلام قائما لاعوج فيه ولا شطط حوله انه دين الله رب العالمين وسيظل رغم أنف الكافرين والملحدين والعلمانيين والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

٦ – استخدموا مفردات : الربط الميكانيكى ، وهو استعمال قائم فى علوم الطبيعة ، لكنهم فشلوا فى استعمال اللفظ ولم يتمكنوا من توظيفه على النحو الأمثل أو الصحيح ، ولذلك ضلوا بل هو دليل على أنهم سطحيون فى أفكارهم ، لايعرفون حقائق الأشياء من

من ظواهرها ، مع العلم أن هناك فرقا جليا بين الظاهرة وحقيقة الظاهرة ، لكن ماذا نفعل لعميان .

٧ ـ انهم يريدون هدم العقلية الاسلامية عموما والعربية خصوصا ، انهم يعملون لصالح دول أخرى رغم أنهم يعيشون بيننا ويطعمون من خيرات بلادنا الاسلامية ، ومع ذلك فهم عناصر فساد ، وجراثيم فتاكة لقيم هذا الوطن وأخلاقه النبيلة ، ولذا اذا وقعت لأحدهم ضائقة تجده في اليوم الثاني بهولندا مقيما ، أو بانجلترا لاجئا ، أو في أمريكا عالما ، وماهم بضارين من أحد الا باذن الله ، ولن يتمكنوا من أغراضهم غير السوية .

بعد هذا الاستطراد أراك تعذر لي فالطامة كبرى ، والمأساة تحتاج الى مواجهة فكرية ، فالقانون وحده لايكفي ، انما لابد من تمشيط المنطقة ، وفحص كافة الزعومات الفاسدة ، وتلك مهمتك فاحملها بأمانة والله يعينني ويعينك ويقدر لي أمري وأمرك .

الرأي الأمثل في الحداثة

الحداثة عندي قد تكون في الزمان ، وتعتبر الفلسفة الحديثة عبارة عن فترة زمانية انطوت مابين القرن الثالث عشر الى العشرين ، شاملة كافة الأبحاث الفكرية في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، بحيث

يدخل فيها ابن الهيثم قبل فرنسيس بيكون ، ويدخل فيها الامـــام : الرازى قبل مفكرى أوربا كلها ، ويدخل فيها الآمدى والسعد التفتازانى قبل ديكارت ومالبرانش ، ودافيد هيوم ، وجاسندى وغيرهم .

كما يدخل فيها الزمخشرى قبل غيره وكذلك سائر مفكرى الاســـلام فان الفلسفة الحديثة تشملهم قبل غيرهم لأنهم الأصل الذى قامت عليـه تلك ، وأُفقد الأصل وامتد الفرع ، وليس من المعقول أن يقال ان الأصل مات ونشأ الفرع ، وهذا ليس بحاجة الى الحديث عن الأصل ، لأن ذلـك قلبا للحقائق ، وتغيرا كاذبا لأمور ثابتة .

هل لعلماء الكلام والمذاهب آراء فلسفية أو فكرية ؟

راجع ان شئت أسرار التنزيل وأنوار التأويل للرازى ، ستراه تحدث عن الزمان والمكان والحركة ، بل وتحدث عن الوجود ككل ، وعن الوجـــود الانسانى ، وفرق بين هذا وذاك تفرقة البصير الناقد ، لا تفرقة الجامع الناقل ، وقل مثل ذلك فى كتبه الكلامية التى تناولت المعرفة الانسانيـــة وأنواعها والقيم وأشكالها الثابت منها والقابل للتغيير ، كل ذلــــك بعبارة سهلة ميسرة أخاذة .

وارجع ان شئت الى المطالب العالية من العلم الالهى له أيضـــا ثم كرر النظر فى تلك المؤلفات التى حملت علما وفكرا ، فلسفة وأدبا وأخلاقا

وحكمة ، لم يستعر أصحابها أبواقا تنادى بهم ، أو تزف أخبارهم ، بل كانوا مفكرين من الطراز الأول .

وقد تسألني الزيادة فأقول :

من يريد أن يتعرف على فكر المسلمين ويرى ما اذا كانوا بحق فلاسفة محدثين أم لا ؟ فليرجع الى مباحث الأمور العامة التى كانوا يبدأون بها مؤلفاتهم الكلامية تراهم قد تحدثوا عن :

- الوجود .
- العدم .
- الماهية .
- النسبية .
- الجوهر .
- العرض .
- الزمان المقدر فى علم الله الأزلى .

بل وكانت لهم اشارات ذكية للعلم المادى أو أحسن استخدام ما لطلب المسلمون بايمانهم وعلمهم كافة الأمم ، بل ونشروا السلام فيما بينهم ، وحققوا للبشرية المجهدة حلما فى الأمن والأمان كم راودها وأزالوا عن كاهلها الثقل حبا للدمار والخراب الذى ينتظرها .

ولسوف يتحقق يوما ما · هذا الأمل فتجوس قوافل المسلمين الأرض، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ناشرة العلم ، حاملة لواء المعرفة ، وحينئذ ستنتهى نزعة العدوان والأنانية وتختفى لغة النار لتحل لغة الحوار ، ويختفى التنابذ ليسود التآلف ، ولكن ذلك مطلب ليس ببعيد متى صدقت النوايا ، وصحت العزائم ، والتزم المسلمون أمر دينهم ، وماذلك على الله بعزيز ·

أما ما يسمى بالفلسفة الغربية ، أو الفلسفة الأمريكية ، أو الفرنسية ، أو الألمانية ، أو غيرها من التسميات فهذا من سقط القول ولا التفات له ، لأن الفلسفة موضوعات ونظريات ، وليست عصبيات أو جنسيات ، وبالتالى تسقط كافة الدعاوى الزائفة لتبقى مسألة هامة هى الفكر الانسانى ، وأنه قاسم مشترك كله ، فهيا الى جانب من ذلك الفكر ، وأعدك أن يكون شاملا لعديد من المدارس الفكرية فيها ، فهل ترحل معى ، أم تؤثر الدعة ، والخلود الى الراحة ؟

((الخاطـــر الرابـــع))

((نموذج من المدرسـة التجريبيـة الانجليزية))

فلسفة فرنسيس بيكون

تمهيد :

سلف الحديث عن عصور الفلسفة المختلفة ومراحلها المتتالية ، كما ذكرت الدوافع التي أدت الى ظهور الفلسفة الحديثة في أوربا ، وأخيرا تحدثت عن مفهوم الحداثة ، وأبنت أنه لايخص الفلسفة في أوربا وحدها ، وانما يشمل كل تفكير فلسفي عاش هذه الفترة من فترات الفكر الانساني .

والآن أنتقل الى المدارس الفلسفية في أوربا محاولا تقديم نماذج لها آملا أن تحظى بكثير من رعايتك ، وقليل من الشفقة عليها ، فهي مسائل متفاوتة ، ومدارس متباينة ، ومذاهب فكرية تلتقي بالمرء حينا في ناحية ثم في حين آخر تعود سيرتها الأولى ، على أني سأحفل بذكر الفيلسوف من ناحية سيرته الذاتية ، والمؤلفات التي تركها ، والفلسفة التي انتمى اليها ، ثم مناقشة هذه المسائل متى كان السبيل الى ذلك ميسورا .

على أن يوضع في الحسبان أن هذه المدارس الفلسفية تفصل بين العلم والدين ، كما تلتمس اعادة تقديم الحقائق السابقة ، مع تطويع الفلسفة لمشكلات العصر وقضاياه ، كما أني حين أذكر هذه المدارس

الفلسفية فلا يعني هذا أنني اعتقدها ، أو أكرهها ، أو أن أحبها ،
كل ما أعنيه أنه فكر نتناوله بالدراسة والبحث ، والتمحيص والفحص وسأبدأ
بالمدرسة التجريبية الانجليزية ، وعلى الخصوص فرنسيس بيكون •

فمن هو ؟

وما هي مؤلفاته ؟

وما الفلسفة التى آمن بها ؟

فرنسيس بيكون : ١٥٦١-١٦٢٦

سلف القول بأن الديانة المسيحية قد أتخمت مرة باضافات السلطة
في الحق الالهي الموروث ، وأخرى باضافات الكهنوت ، وأن هذه
الزيادات دعت الناس الى الشك فيها جميعا حتى بات الناس في فراغ
ذهني لاقرار له ، ودوافع نفسية لاعلاج لها ، وصدمات اجتماعية هي
الانتحار بعينه •

ورأينا الدوافع التي سبق الحديث عنها ، وقد هيأت المناخ
الفكري لاستقبال الأعمال العلمية والابداعية التي ما ان بدت على السطح
حتى اجتذبت الناس اليها وشغلتهم بها حينا من الزمان ، حتى فجر
الصوت الهادى لروجر بيكون ذلك الصمت الطويل ، وقطعت تجاربه ذلك

الطريق حتى بات وشيكا ظهور فيلسوف تجريبي ينقل الأذهان من دنيا الخيال الى عالم الواقع ، ومن النظر الى التطبيق فكان هذا هو فيلسوفنا فرنسيس بيكون ، فما هي سيرته الذاتية ؟

أولا : مولده ومسقط رأسه :

ولد بيكون في الثاني والعشرين من شهر يناير ١٥٦١م ، وكان ذلك بمدينة لندن احدى المدن الكبيرة في الولايات المتحدة البريطانية .

ثانيا : ظروف نشأته : (١)

ولد بيكون بين أسرة لها عرش تليد ، وماض مشرف ، وتأمل في غد مشرق ، حيث كان أبوه يحتلي منصبا ساميا في الدولة ، حيث كان من رجال السياسة والقانون ، وكان الرجل نابها نابها ذائع الصيت واسع الشهرة ، له من أصدقائه الذين يحتلون مناصب رفيعة في الدولة بحيث يمكن القول بأن والده تهيأت له ظروف كم تمناها من كانوا له قرناء .

أما أمه فقد كانت سليلة بيت عريق ، وكانت قد حصلت على قسط من الثقافة الانسانية ، والمعارف العامة ، كما كانت تحفل بشيء من الثقافة والمعارف الدينية مكنت لها من أن ترضع وليدها ثقافة موثقة ، كما أنها استفادت من هذا القدر الثقافي فراحت ترضع طفلها من رحيق علمها آملة أن يخرج للحياة رجلا قويا ، يقود سفينة أمته في براعة ويسر .

وقد كان لثقافة أمه ، وذيوع شهرة أبيه ، والمعارف التي لقنها مبكرا ، أثر كبير في توجيه الفتى الى طريق العلم ، والبحث عن المعرفة ، وقد بلغ من حرصه على العلم أنه كان ينسى طعامه والوقت المحدد له متى كان ذلك متعارضا مع سياحته العلمية .

(٢)

ونظرا لتعلقه الشديد بالعلم وحبه الدؤب للمعرفة فقد غذى أبوه فيه هذه الرغبة وكان يبارك خطواته في طريق اكتسابها ، حتى اذا يفع الفتى أرسل الى جامعة " كمبردج " وكان في شرخ الشباب حيث كان في الثامنة عشرة من عمره ، ولما أدخل الجامعة كان الغرض دراسة القانون حتى يتبوأ المنصب الذي أعده له أبوه .

غير أن الدراسة القانونية لم ترق له على ما يبدو ، فظل بالجامعة ثلاث سنوات لم ير في نفسه الرغبة للاستمرار بها حيث سخط على المناهج الدراسية التي تعتمد على القوانين الرومانية ، وطرق التدريس التي تعتمد على التلقين أكثر مما تعتمد على الفهم والتحصيل ، ورأى أن الجدل التاريخي قائم فيها على تدم وسائل ، بجانب أنه غير مثمر في غالب الأحيان لاينتهي الي نتائج أي شيء مهم .

غير أن بيكون كان قد اطلع على الفلسفة والمنطق الصوري فقرر في داخله أن ينقل جذور الفلسفة الحية من أرض الجدل الجدباء حتى

يغرسها فى تربة يراها أغنى وأخصب حيث تكون الفلسفة فيما بعد سبيلا الى خير الناس وسعادتهم ، أو بعبارة أخرى أن ينقل الفلسفة من الفكر النظرى الى التطبيق العلمى •

(٣)

رأى الفتى فى نفسه امكانيات تخول له العمل ، ومع هذا يـدرس ماشاء أن يدرس فهو صاحب خبرة فى الجامعات من خلال المدة التـى قضاها بكيمبردج فى دراسة القانون ، ثم هو صاحب نبوغ وذكاء حاديـن فماذا عليه ان ذهب للعمل وأكمل دراسته العلمية فيما بعد •

فعلا وجد الفرصة سانحة فعمل بالسلك السياسى لبلده ، حيث اشتغل بالسفارة الانجليزية فى باريس ومكث بها قرابة عامين وكان محلا لثقـــة رؤسائه الذين عمل معهم وربما لو استمر بالعمل ولم تحدث مفاجآت فــى حياته لاعتلى السلم السياسى بسرعة اذ كانت خطواته عليه سريعة ، لمـا كان يتمتع به من بديهة حاضرة ، وذكاء لماح وألمعية •

ثالثا : أحداث فى حياته :

أ — موت أبيه فجأة :

كان الأب قد اعتزم توريث ابنه تركة تحفظ له حياة هادئة ، وقـــد لمس الأب فى ابنه رغبة فى العلم وتطلعا للمعرفة فأحرى به أن يعينه على تلك المهمة ، وكان الرجل يخطط لهذه المسألة ، وفجأة باغت القـــدر

أباه ، وعلى غير موعد عجل بموته قبل أن ينفذ الأب ماكان قد اعتزمه بالنسبة لبيكون من توريثه ضيعة من أرضه تكفل له اليسر وتضمن له الثراء .

فلما سمع بيكون بفجيعته فى أبيه عاد مسرعا الى لندن ، وكان لايزال فتى ناعما ، وهناك وجد الفتى نفسه وحيدا بين اليتم والعدم ، وهو ذلك الناعم الذى لم يذق طعم الحرمان مرة حيث نشأ فى أحضان الترف والجاه ، فعز عليه أن يروض نفسه على خشن العيش وشظف الحياة .

غير أنه لم يكن الأبن الأكبر ، وكانت قوانينهم تقضى بأن يرث الأبن الأكبر تركة أبيه ، فقد حرمها بيكون وحصل عليها غيره من خاملى الذهن الذين أضاعوها بين اللذات ومصائع اللهوى ، ولو أن أمه قد امتد بها العمر لحققت لبيكون ما ينشده ، لكنها كانت قد تقدمت الجميع تاركا الناس دار حياتهم ، أما هى فقد أنست بالراحة وهجعت للخلود .

ب — اهداء آرل أسكس لبيكون ضيعة :

عز على نفر من أصحاب بيكون ما آل اليه أمره ، من فقر ومذلة وضعف وهوان ، وهو الناعم الذى لم يألف هذه ولم يعرف تلك ، لكن ماذا هو صانع وضيق اليد يلاحقه ، غير أن هذه الحال لم ترق لصديقه " آرل أسكس " وكان نبيلا صاحب ضيع ورأى فى بيكون نبوغا وذكاء سوف يضيعان فى الزحام ان لم يضمن أحد لبيكون حياة هادئة .

من ثم فقد أهدى أسكس بيكون ضيعة واسعة كانت له بمثابة العوض عن مال أبيه فضمنت له الحياة الهادئة والعيش الكريم ، وكان هـــذا الصنيع من أسكس جديرا بأن يعتبره بيكون دينا لاينسى وجميلا لايجحد ، ولكنه تنكر لكل هذا فيما بعد ٠

رابعا : وظائفـــه :

أ — في القضـــــاء :

التمس بيكون لنفسه في مشارب الأمل طريقا ، فراح يطرق أعمـــال القضاء التى كان قد درس بعضها حين كان بجامعة كمبردج ، ولكنه لـم يوفق فى أن يكون طريقه للحياة فاتجه الى غير القضاء ٠

ب — في التدريس :

كانت المدارس بحاجة الى أمثال بيكون ، وبخاصة أن أوربا رأت فى العلم السلوى بعد الذكرى ، والطيف بعد الخيال ،فهى وان كانـــت قد عاشت عصور ظلام فلا مانع من أن تطل من جديد على بصيص النـــور ، ولما كان ذلك النور فى العلم ، فقد افتتحت المدارس فى أوربا علـــى أشدها وكانت بحاجة الى أمثال بيكون لتعليم الناشئة ٠

ثم باشر التعليم فى الحقوق بعد أن ذاعت امكانياته العلمية وقوته على الاقناع بجانب اسلوب عذب مع جزالته فلامانع من أن يعين فى الحقـــوق

مدرسا للقانون ، الذى هيأه فيما بعد لتولى مناصب أعلى وليكون لـه الحق فى حمل الحقيبة الخاصة بالحقانية فيما بعد وزارة العدل .

جـ — فى الوزارة :

فى عام ١٥٨٢ انتخب بيكون عضوا فى مجلس النواب ، وكان صاحب بيان فلفت الأنظار اليه بقوة منطقه وحسن بيانه ، وقدرته على اقناع الآخرين بوجهة نظره ، ونظرا لوجود علاقة مابين مجلس النواب والحقائب الدبلوماسية فقد بلغت أخباره الملكة اليصابات ملكة بريطانيا التى قدرت له مواهبـه وامكانياته فعينته وزيرا للحقانية ، ثم مالبث أن كلفته بتشكيل الوزارة وكـان هو رئيسها .

خامسا : سوءات فى حياتـه :

لم تسلم لبيكون حياته ، وهكذا شأن السياسة ، لكن فيما يبدو أن : بيكون قد وقع فى خلاف مع نفسه وبدل أن يكون حاميها صار حراميها فوقع فى جرائم ماكان لمثله أن يقع فيها وهى :

أ — اتهامه بالرشـوة :

أصحاب النفوس الضعيفة يسقطون عند الاختبار وان قاوموا فانها مقاومة لاتطول بل سرعان ماتتلاشى ، وبيكون من هذا النوع اذ قد اتهمه مجلـس النواب فى ١٦٢١ م بقبول الرشوة ، وتم التحقيق معه فحكم عليه مجلـس اللوردات بالآتى :

١ — الحرمان من جميع وظائفه لعدم الأمانة كما يحرم عليه العمل بكافة الوظائف العامة في الدولة .

٢ — الحرمان من حق تمثيل الأمة الانجليزية في برلمانها طيلة عمره .

٣ — أن يدفع غرامة قدرها أربعون ألف جنيه .

٤ — السجن مدى الحياة .

وهذه الأحكام على واحد كبيكون كفيلة بالقضاء عليه ، لكنه في نفس الوقت أمل الأمة في جانبها العلمي فسعى أصدقاؤه له عند الملك جاك الذي أعفاه من الغرامة وأخرجه من السجن ليتمتع بحق الحياة الحرة .

بيد أن بيكون لم يتمكن بعد من استرداد الثقة التي فقدها الناس فيه ، وظل يعاني قسوة الوحدة ، ويلتظى نار الرشوة ، ويكابد تنكر الدهر ومرارة الحرمان ، وظل على ذلك الحال حتى وافاه أجله حيث مات فقيرا وهو ابن النبلاء ، ومات غريبا وهو من أبناء البلد الأصلاء .

ب — تنكره لاسكس :

سلف الحديث أن أرل أسكس أهدى بيكون ضيعة واسعة وأنها درت عليه ثروة طائلة ، وكانت هذه الهبة العظيمة من ذلك المحسن الكريم جديرة بأن تؤثر بيكون طيلة الحياة ، غير أن هذا لم يحدث من بيكون وانما على العكس ، فقد اتهم أسكس وحكم عليه بيكون بالاعدام .

وملخص المسألة : أن أرل وهو من النبلاء رأى أن المصابات الملكة غير قائمة على الوجه الذى ينبغى نفكر أرل فى نفسه الثورة عليها وأخفى هذا السر عن كل الناس الا صديقه بيكون فقد صارحه بما انتواه وكاشفه به ، وكان أرل ينشد لدى بيكون المشورة ويسأله الرأى ، غير أن بيكون تنكر لكل هذا وأسرع الى الملكة وأفشى سر أسكس متنكرا لماله من كرم المودة وحسن الصنيع ، فراح رجال الملكة يتابعون عناصر الثورة وما ان قامت فعلا حتى تم القبض على أسكس وتولى بيكون دور المدعى العام فلم يتردد بيكون ، كما لم يجد فى صدره حرجا فى محاكمة أسكس بل ولم يتردد فى اصدار حكم الاعدام عليه .

اذن بيكون لم تكن عبقريته على مستوى أخلاقه ، ولم تكن أخلاقه على مستوى عبقريته بل كانت عبقريته فى دنيا العلم ، وكانت أخلاقه فى أحضان الرذيلة ، حتى قال أحد معارفه المقربين منه " ان بيكون هو أعظم وأحكم وأخس مخلوق بين بنى البشر " .

وقال هو عن نفسه وقد كتب وصيته : انى أضع روحى بين يدى الله ، وليدفن جسدى فى طى الخفاء والنسيان ، أما اسمى فانى باعث به الى العصور المقبلة والى سائر الأمم ، وصدقت توقعاته فماتزال أفكاره مطروحة ومايزال اسمه يتردد صداه بين المقبلين والمدبرين .

سادسا : وفاتـــــه :

حكم القضاء عم المخلوقات ويكون من هذه المخلوقات فلا غــرو أن ينفذ فيه حكم الله ففي مارس ١٦٢٦ م كان الرجل مسافرا من لندن الــى احدى ضواحيها القريبة آملا الراحة ناشدا الهدوء ، فانطلقت في ذهنه فكرة حفظ اللحوم من العفن ، حتى لاتصيبها البكتريا ، وكان رأيــه أن يتم ذلك عن طريق وضعها تحت ألواح من الثلج .

ولما كان يؤمن بالتجربة فأوقف عربته ثم نزل منها وابتاع دجاجــــة لتكون محلا للتجربة ، وبينما هو في لذة أفكاره يحاول تطبيق التجربـــة اذ بالمرض يهجم عليه ويثقل حتى يغلبه فحمل الى بيت مجاور لمكـــان التجربة ، وفي التاسع من أبريل لفظ أنفاسه مرغما ، وسكنت روحه بعــد ترحالها المستمر بين مواقع الشهرة والجاه تارة وبين مواضع التهجـــم والاهمال والنكران مرة أخرى ، ومابين الأمرين مساجلات تمت وخصومـات اشتدت ومعارك عنيفة تقع بين البحث الحر والتفكير المنظم ، وهكـــذا انتهت حياته ولم يرثه أحد ، وبقيت ذكراه تتردد على ألسنة الباحثيـــن في الفلسفة الحديثة . فما هي مؤلفاته ؟ .

٢ — مؤلفاتـــــــه :

الكثير من الباحثين ربما يكتفون بالمحاضرات بدل الكتب والمذكرات وبعض آخر ينفقون أوقاتهم في القيل والقال غير عابئين بتحسين الفـــن

والمقال ، وآخرون يقيدون العلم قيد الأوابد ، وبيكون كانت شواغلـــه اليومية كثيرة فكان يختلس بعض أوقات من ضحوة شمس ، أوظلمة ليل يخلو فيها مع نفسه الى قلمه فيدون ماعن له هنه المتقد من خواطر وأفكـــار ينمقها فيما بعد . من ثم فقد وجد له بعد موته العديد من المؤلفات أبرزها :

(١) المقالات

(٢) أحكام القانون فى تنظيم القوانين الانجليزية .

(٣) الاحياء العظيـــم .

(٤) الأرجانون الجديد .

(٥) أطلنطس الجديدة .

تلكم هى أهم وأشهر مؤلفاته التى تركها ، وقد ذكرتها دون تعليق عليها تاركا أمر التعليق عند تناولنا لفلسفته فما هى فلسفة بيكون ؟

((فلسفة فرنسيس بيكون التجريبية))

يمكن تلخيص فلسفة بيكون في أربع نقاط ، ثم تجميع هذه النقاط في جانبين ، فما هي النقاط الأربع حتى نتعرف على الجانبين ؟

النقاط الأربع هي :

١ — تخليص العقل الانساني مما شابه من أفكار وهمية وموروثات غير واقعية وأوهام هي كل ذكريات القرون الوسطى .

٢ — اعتبار التجربة ضابطا على العقل يمنعه من الطيران حتى تكون التجارب عبارة عن نتائج تنتهي الى القريب من اليقين والكثير من الصحة .

٣ — تطويع الفلسفة لقضايا العصر بحيث تستهدف اقامة حياة فاضلة أساسها العلم التجريبي .

٤ — تحقيق الأمن والأمان مع السعادة والرفاهية وذلك لايكون الا عن طريق العلم التجريبي ، ويجمع هذه النقاط الأربع جانبان هما :

الأول : الجانب السلبي ، ويتمثل في فكرة الأوهام الأربعة .

الثاني : الجانب الايجابي ، ويتمثل في التجربة الواقعية .

وربما كانت عبارته "لايجوز أن نسمح للعقل بأن يثب أو يطير من الحقائق الجزئية الى القضايا العامة الشاملة ، لاينبغي أن نمد العقل

بالأجنحة بل يجب أن تثقله بالأغلال حتى تحول بينه وبين القفز والطيران أقرب الى تلخيص فلسفته التجريبية التى آمن بها ودافع عنها ولقى حتفه بعيدا عن داره بسببها •

وسوف نحاول القاء الضوء على هذه الفلسفة البيكونية بادئين بالجانب السلبى منها على أن نعقبه بالحديث عن الجانب الايجابى •

أولا : الجانب السلبى :

قر فى ذهن بيكون أن هناك جمهرة من الآراء والمعتقدات غير الصحيحة ، وأن الناس تلقونها من غير نظر الى صوابها من الخطأ ، وهذه الخرافات والأباطيل من كثرة ماردد ها الناس صارت لهم دينا وملة حتى بعثت هذه الأوهام بالعقلية الانسانية وأطاحتها من مجدها التليد الى حيث الخرافات والأوهام ، ولابد على الفيلسوف أن يشخص هذه الأوهام حتى يمكنه اجتثاثها من جذورها ، وهذه الأوهام التى غلت العقل الانسانى لاتخرج فى تصنيفها عن أنواع أربعة ، وسماها لذلك الأوهام الأربعة وهى :

النوع الأول : أوهام الجنس البشرى :

ويقصد بها الأخطاء التى وقعت فيها الانسانية بحكم طبيعتهم البشرية ، والتى لافرق فيها بين طائفة الجنس الانسانى كله اذ هى قاسم

مشترك بين الجاهل والمتعلم ، والنابه والخامل ، لقد رسخت هـذه الأوهام فى أذهان الناس رسوخا لاتردد حوله ، رغم الفوارق الهائـلة بينهم • ومن أمثلة ذلك فكرة ضرر الأرواح الشريرة التى يعتقد النـاس فيها ويحاولون استرضاءها ، واعتقاد الناس فى نفع النذور والثقة فى أن لها فائدة • والأساطير التى علقت بالأذهان أمبيها ومثقفيها فى ربط الجـن للانسان ، وتزوج الجان من بنى الانسان الى غير ذلك من الأوهام التـى يقع فيها الناس وتشيع فى بنى جنسه •

النوع الثانى : أوهـام الكهـف :

يميل بيكون الى أن لكل انسان كهفا خاصا به ، يعمل من خلاله على كسر أضواء الطبيعة والتغيير من لونها ، فالانسان فرد تحيط به الظـروف المعيشة وملابسات الحياة ومقومات شخصيته الخاصة به كالمستوى الثقافـى والمهنة التى يؤديها كما لاينسى دور البيئة الاجتماعية ، كل هذه العوامل المحيطة بالانسان تجبر الانسان على التقهقر فى داخله •

بل وتفرض عليه نوعا من العزلة حتى كأنه فى واد سحيق ، أو كهـف ناء بعيد ، فيعيش كهفه الخاص يُسِرُّ إليه بالأمة ويبوح اليه بأحلامه ، حتى اذا خلا لوجه الحقيقة السافر لم ير الا سرابا عالقا فى يديه ، لذا طالـب بيكون أن يتخلى الناس عن هذه الأوهام التى منها أوهام الكهف •

النوع الثالث : أوهام السوق :

يرى بيكون أن الناس يعتقدون أن عقولهم تتحكم في الألفاظ التي يستعملونها ناسين أن الألفاظ — الى جانب ذلك — تعود فتتحكم بدورها في عقولهم ، وأن ذلك هو نفسه الذي أصاب الفلسفة والعلوم بالسفسطة والجمود ، ولنضرب لذلك مثالا :

ألف الناس الالتقاء في المقاهي والأندية العامة ، وغيرها من الأسواق والمحلات التجارية ومواطن تجمع الناس واجتماعاتهم ، فيلجأ الناس للحديث في مختلف الشئون بلغة ليس فيها شيء من المنطق بل فيها من عدم الانضباط مافيها ، وفي هذه الحال تفقد اللغة الأصيلة دورها في دلالتها على المعاني ، كما تفشل في التعبير الصادق عما هو كامن في الذهن الانساني .

* خذ مثالا آخر :

خطيب مفوه قوي الحنجرة ، لسن القول ، قام يخطب في الجماهير المتحمسة فاذا به ينتزع اعجاب وتصفيق الجميع ، فاذا ما خلوت الى نفسك وسألتها ما الذي قاله الخطيب لاتجد أنه قال شيئا يستحق هذا الانبهار أو يحوز شيئا من ذلك التصفيق ، ولكنها مسألة العقل الجمعي الذي نشأت عنه أوهام لايقر لها قرار .

مثال ثالث :

وجدت غلامين وقد اتفقا فيما بينهما على ادعاء أن أحدهما مسروق والثانى سارق على سبيل التمثيل ، وأنت لاتعلم به ، ثم فوجئت بصارخ الحقوا حرامى ، وأمامك شاب يجرى والثانى خلفه يصرخ ويحاول اللحاق به أراك ستخلع نعليك وتجرى خلف من ينادى عليه بأنه حرامى ، ولو تمهلت قليلا لأدركت أن اندفاع اللص لايكون محسوبا ، أما اندفاع التمثيل فانه يكون حذرا ، كما أن اللص لابد أن يحمل شيئا ما فى يده طالما كانت السرقة على أرض الواقع ، أما فى التمثيل فلاتجد شيئا من ذلك . ثم ان السارق نظراته مركزة بطريقة واحدة لايراوغ حتى لايقع ، أما الممثل فانه يتلكأ ويناور حتى يتم القبض عليه .

وبيكون يحاول تخليص الناس من أوهام السوق لما لها من ضرر كبير على حياتهم العامة والخاصة ، ولذلك رأينا بيكون يرفض المنطق الصورى لهذا السبب ، حتى قيل : لقد رفض بيكون المنطق الأوسطى وقرر أنه " غير مفيد بوصفه أداة للكشف فهو يجبرنا على التسليم بنتيجته لكنه لايكشف عن شىء جديد ، ويجر التجربة من ورائه كأنها الاسير "

<u>النوع الرابع</u> : أوهام المسرح :

يرى بيكون أن الناس فى كل زمان ومكان يعتقدون فى السوبرمان ، فهم يعشقون المشاهير حتى انهم لعشقهم أياهم يتلقون آراءهم بالتسليم

والقبول من غير أن يفكروا ولو مرة فيما اذا كانت هذه الأقوال صحيحة أم خاطئة ، انهم لايحاولون انزال هذه الأفكار الى دنيا الشك مرة ، أو الى عالم التطبيق ، ومن ثم فقد حدد بيكون أوهام المسرح بأنها التى يزل فيها الانسان نتيجة أعتقاده فى صدق فلسفات قديمة أو مؤلفين قدماء .

واعتبرها بيكون أوهام مسرح لأنه يرى الحياة مسرحا مفتوحا يلعب فيه القدماء الأدوار البطولية ، أما الآخرون فان دورهم هامشيا على أحسن تقدير ، وأن الناس يرددون أقوال المشاهير ولو كانت تعاندها التجربة ويخالفها الواقع وهى لذلك أوهام مسرح .

وربما كانت تجربة جاليليو أقرب الى هذا التصور وبخاصة تلك الظروف التى أحاطت بها حيث قرر جاليليو وحدة الجاذبية ودلل عليها بأننا لو ألقينا من مكان عال بحجرين زنة أحدهما رطلتان وزنة الثانى: عشرة أرطال لوصلا الى الأرض فى لحظة واحدة ، ودلل على تلك التجربة باعادتها مرات وأمام جمع من المشاهدين وفى وضح النهار .

غير أن المشاهدين كذبوا أعينهم لما استقر عندهم من قول لأرسطو ان الأثقل ينزل قبل الأخف لأن العبرة عنده بالثقل كما أنه — أرسطو — لم يكن قد عرف الجاذبية ، ومع هذا أحرق جاليليو وسبح الناس بحمد أرسطو ، مع الفارق الكبير بين الحق والضلال ، والصدق والمراوغة ، ولو

أنزل الناس أرسطو للبحث مرة لما كانت النتيجة المذهلة التى تنكـــروا فيها للحق وطالبوا بذبح الحقيقة .

لكن هل نجح بيكون فى تخليص الناس من الأوهام ، الحق أنهـــا كانت فكرة قدر لها بعض النجاح المؤقت ثم ازدادت نجاحاتها لكنها لـم تجتث هذه الأوهام بل بقيت عالقة بالأذهان .

الثاني : الجانب الايجابى :

أجل حاول بيكون تخليص العقل من دائرة الأوهام التى عاش فيهـا كما عمل على تنقية هذا العقل من الخرافات والأباطيل التى كانت مفروضة عليه من قبل السلطة الحاكمة مرة ومن قبل رجال الدين الكهنوتى مرة أخرى وحتى لايفلت العقل من كل القيود فاذا به يقص أجنحة العقل التى طالمـا حلق بها فى دنيا الخيال المسرف لينزله الى أرض الحقيقة والواقع ، ولـم ينس أن يكبله بالقيود والأغلال حتى يتأكد بنفسه من صدق التجربة ودقـة النتائج بحيث لايلجأ مرة أخرى للتحليق فى دنيا الخيال .

ويمكن القول : بأن بيكون عرف أمراض عقل بلاده وأكد أن هـــذه الأمراض يمكن تشخيصها فى الأوهام الأربعة ، أو هى نفسها الأوهـــام الأربعة ، والطبيب الحاذق لايكتفى بتحديد المرض انما يلجأ الى وصـف الدواء وأى دواء ، انه الدواء الذى يأتى على العلة فيزيلها ، وقد كـان هذا العلاج متمثلا فى الجانب الايجابى من فلسفته ، وهو الطريقــــة

التجريبية • فما هى ؟

الطريقـــة التجريبيـــة :

هى عبارة عن منهج علمى يقوم على فحص الظاهرة المراد بحثها وجمع المعلومات حولها وبيان الدافع القوى الذى يعول عليه فيها ، ثم اعادة التجربة للتأكد من سلامة النتائج •

وهذه الطريقة التجريبية عند بيكون عبارة عن مراحل أو خطوات يكمل بعضها بعضا فما هى تلك الخطوات ؟

الخطوة الأولى : جمع الحقائق والمعلومات عن الظاهرة المراد بحثها :

فمثلا ظاهرة الخسوف والكسوف ، أو الزلازل والبراكين ، أو ظاهـــرة التعفن ، أو الجاذبية أو غيرها من الظواهر ، فان أول خطوة يبدأ بهـــا هى جمع الحقائق وليس مجرد الظواهر ، وكذلك جمع المعلومات الأولية حول الظاهرة التى تكون تاريخا واقعيا للظاهرة نفسها ، وتلك خطوة مهمـــة وضرورية •

الخطوة الثانية : تحرير ملف كامل عن الظاهرة المراد بحثها :

لأن المعلومات التى جمعت فى الخطوة الأولى ان لم تجمع فى ملـــف خاص بها ضاعت هباء وتبعثرت الجهود كلية ، بحيث لايوضع فى هـــذا الملف الا المعلومات الصحيحة حول الظاهرة نفسها ، حتى يتحقق الغرض العلمى •

الخطوة الثالثة : تصنيف المعلومات :

هذه الخطوة تقوم على وضع المعلومات والحقائق التى سبق جمعهـــا عن الظاهرة فى قوائم ثلاث :

أ — قائمة الاثبات : وهى التى توضع فيها مجموعة الأسباب التى أدت الى حدوث الظاهرة ، ويمكن تسميتها قائمة الحضور ، لأن الأشـــــياء الموضوعة فيها هى المصاحبة للظاهرة .

ب — قائمة النفى : وهى التى يوضع بها كافة الأسباب التى تنافى الظاهرة ولاتؤدى الى حدوثها ويمكن تسميتها قائمة الانصراف ، لأن المعلومات الموضوعة فيها هى المناقضة .

جـ — قائمة الفحص والمقارنة : وهى التى نسجل فيها الأشياء والتى تتفاوت فيها الظاهرة لاوجودا وعدما ، بل قوة وضعفا .

مثالا : قانون الحرارة :

الخطوة الأولى : نجمع كل المعلومات عن الحرارة من حيث مصادرهـــــا كالطاقة والحركة ، ثم تأتى الخطوة الثانية ، فنحرر ملفا كاملا عن الحـــرارة وأنواعها ومصادرها ، وكيفية اختزانها وما اذا كانت تتسرب أم لا . ثم تأتى الخطوة الثالثة لنعرف الأشياء التى تصاحب الحرارة كالضوء والحركة فتلك قائمة اثبات ، ثم نلاحظ البرودة وغيوم الشمس والسكون فنجد أنه لاحـــرارة

فيها ثم نقارن أي المصادر هي التي تكسب الحرارة قوة وأيها التـــي يفقدها قوة ويكسبها ضعفا ، (سوف يتضح أن الطاقة الشمسية مثـلا من أعلى المصادر للحرارة ، بينما الطاقة الحركية أقل ، وبالتالـي عرف سبب القوة كما عرفت مصادر الضعف ، وقس على ذلك سائر الأمور التـي تخضع لهذا المقياس)، حيث يتم الاستنتاج من الضعف والقوة •

الخطوة الرابعة : التنحيـة والعزل :

وفيها يتم استبعاد وعزل كافة المعلومات التي لاتكون سببا فـــي حدوث الظاهرة المبحوثة ، واستبقاء الأسباب المشتركة التي تؤدي الـى حدوث الظاهرة ، فمثلا حرارة الجسم سببها : نفترض ارتفاع حرارة الجو كما نفترض وجود بكتيريا بجسم صاحبها ، كما نفرض ثالثا تعرضه لجـــوع شديد ، وكل هذه أسباب لحدوث الظاهرة ، ومن ثم • فان على الباحث أن يختار العلل المؤدية للظاهرة ، وينحي الأشياء الأخرى التي لاتؤدي اليها •

الخطوة الخامسة : استبقاء السبب الراجح :

فاذا كانت أسباب الظاهرة متعددة ، فان على الباحث أعمـــال حدسه العلمي لاختيار السبب القوي من بينها ، ثم يعيد النظر مرارا فـي الظاهرة حتى ينتهي الى سبب واحد هو الأصل في حدوث الظاهرة وهذا السبب هو ما يعرف باسم : السبب الحقيقي في احداث الظاهرة ، وهـو

لايكتفى بمجرد استبقاء السبب الراجح وانما يكرر التجربة ، ويعيد المحاولة حتى ينتهى بالتأكيد الى أن سببها هو الذى تعرف عليه وحده من بين الفروض الأخرى التى كانت أسبابا مقترحة .

بهذه الخطوات الخمس انتهى بيكون — حسب وجهة نظره — من وضع قواعد وأسس الجانب الايجابى فى فلسفته التجريبية ، والتى دفع اليها دفعا ، وحاول جاهدا أن يضخ الدماء حتى تجرى فى عروقها ولو كلفه ذلك الأمر ما بقى له من سنوات يكافح فيها النكران ، لكن ما الغاية التى هدف اليها من وراء هذه الفلسفة التجريبية ، والجواب فيما يلى من سطور .

ما الغاية عند بيكون من اقامة فلسفته ؟

المطالع للفكر البيكونى يرى الرجل قد تركزت عنده غاية ذات مراحل :

(١) المرحلة الأولى : تخليص العقول من الخرافات والأباطيل والأوهام .

(٢) المرحلة الثانية : تهيئة العقول لفكرة التجريب والتأكيد على أنها ضمان أكيد لصدق النتائج .

(٣) المرحلة الثالثة : اقامة مجتمع مثالى ، أو يوتوبيا ، أو المدينة الفاضلة ، التى تنتج ما تستهلك ، وتستهلك ما تنتج ليست فى حاجة لمعونة من أحد ، حكومتها مثقفة جدا حيث أعضاؤها من العلماء والأطباء والمهندسين ، ومن لهم ولع بالمعارف العقلية

ولاتهدف هذه الحكومة الا الى توفير الأمن لأهل المدينة الفاضلة وتحقيق أقصى درجات السعادة للمدينة على أساس من العلم الصحيح والمعرفة الحقة ، كما تعمل الحكومة على غلق أبوابها أمام الغرباء ، وان كان من حقها ارسال علمائها الى البلاد الأخرى لينقلوا اليهم خبراتهم وثقافتهم ، ثم يعودون الى المدينة الفاضلة وقد زودوا بخبرات جديدة ، وأفكار جديرة بالقبول والاحترام .

مدينته الفاضلة :

كان بودى لو اقتصرت لك المواقف عند فلسفته التى سلف أن حدثتك عنها ، لكن لما كانت الغاية عنده هى اقامة تلك المدينة الفاضلة ، وقد وضع خيوطها فى كتابه " أطلنطس الجديدة " فلا مانع من أن ألخص تلك أفكاره عن تلك المدينة التى كتبها فى قالب روائى أخاذ ثم أعود بمناقشة فلسفته بوجه عام بعد استعراض أطلنطس الجديدة ، التى هى الصورة المكتوبة ، والخريطة المسجلة عن وجهة نظره فى بناء المدينة الفاضلة .

تلخيص أطلنطس الجديدة

(١)

تعتبر أطلنطس الجديدة أحد المصنفات الفنية الرائعة لبيكون حيث يرسم فيها ملامح المجتمع السعيد الذى تخيله ، بيد أن الكتاب لم يأخذ شكل القالب الفلسفى المتخصص الذى يُعْشِى الأذهان بين صفحاته ويرهق الفكر بمفرداته وكلماته ، ولكنه لجأ الى تصوير فكرته فى قصة أدبية تتسم بكثير من الرشاقة وحسن العرض ، وسلامة الأسلوب ، وروعة الاخراج .

تخيل بيكون بأسلوبه الفنى الأخاذ أنه كان مع طائفة من صحبه فى رحلة ترفيهية يستقلون باخرة تمخر عباب الماء على مهل وروية ، وهم فى هذه الرحلة يتبادلون الأحاديث العذبة ، ويتذكرون صافى الأيام الخوالى فيملأون الجو من حولهم دعابة وفكاهة ومرحا .

كل شىء مع الصحبة جميل ، الحديث الصادق ، والماضى المضىء وتطلعات الغد المشرق ، بجانب منظر البحر البراق ، صفاء الجو ، وزرقة الماء ، وأواصر المحبة وعراها توثق ، ثم تؤلف هذه وتلك بين القلوب منذ زمن طويل ، وذكريات تضطرب فى النفوس الهادئة الوادعة ، والآمال تداعب الجفون ، والرؤوس عالية مرفوعة عزيزة .

(٢)

وفى غمرة من هذا الصفاء الروحى الذى غلف القلوب بشغيف المحبة غضب القدر بالآمنين ، فعصف الهواء بالسفينة ، وبدأت هباته الهوجاء تنوشها من كل جانب ، حتى بات من المؤكد أن ساعات الفرح لا تدوم ، وأنها مهما كانت متسعة الفرح والسرور الا أنها قصيرة .

ارتفعت الأيدى بالدعاء الى السماء ، وارتجفت القلوب الى الله بالرجاء ، وانداحت الرجاءات الحبيسة تسأل الله السلامة والأمان ، ولكن لم يتحقق ، فالهواء مايزال عنيفا قاصفا ، والبحر ماتزال مياهه مضطربة تستعصى على الملاحة ، وأمواج البحر تشتد ضراوة وعنفا ، وتضرب السفينة بكل قوة ، حتى بات من المؤكد لديهم أن نهايتهم محتومة ، ولم يبق على تلك النهاية الا وقت قصير لايعد ولحظات ربما تتسع لدعوة خالصة فتصادف قبولا ، حتى ينجو القوم ، وقد تحجبها ذنوب أصحابها عن القبول فتقع المأساة .

(٣)

وبينما القلوب راجفة ، والأبصار زائغة ، والألسنة معقودة مضطربة بين الدعاء والرجاء اذ لاح للعيون القلقة بصيص من النور أحيا فى نفوسهم بعض الأمل ، فعلى بعد أمتار قليلة ، وفى أقاصى المحيط الهادى ، تلوح مشارف جزيرة يخيم عليها السكون والصفاء ، وتكسوها

لوحـة خضـراء ٠

رقت السماء لدموع التائبين ، وهم على حافة الهاوية ، فاذا بالموجات تدفع السفينة الى شاطىء تلك الجزيرة فترسو عندها بعد فزع وعدم استقرار ينزل المسافرون اليها ويسيرون قليلا على أرض تلك الجزيرة التى لايعرفـــون عنها شيئا ، أنها مجرد أرض للنجاة حتى يهدأ البحر الغاضب ويتوقـــف الرعد البارق ٠

وماهى الا دقائق معدودة حتى خرج أهل الجزيرة الهادئة الى أهـل السفينة المفزعة ، فأحسوا أنهم غرباء قسا عليهم البحر فاستقبلوا هـــولاء الزوار الذين لفظهم البحر على كره منهم — بكل مظاهر الحفاوة وأفانين الكرم حتى أزالوا عنهم وحشة الغربة ، ودفعوا عنهم غائلة البحر ، وخففوا مـــن وطأة الألم القاسية عليهم ٠

لكن بعد ذلك الكرم والاستقبال الكريم ، بدأ المسافرون الغربـــاء يسألون :

أين نحن الآن ؟

وهل يمكن لنا العودة الى ديارنا ؟

وتكرر السؤال الأول كثيرا حتى علموا أنهم فى جزيرة بالمحيط الهـادى وأن هذه الجزيرة هى أطلنطـس الجديدة ، ثم يقيمون أياما بين أهلهـا حتى يقفوا على كافة أحوالهم ، من نظم المعيشة والحياة وغير ذلك ، وكل قد

انشغل بما لفت انتباهه وجذب اليه فؤاده ٠

أما بيكون فقد كان حريصا على تسجيل ماتقع عليه عيناه ، وما تسمعه أذناه في هذه الجزيرة حتى يدونها ويعود اليها عند الحاجة ، فماذا سجل بيكون في مذكراته عن هذه الجزيرة وأهلها ؟

(٥)

رأى بيكون أن أهل هذه الجزيرة يحملون مشاعر الحب والاحترام والتقدير الذي وصل مرحلة التقديس لشخصية تاريخية كان لها فضل كبير على هذه الجزيرة وأهلها ، لكن من هي تلك الشخصية ؟ راح بيكون يسأل عنها فعرف أنه سليمان ، لكن ماذا فعل سليمان هذا حتى يستحق كل التكريم والاحترام ؟ فالجواب :

ان سليمان كان ملكا في هذه الجزيرة منذ قرابة ألف سنة ، وكان فيلسوفا بجانب كونه ملكا ، ومن ثم ٠ فقد جمع سليمان هذا بين أبهة الملك وجلالة الحكم ونبوغ العباقرة ، وقمة الفلسفة ٠ ولهذا اتجهت عنايته الى وضع النظم والقوانين التي تنظم العمل داخل الجزيرة ، وعلى هدى منها يقتدى كل أبناء هذه الجزيرة التي لم يقع فيها صدام أو خلاف أبدا ٠

وقد كان سليمان هذا دقيقا لأبعد الحدود ، ولذلك اتخذ عدة خطوات لتأكيد علاقته بأبناء الجزيرة واستمرار الحب فيما بينهم وبينه

هذه الخطوات .

(١) انشاء بيت سليمان :

هذا البيت عبارة عن برلمان حر يناقش اعضاؤه مصالح الجزيرة لكن بحرية مطلقة ، من غير ضغط عليهم أو اكراه لهم ، وهذا البرلمان تنتخب منه الحكومة التى تدير أمر الجزيرة ، ثم تستقر فى نفس البيت ، الذى يمثل فى آن واحد — السلطة التشريعية والتنفيذية — لأهل الجزيرة .

لكن حكومة هذه الجزيرة من طراز ممتاز ، أنها ليست حكومة عادية يقع فيها أهل الثقة بدل أهل الخبرة بل على العكس انها أشبه شىء بمؤتمر علمى خاص فأعضاؤها من الفلاسفة والأطباء والمهندسين ورجال الجغرافيا والفلكيين ، انها تضم العلماء فى كافة المعارف ، أنها حكومة علمية على أعلى مستوى علمى فى الجزيرة ، ولذلك فهى حرية بأن تستمر فى الحكم وتحقق الاصلاحات المنشودة منها . ولذلك فهى لاتعزل ، ولايقع بينها وبين الملك أدنى خلاف .

(٢) مكتبة سليمان :

هذه المكتبة توجد فى أحد أبهاء بيت سليمان ، تضم المكتبة شتى فروع العلم ، وكافة أنواع المعرفة ، أنها مكتبة مفتوحة فما من كتاب يصدر هنا أو هناك الا وتوجد له نسخ كثيرة بمكتبة سليمان التى يطالع كتبها أعضاء البرلمان — السلطة التشريعية والتنفيذية — فهم يفقهون مافيها

ويتزودون من معارفها ، ويضيفون اليها مايتفقون عليه من مبادئ وقوانين لصالح الجزيرة وأهلها وماتتفتق عنه قرائحهم وتجود به أفكارهم في كل عام يوضع في مجموعات تضاف الى رصيد المكتبة .

والحكومة العلمية هذه لاتكتفي بمجرد البحث النظرى ، لأنها مرحلة لم يعد لها وجود ، وانما تحرص على البحث الميدانى ، وكانت آخر محاولات الحكومة في هذا الشأن أنها تجرى طائفة من التجارب لكي يتمكن الانسان من الطيران بجناحين فوق هذه الجزيرة الوادعة .

(٣) وضع قوانين الجزيرة :

لم ينس سليمان وأعضاء الحكومة أن يضعوا قوانين عامة تحفظ الهيبة العامة لتلك الجزيرة ، وتصون حرية أفرادها من هذه القوانين .

أ — ألا تستقبل الجزيرة أحدا من الناس .

ولولا هذه الظروف الخاصة ، ظروف خطر الموت الذى أحدق بهؤلاء الضيوف — ركاب الباخرة الجانحة — ماسمحت لهم الجزيرة بالهبوط على أراضيها والدخول اليها ، ولكن مشاعر الكرم أبت عليهم أن يخالفوا قوانينهم ليخلعوا على أضيافهم مايليق بهم من الكرم والمودة ، وأهل هذه الجزيرة يؤمنون بأن ماقدموه للأضياف واجب لايتعارض مع قوانين الجزيرة ، لأنهم لم يستقبلوا غرباء ، ولكن وقع عندهم ضيوف في وقت الضعف أذلاء .

ب — الاكتفاء الذاتي :

يؤمن أهل الجزيرة بأن الاكتفاء الذاتي يعني أن تنتج ماتستهلك ، وتستهلك ما تنتج من غير زيادة أو نقصان ، انها لايؤمن أهلها بمسألة التصدير والاستيراد ، أنهم يرفعون شعار لااستيراد ولا تصدير ، لأنهم قد عرفوا أن مالك قوته مالك لحريته ، وأن المحتاج مستذل .

جـ — توريد الثقافة فقط واستيراد العلم :

لما كانت الجزيرة قائمة على العلم والانتاج فقد حرص أهلها أن يستنوا في قوانينهم امكانية ارسال بنيها الى دول العالم الخارجي حتى تصدر خبرتهم الى الخارج ، مع اباحة الاستيراد لما جد من أفكار علمية ، وما انتج من المصانع الفكرية من خبرات مؤكدة وثقافة مقبولة .

تلكم كانت حياة أهل أطلنطس الجديدة ، بكل مافيها من جوانب بالشكل الذي تصوره فرنسيس بيكون ، وهي في حد ذاتها تعطي فكرة سريعة عن شكل الحكم الذي كان يداعب أحضان هذا الفيلسوف التجريبي وهو يتصور مدينته الفاضلة ، ومجتمعه المثالي .

وبهذا نكون قد فرغنا من عرضنا لأهم الجوانب في فلسفة فرنسيس بيكون ، كما عرضنا ملخصا مركزا لخياله في قصته أطلنطس الجديدة ، لكن تبقى مسألة مناقشة فلسفة بيكون فهل تزمع الرحيل معنا لترى بنفسك كيف نقف منها أو معها ، أم ترانا قد أثقلنا كاهلك فتولى ظهرك الينا وتدبر عنا

ثم يأتى يوم تقول ليتنى أقبلت وما أدبرت أما أنا فعازم على الرحيل لمناقشة فلسفة بيكون واعتمادى على الله رب العالمين .

(مناقشة فلسفة فرنسيس بيكون)

لسنا نقصد من مناقشة فلسفة بيكون أن نكشف العورات ، أو أن نركز على الجوانب السلبية مهملين الجوانب الايجابية فذلك ليس من خصوصيات البحث العلمى الحر ، الذى يلتزم الموضوعية والجيدة ، ولكنا سنذكر مالها وما عليها ، أعنى الجوانب الايجابية فيها أولا ثم الجوانب السلبية ثانيا .
فما هى الجوانب الايجابية فى فلسفة بيكون ؟

(١) الجوانب الايجابية :

أولا : بيكون لم يقدم فلسفة بقدر ما قدم ثورة فكرية عارمة ، أطاحت بالمعتقدات الفاسدة والخرافات الباطلة وزلزلة أركان الكهنوت والسلطة معا هزا عنيفا مهد الطريق لمن بعده بالخروج عليهما فى جرأة وثبات .

ثانيا : ان فكرته عن الأوهام الأربعة تمثل فى حد ذاتها حدثا فلسفيا رائعا وطريفا هز حياة الناس الفكرية كما هز حياتهم الاجتماعية ، وغيّر كثيرا من مفاهيمهم عن الحياة والكون ، فتبدلت به أنظمة حياتهم وكان بحق رائدا ثوريا هز أرجاء مجتمعه بأفكاره الجريئة البناءة .

ثالثا : ان فلسفته كانت علامة مميزة على طريق بحث الحقائق مجردة

وموضوعية بل أنها تمثل مفترق طرق بين أفكار العامة التى سادت القرنين السادس والسابع الذين تعصبوا للكنيسة وأفكارها ، والخاصة التى كانت تعتبر تعاليم أرسطو هى الحياة الكاملة • فلما جاء بيكون صنع ثورة بفكرته عن الأوهام الأربعة قطعت الطريق على الأفكار القديمة تماما وتلك مهمة كبرى •

رابعا : كانت فلسفة بيكون علامة مضيئة فى تاريخ أوربا الحديث اذ أنها قامت بتصفية ما فى الأذهان من خلط بين الدين والعقل ، وكشفت أن الدين يتعلق بنظام معين يقوم فى المسيحية على العبادة فقط ، فالدين محله عنده الكنيسة فقط ، والعلم موطنه المعمل ولاعلاقة بين الأمرين الا أن الأول خدمة الله والثانى خدمة الشعب •

خامسا : أطلقت فلسفة بيكون فى الناس عقولهم ، وكشفت أن طاقات الاستدلال الفكرى فيهم يجب أن تكون فى حدود القدرات العقلية نفسها •

سادسا : نقلت الناس من الخيال المسرف الى الخيال العلمى فى توقعات المستقبل ، بل انه نادى بالتخلى عن المنطق الصورى الذى ينتهى بصاحبه الى مجرد صدق المقدمات للنتائج فى اللفظ كما نادى بالتجربة بديلا عن هذا الجدل التاريخى العقيم •

تلكم أهم الجوانب الايجابية فى فلسفة بيكون ، وقد ذكرتها بايجاز وتركيز ، فما هى الجوانب السلبية ؟

(٢) الجوانب السلبية :

أولا : أنها غير واقعية ، أما لماذا ؟ فلأن الجانب السلبي فيها - الأوهام الأربعة - غير متمكن منها كل الناس بل آحاد الناس لايملك التخلي عنها ، ولو طالبهم بعدم المزيد منها ، أو عدم الالتفات اليها لكان أولى أما أن يطالبهم بحذف هذه الثقافات من أذهانهم فلا شك أنه غير موضوعي بل مسرف في الخيال ·

ثانيا : أنها ركزت على الجانب المادى في الحياة ، وأهملت الجانب الروحي النفسي ، كما أهملت أمور الغيب لأنها حصرت نفسها في الناحية المادية ، ومثلها لايقال عليه فلسفة بقدر ما يمكن تسميته وجهة نظر في ناحية تجريبية ويفعل مثله علماء الطبيعة والكيمياء بل والجيولوجيا ، ولم يقل أن واحدا منهم فيلسوف ، وانما يقال عليه فلكي ، أو كيميائي ، أو فزيولوجي ... الى آخر هذه المباحث المتعلقة بالطبيعة وشئونها ·

ثالثا : انها لم تشر الى المصادر التي تأثرت بها ، رغم أن أوجه التشابه قائمة ، واليك بعضا منها :

ذهب المفسرون للقرآن الكريم مذاهب شتى حتى أنهم عرفوا الأوهام التي ذكرها بيكون وان لم يسموها أوهاما ، وقد قبسوها من القرآن الكريم وكشفوا عنها أثناء تناولهم للآيات القرآنية في التفسير ·

١ - تحطيم القرآن لأسطورة التبعية للعظماء ، وهو مايسميه بيكون أوهام

المسرح . قال تعالى منبها لهذه الأسطورة ومحذرا منها ، وداعيا الى نبذها " وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " (١)

٢ — نهى القرآن عن سوء الذوبان فى المجتمع من غير تدبر ، وهو مايسميه بيكون بأوهام الجنس ، قال تعالى : " وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون " (٢) .

٣ — نهى القرآن الكريم عن التقوقع بين غرائز النفس وعواطفها وهى مايسميه بيكون أوهام الكهف ، لأن هذه الأوهام تتمثل فى تقوقع النفس بين غرائزها وعواطفها وأحاسيسها التى تصنعها الظروف العامة والملابسات الشخصية لأن هذه الظروف تخرج الانسان عن جادة الحق ، وتبعده عن الطريق الصواب . قال تعالى : " أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (٣) .

٤ — طلب القرآن الكريم المسلمين التزام جادة الطريق وعدم الاستماع وهى أوهام السوق ، ذلك لأنها تنشأ من تأثر المرء بما يحدث فى الأماكن العامة

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٦٧
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ١١٦
(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤٣ ، ٤٤

على وجه العادة ، لأن هذه الأحاديث وتلك المناقشات تخرج الانسان عن الحد المقبول من استدلاله الفكرى ، من ثم ورد التحذير القرآنـــى الكريم من أوهام السوق وأمر بالتزام الحق. قال تعالى : " ثم جعلناك على شـــريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون" (١) .

اذن بيكون مسبوق بما انتهى اليه علماء التفسير من فهمهم للآيات القرآنية فيما يتعلق بالجانب السلبى ، أما ما يتعلق بالطريقة التجريبيـــة فقد سبقه اليها جمهرة من علماء الاسلام الذين كانوا ينادون" جـــــرب وشاهد وكرر التجربة تكن عالما".

والى هنا نوقف القارب الذى أقلنا الى محيط فلسفة بيكون فقد أغنتنى الموج المجدات ، وماصار بالقادر على استكمال الرحلة أكثر من هذا فى الفلسفة التجريبية ، لننتقل الى فلسفة أخرى ونموذج آخر .

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٨

((الخاطر الخامس))

نموذج من الفلسفة الآلية الحديثة

توماس هوبز

١٥٨٨/١٦٧٩ م

((توماس هوبـــز))

١٥٨٨ / ١٦٧٩ م

تمهيـــد :

(١)

فرغنا من الحديث عن الفلسفة التجريبية الانجليزية ممثلة فى فرنسيس بيكون التى أطلقنا عليها المذهب التجريبى الحديث ، وقد يطلق عليها اسم المذهب الواقعى الحديث ، لكن المضمون يوشك أن يكون واحـــدا وهو أن فلسفة بيكون لا تدور فى اطار صورى مجرد ، ولكنها تهبط الـــى أرض الواقع محل التجربة ، وأرض الواقع عنده هى المذهب التجريبى الواقعى .

(٢)

بيد أننا ههنا سوف ننتقل الى مذهب آخر ، ومدرسة أخرى واكبـــت عصر الآلة والصناعة ، فعكست روح العصر الذى عاشت فيه على مباحثهـــا الفلسفية ، ومصطلحاتها الفنية حتى برزت كلمات الآلية والتعاقد والعقـــد الاجتماعى والسبب فى ذلك راجع الى أن العصر الذى ظهرت فيه يعتبـــر بحق عصر الصناعة والتقدم ، والتجارة حيث تقدمت فيه الصناعة ، وازدهرت التجارة خصوصا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

كما أن ازدهار التجارة والصناعة كان له أثر قوى فعال على كل أنمـــاط الحياة انعكس كذلك على المذاهب الفلسفية ، والتى منها مذهب الآليـــة

الذى أقترن باسم الفيلسوف الشهير " توماس هوبز " وكانت له فيه رحلة طويلة ، دفعت به الى التقدم على غيره من المذاهب السائدة آنئذ .

أجل . ان انتشار الآلة وازدهار التجارة ، وزيادة أنشطة الصناعة ، كل ذلك كان على حساب الانسان لصالح الآلة ، لأنه فى ظل الآلة انتهت كرامة الانسان العامل ، أما كيف ؟ فلأن صاحب العمل الذى كان يحتاج عمالا فيحابيهم ويعطف عليهم ، ويحاول حل مشكلاتهم مهما كلفه ذلك من وقت ومال ، فاذا به بعد انتشار الآلة يعبس فى وجوههم لأن الآلة أغنته عن عدد من العمال مع رخص ثمنها .

من ثم فقد حاول صاحب العمل الاكتفاء بأقل عدد من العمال ، أما الباقى فصار عمالة زائدة لم يعد فى حاجة اليها ، لأنها تمثل عبئا عليه وبالتالى بدأ أصحاب الأعمال فى فصل بعض العمال لعدم الحاجة اليهم ولم يصرفوا لهم مكافأة تعينهم على نوائب الحياة ، كما لم يصرفوا لهم معاشا أو ادخارا ، فلم يعد العامل آمنا على غده ولا مستقبله ، ومن ثم بدأ يفكر فى تدمير الآلة التى أزاحته من عرشه .

بل ان العمال الباقين بدأت أجورهم فى التخفيض لأن العرض زائد والطلب قليل ، وكلما زاد العرض وقل الطلب حصل التخفيض فى الأجر ، ومن ثم ظهرت العديد من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بل واهتزت القيم والأخلاق ، لأن من كان يضمن راتبه فى نهاية الشهر وتعتمد عليه

أسرته ، فجأة وجد نفسه أعزلا فى مواجهة الظروف القاسية ، وأعباء المعيشة المتزايدة .

(٣)

أجل تحكمت الآلة فى مصير الانسان تحكما لا حدود له ، وباتت تهدد كيانه أيما تهديد ، ولعل فكرة التعاقد الاجتماعى ، والعقد الاجتماعى تعكسان ظلال الأثر القوى لروح العصر والحركة التجارية والصناعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(٤)

بيد أن هذا الوضع لم يطل اذ سرعان ما أقبل القرن التاسع عشر وحدث العكس ، اذ ظهرت الحركات الفكرية التى نادت بكرامة الانسان العامل ، وطالبت له بحقوق أصيلة منها حقه فى الحياة آمنا كريما ونادت بضمان مستقبله وأسرته من بعده ، وعلى هذا تكون الآلية قد انتهت ، وظهرت فلسفات أكثر مرونة راحت تلمس موضوعاتها لمسا خفيفا مرة وعنيفا أخرى تطالب بالحفاظ على كرامة الانسان وحقه فى مجتمع يعيش فيه باعتباره مجتمعا فظهرت الشيوعية والوجودية والاشتراكية وتأثرت المذاهب الفلسفية بروح العصر تأثرا عجيبا وقويا وعميقا حتى يمكن القول بأنها كانت صورة لروح العصر ، ولانستغرب ذلك حينما يطلق على مذهب

توماس هوبز اسم المذهب الآلي الحديث .

فمن هو توماس هوبز ، وماهي فلسفته أو المذهب الذى نادى به وانحنى اليه ؟ .

توماس هوبز

هو أحد الماديين المحدثين بل ومن أكبر أنصار السلطة والحكم المطلق فى انجلترا قبل تقويضه .

أولا : ظروف حياته :

(١)

١ — مولده ونشأته :

ولد هوبز حوالى ١٥٨٨م ، وذلك فى مقاطعة مالسبوى بانجلترا ، وهى مقاطعة هادئة لها تأثير عميق على من يولدون بها .

أما والده فقد كان قسا محافظا متمسكا بتعاليم الدين المسيحى لأبعد الحدود ، بل وكان دائم الاحتفاظ بمظهره العام الذى يحافظ عليه القسس ، وكانت نفس الأب تتطلع الى تنشئة الفتى على تعاليم الدين المسيحى والخلق ، وكان التعليم محببا الى نفس الأب فما ان شب هوبز عن الطوق حتى الحقه أبوه بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية ، وأبوه فى كل هذه المراحل يحاول تطبيع الفتى وتطويعه على تعاليم الكنيسة وتقاليد الكهنوت.

ولما أتم الفتى عامه الخامس عشر ألحقه أبوه بجامعة اكسفورد ، وهى جامعة مهتمة بالدراسات اللاهوتية نمكث بها خمس سنوات يتلقى المنطق والطبيعيات دون أن تنال منه كبير أهتمام ، لكنه تخرج منها .

(٢)

ومن حسن حظه أنه بعد تخرجه من الجامعة تيح له أن يكون معلما لأحد صغار الأمراء وليم ديفونيس ، الذى استمر يعلمه عشر سنوات حيث كان قد ضمن كل شىء من مقومات الحياة كما أتيحت له فرصة الترحال الى كل من ايطاليا وفرنسا وغيرها من دول أوربا ، كما تنقل بين مقاطعات انجلترا المختلفة كل هذا وهو بصحبة الأمير الصغير الذى عمل هوبز مدرسا له .

ويبدو أن حسن طالعه لازمه فترات عمره ، فما ان شب الأمير الأول ، وبدا فى غير حاجة لهوبز معلما ، اذا به يشتغل مؤدبا لأمير آخر هو الأمير " شارل الثانى " ملك انجلترا ١٦٦٠م الذى ماكان يستغنى عن هوبز وتعلق به وأظهر حبا شديدا له واحتراما لعلمه ، وتقديرا لشخصه .

وفى ظل هذا الأمان والاستقرار بجانب النعومة والثراء مع امتداد العمر الطويل لهوبز كل هذه العوامل ساعدت الرجل على أن يقرأ كثيرا ويتصل بشخصيات مختلفة كان لها تأثير قوى على حياته الشخصية .

فيذكر أنه تتلمذ على فرنسيس بيكون بفكره وقرأ أعمال جاليليو وكوبر نيقوس وغيرهم ، بل انه حين سافر الى فرنسا بصحبة الأمير الأول اتصل باثنين من كبار الفلاسفة حينئذ هما جاسندى ، وديكارت ، وكان ديكارت فى هذه الآونة على وشك الانتهاء من كتابه " تأملات فى الفلسفة ، وكان ديكارت يحب أن يعرض مسودات كتبه على من يأنس فيهم صواب الرأى ودقة الحكم .

فعرض ديكارت على هوبز التأملات وكان مايزال مخطوطا ، فوضع هوبز اعتراضاته على الكتاب ، وحين طبع الكتاب أورد ديكارت اعتراضات هوبز عليه ثم رد عليها ردودا مختصرة خشية أن يطول الكتاب ، أو يعطى الاعتراضات أكثر مما تستحق ، لكنها أكدت استعداد هوبز العقلى لتناول قضايا الميتافيزيقا .

(٤)

أجل . تنقل هوبز كثيرا ، وقرأ أكثر ، غير أنه فى العشرين سنة الأخيرة من حياته فضل التفرغ للكتابة والتأليف ، واختار لنفسه واحة فينانة تمكن له حياة هادئة حتى يتمكن من أن ينتج ويخرج فكره للناس ومن ثم استطاع كتابة مجموعة من الرسائل والكتب حملت فيها فلسفته حملا ، وظل يمارس القراءة والكتابة الى أن مات فى ١٦٧٩م عن عمر جاوز الحادية والتسعين سنة هى جملة حياته بين الناس بجسده .

٢ - وفاتـــــه :

أقام هوبز الخمس سنوات الأخيرة من حياته في مقاطعة " ديفن شير "، وكان يتمتع بصحة عالية بجانب الهدوء وأخيرا أسلم روحه لمن خلقها غيــر آسف على حياته الطويلة ، وما أضاع فيها وكان ذلك عام ١٦٧٩ بعــد أن ترك عددا من المؤلفات الفكرية التي تدل على نوع من العبقرية ، وكثير مــن المسائل الشخصية ، كما حملت في ثناياها أفكاره الفلسفية والاجتماعيـــة ، والطبيعية . فما هي مؤلفاته ؟

٣ - مؤلفاتــه :

المفروض أن واحدا كهوبز عاش بين الهدوء والاستقرار ، وفي أحضـــان المكتبات العلمية أن يؤلف كثيرا ، ولكن فيما يبدو أنه كان يتمتع بطيب الحياة على النحو الذي يريده ، ولم تكن الكتابة عنده ميسورة له أول الأمر ، لكــن الذي يعنينا هو المؤلفات التي تركها فعلا وتحمل فكره وأهم هذه المؤلفات هي :

أ - القانون الطبيعي والسياسي ، وهو مقسم الى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : في الطبيعة الانسانية والمبادىء الأساسية للسياسة عامـــة .

الجزء الثاني : في الهيئة الاجتماعية عن الانسان باعتباره كائنـــا اجتماعيا ولبنة حية في بناء المجتمع الكبير .

الجزء الثالث : فيما يتعلق بشئون المواطن .

ولعلك ترى اسم الكتاب فتجد الموضوعات المندرجة تحته هى نفسها التى يبحث فيها .

ب - التنين : ويقصد به العملاق الضخم الذى ينبغى أن تذوب فى أحشائه سائر الكيانات الأخرى ، وهذا العملاق الضخم هو الدولة التى يجب أن يذوب فيها كل شىء ، وقد ترك هذا الكتاب أثرا ضخما فى الأوساط الشعبية ، لأنه تعرض للصراع القائم آنئذ بين الديمقراطية وبين سائر الدكتاتوريات ، فالديكتاتورية ممثلة فى أسرة استيوارت المالكة وبين أنصار الثورة الشعبية .

جـ - فى الجسم : وهذا الكتاب يحتوى على المنطق والمبادىء الأساسية والفلسفية ونظريات الحركات والمقادير .

د - فى الانسان : وقد خصص القسم الأكبر منه للحديث عن البصريات ، وتوضيح حاسة البصر ، أما الجزء الباقى منه فكان بيانا موجزا فى الانفعالات والخواطر النفسية .

وربما تسأل لماذا عنى هوبز بهذه الجوانب ؟ والجواب ان هوبز اراد ان يصوغ من فلسفته منهجا كليا فى الانسان ، فتكلم عن النفس وكان يريد أن يربط هذا الانسان بالعالم ، وارتباطه أكثر بحاسة البصر التى تنقل اليه صورة

هذا الكون المادى بكل ما فيه من كتل وأجسام وذرات دقيقة .

تلك كانت لمحة خاطفة وسريعة على مؤلفات توماس هوبز والحقيقة أن الرجل حاول تقليد شعراء الأغريق ، فقام بترجمة الألياذة والأوديسا الى اللغة الانجليزية ثم شرحهما فى صياغة شعرية خاصة حتى أمكن القول بأن هوبز استطاع نقل الشعر من لغته الى لغة شعرية أخرى .

ولئن كانت محاولة هوبز فى تأليف شعر كالشعراء الاغريق لم يقدر لها النجاح لأنها عبارة عن متن شعرى ، فان تعليق هوبز عليها والشروح كشكل فى ذات الأمر نواة حية لمذهب فلسفى متناسق متسعة أجزاؤه متماسك بناؤه ، يؤدى كل موضوع فيها الى موضوع آخر حتى يتم البناء الفلسفى كله ، وهذا ما سوف نلمحه اثناء عرضنا لجوانب فلسفته .

٤ — فلسفة توماس هوبز :

الحق أن فلسفة هوبز ذات اجزاء يبدو فيما بينها نوع من التناسق الفكرى والتسلسل المنطقى بما يكشف عن نزعة صاحبها المسرفة فى المادية فالعالم عنده ذرات صغيرة تتلاقى بالمصادفة المحضة ، والمجتمع الانسانى يمر بمراحل عديدة ، والدكتاتورية أمر ضرورى لحفظ النظام لأنها نظام الهى مقدس قائم على نظرية التفويض الالهى ، وهذه الأجزاء تحتاج منها الى عرض سريع لها على النحو التالى :

أولا : العالم كله ذرات مادية :

يرى هوبز أن العالم كله عبارة عن ذرات تتلاقى بالمصادفة فعنــد تلاقيها تتكون الكتل والأجسام ، انه يتصور العالم بكل مافيه حتى الانسان عبارة عن مجموعة هائلة من الذرات قد تكثر وقد تلين ، لكن اللين والصلابة والكثافة أمور عارضة قد تتناقض مع الحقيقة حتى الادراك والمشاعر والـمخ الانسانى لاتخرج عن اطار كونها ذرات مادية .

بل ان العقل والحب والكره ، والسرور والحزن والرضا والغضـب والارتياح والنفرة كلها عبارة عن ذرات يرسلها المخ الى القلب فيحب أو يكره ويحزن أو يسر ، ويتكون من ذلك ما يسميه العامة " العواطف " والعقـد النفسية ، كما أن الخجل عبارة عن ارسال من المخ واستقبال من القلب .

اذن :

- العالم كله ذرات متفاوتـة .
- الانسان نفسه مجموعة من الذرات .
- الادراك أثر منقول من ذرات المخ عن طريق الحواس .
- العواطف الانسانية أثر لما يبعثه المخ من ذرات الى القلب لكنهـا ذرات غاية فى اللطف .
- حركة الانسان مادية بحتـة وآلية صرفة .

تلك نظرته للعالم ، وهى فى حد ذاتها نظرة غير موضوعية ، لأنهـا

تنكر كافة الغيبيات وتتمسك فقط بالماديات ، كما أن انحصارها فى الآلية يفقدها أمرا هاما هو الاستقلال الفكرى الذى تقوم عليه العمليات العقلية وهذه النقودات سوف نلتفت اليها عند مناقشتنا لفلسفته فيما بعد .

ثانيا : مراحل المجتمع الانسانى ورأيه فيها :

يرى هوبـز ضرورة الانتقال من العالم الى المجتمع الانسانـى فيتصور أن المجتمع الانسانى قد يمر بمرحلتين هما :

١ — المرحلة البدائيـة .

٢ — المرحلة المدنيـة .

وهما مرحلتان هامتان تاريخيا ، ولابد للبدائية من ان تسبق المدنية مع امكانية وجودها معا فى فترة تاريخية واحدة متى وجدت المرحلتان فـى وقت واحد لكن من خلال شعبين مختلفين كأن يوجد مجتمع بدائى فـى الشرق ، وفى ذات الوقت يوجد مجتمع مدنى فى الغرب ، ولكل من هاتيـن المرحلتين مظاهر مميزة :

(١) مرحلة البدائيـة :

تصور الانســان فيها على سجيته الخاصة فيرضى زمام غرائزه ، ويتصرف بإيحائها وتوجيهها دون ستار شرعى أو تشريع قانونى ، فمثلا الجائع الذى يريد الأكل ، يبيح هوبز له ان يسرق ليأكل ، وأن يخطف ويقتل أخــاه

الانسان بل ويأكله انطلاقا من غرائزه البدائية من غير موارية أو تكلف ، فاذا أراد افراغ غريزة الجنس مع أي شخص من غير ممانعة فله أن يفعله لايعنيه أن يكون ذلك بعرض الطريق ، ثم في النهاية لايتسيد الموقف الا الأقوى ويصير المنطق المقبول هو منطق القوة وشريعة الغاب .

اذن تصوره لمرحلة البدائية تصور مادي صرف فيه تحول الانسان الى حيوان يمشي على اثنتين بدل أربع ويرفع رأسه الى الأمام بدل أن يخفضها الى الأرض ، ولو ادرك هوبز أن هذه ليست النموذج الراقي الذي خلق الله عليه البشرية لغير موقفه .

اقرأ معي قول الله تعالى " واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك اني أخاف الله رب العالمين . اني أريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين " (1) .

---

(1) سورة المائدة الآيات رقم ٢٧ - ٣١

اذ ن المجتمع البدائى فى مراحله الأولى خلقه الله على هيئة متكاملـــة يستشعر الضعف ، ويعيش فى حناياه الأنس والألفة ، وآية ذلك أنه لمـــا قتل أخاه ولم يتمكن من دفنه صاح من داخله وأيقن أنه قد خسر عون أخيـــه ومساعدته ، فلما رأى من الغراب حرصا على دفن أخيه الغراب مع ضعفـــه صاح من داخله بالندم الذى لو ترك له لقض مضجعه . من ثم فلم يكـــن هوبز موفقا فى تصويره المجتمع البدائى بالذئاب والحيوانات المفترسة .

(٢) مرحلة التمدين :

يرى هوبز أن هذه المرحلة فى المجتمع هى مرحلة الأقنعة الزائفة .
مرحلة النفـــاق الاجتماعى .
مرحلة المدنيـــة الزائـــفة .

والانسان فى ظل مرحلة التمدين لايختلف عن الانسان البدائى ، أنه يحاول تحقيق أغراضه بطرق أخرى ملتوية لاتعرف الاستقامة .

خذ مثالا : ممارسة الجنس :

فالبدائى يمارسها من واقع غريزته ، أما المتمدين فانه يمارسها تحـــت ستار الدين باسم الزواج ، أو باسم القانون والنظم الاجتماعية ، وهكـــذا فان الدين — من وجهة نظر هوبز — والقانون والنظم الاجتماعية ماهـــى الا أقنعة زائفة يحقق الانسان المتمدين من خلالها وفى ظلها كل ما يمكنـــه

تحقيقه ، من ثم فان كل شيء في ظل المجتمع المدني يمكن تفسيره على
هدى من غرائز الانسان .

مثال آخر : رجل غني يحسن الى الفقراء فيسميه الناس محسنا أما
هوبز فيرى أن هذا المحسن لو حللت نفسيته من داخلها لوجدته يحسن
الى الفقراء لكي يحس بنفسه لذة الشهوة ، كما يتقي بالاحسان شرهم .

اذن الانسان في المرحلة المدنية يتصرف في رغباته ويستر غرائزه بما
يستطيع من حجب وأقنعة ، لكن الأنانية راسخة في أعماقه ضارية بجذورها
في داخله ، انه يحيى في دنيا من الذئاب البشرية حيث يتربص كل بالآخر
ويحتال كل لحفظ حياته وسلامة بدنه مستعملا أسلحة الحيلة والذكاء والمكر
والخداع والقوة اذا لزم الأمر .

بل ان المشاعر النبيلة التي يبديها الانسان تجاه غيره ينظر اليها
هوبز على أنها مجرد أنانية حملت على وجهها بأكثر من قناع ، يحنو القوى
على الضعيف ليشعر بزهو القوة ، ويحسن الغني الى الفقير لينال حمد
الناس وتقديرهم ، وهو في النهاية يحيط نفسه بمشاعر من الأمن والطمأنينة
بل ان القاعدة أنه كلما كثرت أسلحته كان أكثر أمنا على نفسه من أذى الآخرين

وبهذه النظرة اليائسة من خلف زجاج داكن في ليلة مظلمة استطاع
هوبز انكار كل من :

١ — الديـــن ٠
٢ — القانون ٠٠٠
٣ — الأخلاق ٠٠
٤ — القيـــم ٠

وآمن بالمادة وحدها ، وأن جميع التفاعلات الذرية الكيمائية هي التي تتحول الى اشكال ومظاهر ومجتمع كهذا تسود فيه الغريزة وتسيطر عليـه الأقنعة الزائفة في حاجة ضرورية بل ماسة الى حاكم قوي وحكومة في غايـة الحزم والصرامة ٠

من هنا تصور هوبز أن الناس بدافع حرصهم على مصالحهم من أنانيتهم المقنعة تعاقدوا فيما بينهم على اقامة ذلك الحاكم الذي يعد بينهـم بمثابة مروض وحوش ، مهمته أن يكسر شوكة قوتهم ، ويكبح جماح غرائزهـم ، حتى يستشعر كل فرد في ظل هذا الملك بما يحتاج اليه من أمن وأمان ٠

ثالثا : صيغة التعـاقد الاجتماعي ٠

يرى هوبز أن الصراع لاينتهي لأن الناس ذئاب بشرية ، ولن تتحقـق مصلحة ما فيها أمن وأمان الا بوجود صيغة محددة يتم خلالها تنصيـب حاكم قوي ، واقامة حكومة راشدة شديدة ، شريطة أن تكون هذه الصيغـة ملزمة للكل شاملة للكل ، وحدد صيغة من عنده تقوم على " اني أتنازل عـن

توتى بعض حقوق تجاه هذا الفرد ، أو هذه الهيئة بشرط أن تتنازل أنت الآخر من مثل هذه الحقوق لنفس الفرد والهيئة " والفرد هنا هو الحاكم ، أما الهيئة فهى الحكومة .

بمقتضى هذا العقد تصير كلمة الملك هى العليا ، وكلمة المجتمع هى السفلى ، ودين الملك ينبغى أن يكون هو دين الشعب تطبيقا لمبدأ الناس على دين ملوكهم ، حتى ولو كان سلطان الكهنوت ثانه لاسلطان أعلى من الملك ، ومن ثم لاتصح الثورة عليه مهما كانت أخطاؤه .

رابعا : علاقة الملك بالكنيسة :

يرى هوبز منح الملك حاكمية مطلقة فى يده كل السلطات حتى يتمكن من تحقيق الأمن بين الرعية ، فالسلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية كلها فى يد الملك بل هو مصدر السلطات كلها .

* لايجوز الثورة عليه وان أخطأ ومهما كانت قوته وطغيانه .
* اذا حدثت ثورة فعلى الرعية انتظار الموقف فان تغلب أحد الطرفين — الملك أو الثوار — دانت له الرعية بالطاعة المطلقة ، والخضوع الكامل لأنها سبق لها التنازل تحت صيغة التعاقد الاجتماعى .

أما الكنيسة التى تحدث البلهاء عن عالم روحانى فان هوبز يرفضها تماما ويرفض ماتردده من أفكار لاهوتية ويرى ضرورة اخضاعها لسلطان الحاكم .

حتى لايوجد حاكمان بل أنه يفرض على الكنيسة الالتزام بدين الملك ، فان كان بوذيا فالكنيسة كذلك ، وان كان مسيحيا فالكنيسة كذلك ، حتى لو كان يهوديا أو لادينيا فيجب على الكنيسة أن تخضع نفسها لدين الحاكم نفسه .

ويرفض هوبز محاولة البحث فى فهم الشعائر الدينية ويرى أنها كأقراص الدواء اذا ابتلعت أفادت ، واذا هى مضغت كانت مرة المذاق ، وبهذا حاول هوبز انزال القداسة التى كانت تتمتع بها السلطة الكهنوتية انه يريد مسخهم ودينهم ، يريدهم يهودا اذا كان الملك يهوديا ويريدهم بوذية اذا كان الملك بوذيا ، وبالتالى تحول الدين عنده الى شيء لارصيد له انه مجرد محرر كتابى فقد أهميته .

ويقرر أن طقوس الدين لايصح أن تخضع للبحث العلمى ، لأنها ان أخضعت للبحث لم تجد من ورائها أية نتيجة منطقية بل ولاقيمة فنية وبالتالى فمهما كان للدين من سلطة فانه لاقيمة لها أمام سلطة الحاكم ، وأعنى بها السلطة الزمانية سلطة الملك .

ان الملك فى نظر هوبز يجب أن يكون ديكتاتورا وفى نفس الوقت يختاره البرلمان الذى قرر أعضاؤه التنازل عن هيئاتهم الاعتبارية لهذا الملك .

تلكم هى أهم الأفكار الفلسفية التى حملتها الينا فلسفة هوبز وانتقلت عبر كثير من القنوات الفكرية ، ولعلكم لاحظتم معى أن العالم عنده عبارة

عن حشود هائلة من الذرات ، مما حدا بالبعض أن يطلق عليها اسم الفلسفة الذرية ، ولئن كنت قد عرضتها فيما مضى فلا أظن أحدا يعفينى من مناقشتها ، أو يلتمس لى عذرا من مواجهتها ، ولذا سأعمل على مناقشتها فيما يلى من سطور وصفحات فهل تصاحبنا الرحيل ؟ .

خامسا : مناقشة فلسفة توماس هوبز :

الحق أن فلسفة هوبز كان لها أثر قوى فى عصره وما تلاه من عصور فى أوروبا ذاتها ، بل كان من آثارها المدمرة ظهور كثير من الدكتاتوريات التى أعلنت عن نفسها كالنازية الألمانية ، والفاشية الايطالية التى ماهى الا بعض أثر أونتيجة مباشرة لفلسفة هوبز الآلية ، ولكن هذا لايمنع من مناقشة الفلسفة الهوبزية ايجابا وسلبا .

١ ـ النزعة المادية المسرفة :

أول ما يمكن توجيهه من نقد لها هو اغراقها فى المادية فهى تنظر للانسان باعتباره جسما آليا ، وتعتبر عقله وروحه وخواطره ومشاعره مجرد ذرات مادية فاقدة الذاتية شأنها كسائر الذرات الأخرى ولاميزة لهما الا أنها ألطف وأخف .

وهذا المذهب ليس من أفكار هوبز فقد سبقه الى تقرير المذهب الذرى فى بلاد اليونان فيلسوفها ديمقريطس الذى اعتبر الكون كله حشودا هائلة

من الذرات المختلفة ، بل أن ديمقريطس اعتبر العقل والغريزة ذرات ، تختلف عن الذرات الأخرى بأنها ألطف منها فقط .

كما أن أنبادوقليس له مذهب فى الحب والكراهية ، وفيه يقرر أن : الكتل المادية عبارة عن ذرات تتلاقى بالحب وتتفرق بالكراهية ، اذًا هوبز مدين بفلسفته لكل من الفيلسوفين الأغريقيين — ديمقريطس وأنبادوقليس — ولامجهود له فى المسألة . الا أن أخرجها من بطون الكتب الى سطح الأفكار .

٢ — سيطرة النظرة المتشائمة :

فى الفلسفة الهوبزية نقطة تثير التقزز والغثيان ، وتدعو الى فقد الثقة وعدم الاطمئنان ، تلك هى نظرة هوبز التشاؤمية للمجتمع الانسانى الذى يصوره بأنه أنانى،تصوير مادى آلى يجرد من الانسانية من فضائلها ويسقط منها خبراتها الطويلة التى اكتسبتها فى رحلتها الدائمة ، وهى نزعة تشاؤمية ينظر صاحبها للناس من حوله من خلال نظارة سوداء فى ليلة حالكة لا أخلاق ولاقيم بل ولادين أو مبادئ .

وفى تقديرى أن هذه النظرة السوداء سببها راجع الى حالة الانفصام فى الشخصية التى كان يعانى منها هوبز ، حيث كان أبوه قسا محافظا ، والمحافظة غير الطبيعية قد تؤدى الى نوع من التزمت الشكلى الذى يسئ الى الدين اساءة بالغة .

لقد كان أبوه قسا يفهم الحياة فهما سطحيا ساذجا ، يذهب الى الكنيسة لأداء عمله ، يدعو للقيم ، يتحدث عن الفضائل والزهد والتقشف ، وفى بيته يحرص على كافة متع الحياة بل ويحرص على المادة ويتكالب عليها .

اذن هناك نوع من الانفصام — الشيزوفرينا — بين الشخصية والعمل بين الفكرة والسلوك ، بين المنزل والكنيسة ، وهوبز فى هذه السن الغضة متفتح الذهن تدرك نفسه الأمنية هذا النوع من الازدواجية والانفصال فلا عجب اذن حين نجد هوبز يتصور شعائر الدين ، ومبادىء الأخلاق على أنه هزؤ سخيف ليس له أساس من الصحة ولانصيب من الحقيقة ، وأغلنك قد تلاحظ أن هوبز فى هذه الفكرة منطق من مواقف غير طبيعية فلا تحسب له وانما تحسب عليه ومن ثم فهى فلسفة متشائمة .

أضف الى ذلك أن أثرها السىء امتد الى الوجودية عند سارتر التى حولت الناس الى الأنا والأنا الآخر ، وأنه لايمكن أن يتعايش الأنا والأنا الآخر لأن فرصة الحياة لأحدهما فقط ومن ثم فلابد من أن يقضى أحدهما على الثانى ، وبهذا استشرت العداوة ، وحلت البغضاء أبدا .

٣ — وأد الطبيعة الانسانية :

لاشك أن فلسفة هوبز تحاول القضاء على آخر أمل فى الانسانية ، أن هوبز يتصور الطبيعة الانسانية وقد تخلت عن جانب الخير فيها كلية ليحل

محلها الشر المطلق ، ان الانسان فى نظره لايكن لأخيه الانسان الا مشاعر الحقد والكراهية والعدوان ، حتى لقد بلغ من تطرف هـــذه الفلسفة أن أوّلت مظاهر الحب والمودة بين الناس بأنها نفاق وكراهية .

بل وجردتها من كل معنى انسانى نبيل ، وهى نظرة تبعد عن أرض الواقع المحسوس وتحاول الغاء كافة علاقات المودة النظرية بين النـــاس والتى تحكم سلوكهم فى أكثر الأحيان ، وهذا لايدل على عمق فلســـفى بقدر ما يدل على سطحية فى التفكير وانطوائية فى الداخل تلك الحـالة التى عاشها هوبز نفسه وحاول تصديرها لغيره فلم يفلح بالقدر الذى تمناه.

٤ ـ فكرة التعاقـــد :

ظن بعض السطحيين ممن يدعون النقد انهم يوجهون إلى فكرة التعاقـد نقدا خلاصته أنه تعاقد خيالى ، ومن ثم يعتبرونه نقطة ضعف خطيرة فـــى فلسفة هوبز ، ولكن هذا النقد فيه سذاجة أكثر مما يليق لأن هوبز انمـا يقدم نوعا من التصور التقريبى يقصد به تقريب فكرة العلاقة بين الحاكم والرعية ليس الا .

ولكن الذى يمكن توجيهه الى فكرة التعاقد من نقد هو أنها لم تحـل المشكلة ، لأنها تقوم على فكرة الجبر والشرطية ، أليست تقول : أتنــازل أنا ...... بشرط أن تتنازل أنت .... فهناك شرط وجبرية فكيـــف تكون بهذا الشكل وتمثل تعاقدا مقبولا ، ان الارادة الحرة لاوجود لها . لأنها تنازلات مشروطة بشروط مدونة وليست حتى أدبية .

ثم ان فكرة عدم الثورة على الحاكم فكرة مفترضة لأنها تناقض صيغة التعاقد أليس التعاقد نوعا من الالزام ؟ فلماذا اذن الثورة على الحاكم وبالتالي فهو فرض تنقضه التجربة ، وبيدو أنه استشعر ذلك فطلب من الرعية عدم الانضمام لأحد الطرفين ثم الفائز يصير هو الحاكم .

٥ - نظرية الارادة والاصطناع :

لما كان هوبز من أنصار الحكم الديكتاتوري فقد حاول تقديم خدمات له فقدم نظريته الارادة والاصطناع ، وملخصها أن الناس بارادتهم الحرة تعاقدوا فيما بينهم على اصطناع التبعية ، واختيار حاكم لهم يدينون له بالطاعة ، وهذه النظرية تسبقها أخرى هي مذهب التفويض الالهي الذي يقرر في وضوح أن الملك هو ظل الله في أرضه ، ونائبه في خلقه ، فليس من حق الرعية أن تختاره أو تعزله ، وهي أقوى من نظرية هوبز وأقدر لأنها جعلت الملك حاكما بتفويض الهي بينما هوبز جعله حاكما باختيار الشعب .

نعم كان هوبز يحاول دعم حكم الأسرة المالكة في انجلترا ولكنه قوض دعائمها من حيث لايشعر ، أما لماذا ؟ فلأن الأسرة كانت تستمد حكمها وقوتها من فكرة التفويض الالهي فلما جاء هوبز ألغى فكرة التفويض الالهي للملك فانتزعت هيبة الملك من القلوب ، وسقطت مشاعر الهيبة والتقديس تجاهه ، ومن ثم أضر هوبز بالأسرة من حيث أراد نفعها ، وكأني به والدبة التي راحت تزيح الذباب عن وجه صاحبها فلما لم تسعفها الحيل حملت

حجرا كبيرا وألقته على وجهه بقصد قتل الذباب الذى طار ، ومــات صاحبها مقتولا من شدة دفع الحجر ٠

وقد عرفت نظرية الارادة والاصطناع هذه باسم فكرة التعاقد الاجتماعى ولكن ذلك لم يعرف الا بعد أن نشر رسو كتابه العقد الاجتماعى ٠

وربما تسألنى ما الفرق بين العقد الاجتماعى عند رسو ، والارادة — والاصطناع أو العقد عند هوبز ؟

فأقول ٠ هناك فروق عديدة أهمها :

* عقد هوبز يعتبر الملك ديكتاتورا ، مروض وحوش بين رعيته ، فهو يكبح فى نفوسهم جماح الشهوة ويعمل على كسر شوكة التسلط فى سلوكهم حتــى يصنع مجتمعا آمنا ٠

* أما عقد روسو ، فانه يعتبر الملك أبا رحيما والشعب هم أبناؤه ، وهو يؤكد فيما بينهم أسباب المودة ويزرع فيهم أواصر المحبة ، ويواصل فيما بينهم الحب والمودة والاخاء والفرق كبير جـدا ٠

٦ — الملك اله متســلط :

أجل نادى هوبز بالديكتاتورية المطلقة التى يكون الملك فيها كل شئ حتى أوشك أن يجعله الها متسلطا ، ارادته فرض ، ومشيئته قانون وطاعتــه واجبة ، والخروج عليه جريمة تؤدى الى النار لكن ماهى الضمانات التــى

تجعل الملك لايحيد ، أن الملك ليس معصوما من الخطأ حتى يطلب من الناس أن يدينوا له بالطاعة دون مناقشة أو اعتراض ، ولكن على ما يبدو أن هوبز وضع تلك الضمانات بين يديه وتعاهد مع الملك على ألا يتجاوزها دون أن يعلم أفراد الشعب ، يعنى اتفاقات سرية وهذا مالم يتم .

على أية حال فقد سلكنا مع فلسفة هوبز الطريق السهل فى العرض والمناقشة وانتهينا الى أن هوبز فيلسوف آلى ، وأنه تعاقدى وليس تفويضى وأن فلسفته أضرت أكثر مما نفعت ، وأن قيمتها ترجع الى الدوى الهائل الذى أحدثته فى أوربا ان كان لدويها قيمة تذكر .

وقبل أن أجعل فلسفة هوبز وراء ظهرى فربما يعن بخاطرك مامعنى تعاقدى ، وتفويضى ؟

والجواب أن الفلاسفة فى المسألة قسمان :

الأول : التفويضيون : وهم الذين يقولون : ان الحاكم هو ظل الله فى الأرض ، وأنه يستمد سلطته الحقيقية من الله وليس من الناس . ومن ثم فلا تصح الثورة عليه لأنها تجلب سخط الاله والطرد من الكنيسة .

الثانى : التعاقديون : وهم الذين يقولون أن الحاكم هو عبارة عن منفذ لارادتنا فنحن أردنا أن نقيم حاكما فصنعنا هذا الحاكم ، وليس هناك تفويض ولكن هناك تعاقد بين المجتمع والحاكم ليس الا .

وبعد : عزيزى الكريم •

ها أنذا قد عزمت الرحيل ، فقد انتهى والحمد لله الخطب الجليل ، فهل تحمل متاعك وتصاحبنى نعزف معا لحنا جديدا على وتر ناعم جميل أيقظ أوربا النائمة من خدر الكهنوت الذى سرى فى أوصالها زمانا طويلا ، وكان يحمل بيديه منهجا علميا تلمس لنفسه سبيلا فى غياهب الظلام ، حتى انبلج الصباح ، وسطعت معه شمس معرفة جديدة كان قائدها الشاب الفرنسى رينيه ديكارت ، أم تحب الاسترخاء ، وتخلد الى الدعة بعد رحلة العناء الطويلة ؟ أما أنا فسأظل أحمل نور اللطفى قلبى أبحث به عن الحقيقة ، وسوف تكشف يوما عن جمالها الخلاب ، وسحرها العذب ، ونغمها الشجى ، فمازلت تواقا اليها •

((الخاطر السادس))

((نموذج من الفلسفة الفرنسية البناءة))

((أبو الفلسفة الحديثة " رينيه ديكارت "))

٣١ مارس ١٥٩٦ - ١١ فبراير ١٦٥٠م.

تمهيد :

لاشك أن فلسفة بيكون وهوبز كانتا تحولا خطيرا في مجرى الفكر البشرى في أوربا الحالمة ، زعزعتا كثيرا من القيم ، وانهارت بسببهما الأخلاق ، وكانت الكنيسة ورجال السلطة ضحية كل هذا ، أما لماذا ؟

فلأن رجال الدين المسيحى كانوا قد فرضوا على الناس تعاليم مغلقة ، وتزمتا وجمودا فأدى ذلك الى شل النشاط الانسانى تقريبا ، وآية ذلك أنه حينما ظهر بيكون وهوبز فتحدث الأول عن الأوهام وتحدث الثانى عن الكنيسة بدأت الثقة فى الكنيسة ورجالها تنهار يوما بعد يوم ، واذا انهار الدين فى النفوس انهارت معه القيم والمواصفات الأخلاقية ، وضاعت القيم والمعارف التقليدية ، بل صار كل شىء الى موضع السخرية ، أو موضع الشك ومواطن الريبة على أقل تقدير .

والمعروف أن أوربا عاشت أوائل القرن السابع عشر صراعا تلقائيا بين قيم مألوفة وأخرى ثورية تريد أن تزيح من طريقها كل شىء ، حتى أن هذا الصراع القلق بين التقليديين والمجددين بات يُذكّر الناس بحركة السفسطة التى ظهرت فى العصر الأغريقى على يد السوفسطائيين .

ولذا كانت أوربا في حاجة الى فيلسوف قوى يقف من سفسطة عصره نفس الوقفة التى وقفها سقراط من سفسطة العصر القديم ، وسقراط هذه المرة هو أبو الفلسفة الحديثة " رينيه ديكارت " الفيلسوف الفرنسى الذى هز أرجاء العلم الانسانى - في جانبه التجريبى - هزا عنيفا . فمن هو؟

١ - مولده ونشأته :

ولد رينيه ديكارت في الحادى والثلاثين من شهر مارس عام ١٥٩٦م ، وكان ذلك بقرية أسمها " لاهاى " تابعة لمقاطعة تورين الفرنسية ، وقد عاش الفتى أيامه الأولى في حضن أمه التى كانت تعانى ضعفا ونحولا وسعالا لازمها حتى فارقت الحياة .

٢ - حال أسرته :

كان أبوه محدود الثقافة والدخل ، بحيث لم يتمكن من عرض أبنه على أطباء التخصص حينما أصيب الفتى بالسعال الذى كانت تعانى منه أمه ولو كان أبوه صاحب دخل كبير ربما لعرض ولده على أطباء التخصص .

وكان أبوه يلاحظ على ولده منذ السنوات الأولى من عمره تفتحا ذهنيا وقريحة صافية ، وحيرة دائمة ، كان مصدر هذه الحيرة حركته الذهنية المستمرة واسئلته الدائمة ، وربما كان موت أمه مبكرا قد أدى الى تلك الحال

لكن ذلك غير قائم ، لأن أمه ماتت قبل أن يناهز الفيلسوف عامه الأول ، ولم يرث عن أمه ثروة أو علما ، ولاثقافة أو حلما ، انما ورث عنها ضعفا ونحولا وسعالا لازمه الى سن العشرين .

على أن أباه كان يلاحظ على ابنه مخايل النجابة وملامح الصفاء ، وكانت أسئلة الفتى الكثيرة بمثابة مطراق يطرق رأس أبيه ، لأنه كثير ما كان يسأل أباه عن مايعن له لكن لم تكن عند الأب ثقافة تغطى جنبات أسئلة ابنه ، فكان الأب يستشعر الحرج حين يسأله ابنه ولايتمكن من الاجابة عليه ، ولذا كان الرجل يلقب ابنه " بالفيلسوف الصغير " .

٣ — ثقافتـــه :

لم يكد يبلغ الفتى ديكارت عامه الثامن حتى ألحقه أبوه بمدرسة لافليشن التى يتولى ادارتها الآباء اليسوعيون ، فلبث الفتى فيها قرابة سبع سنوات ، ثم التحق بالجامعة حيث درس العلوم التقليدية ثم تخرج وهو فى سن العشرين ، بعد أن حصل على ليسانس الحقوق وماجستير فى الآداب .

٤ — رحلاتـــه :

فى هذه السن يجد الشاب فى نفسه كفاءة ، ويتصور قدرته على فعل أشياء كثيرة حتى لو كانت ترحالا ، من ثم كانت الأوساط الأوربية تتناقل

الحديث عن قائد هولندى هو موريس دينامسو ، هذا القائد جمع الله له بين صفاء الملكة ، وعراقة الأصل ، وحسن القيادة ، وكان الكثيرون من أبناء الأشراف على مستوى أوربا كلها يتجهون الى هذا القائد حيث يتلقون على يديه فنون القيادة ، والحرب والكتابة على السواء لأنه كان يجمع هذه الامكانيات كلها ويتمتع بها جميعا فى وقت واحد .

تاقت نفس ديكارت الى مزيد من المعرفة فى سائر المجالات ، لذلك سافر الى هولندا حيث ألتقى بديناصو ، وانخرط فى جيشه ، وبقى معه عاما كاملا استقى فيه معرفة علمية ، وخبرة عسكرية ، وتوثقت علاقته بكثير من الشباب الشرفاء الذين جمعهم جيش موريس ديناصو .

اذن تكونت لديكارت معارف مختلفة وصداقات امتدت الى أجزاء كثيرة من أوربا وخاصة ابناء الاشراف الذين كان منهم المهندس ، وفيهم الطبيب والرياضى ورجل الدين ، فالتقى ديكارت بكل هؤلاء وأولئك وارتبط معهم بصداقات طويلة .

(٢)

بعد السفر الى هولندا حبب اليه السفر بصفة عامة ، فكان لايستقر فى مقام طويلا حتى يبدأ الترحال ، وقد تنقل فى كثير من بلاد أوربا ، فزار انجلترا وألمانيا ، وايطاليا ، وتردد أكثر من مرة على هولندا ، كما زار كثيرا من مقاطعات فرنسا وألمانيا ، وظل على ذلك الحال قرابة عشر

سنوات اتسع فيها أفقه ، وزادت معارفه ، ونضجت مع الأيام خبراته .

٥ — أحداث فى حياته :

أ — ماتت أمه صغيرا لم يبلغ العام الأول فلما تفتحت عيناه على الحياة وجد نفسه بين يتم الأم وعدم الأب فترك ذلك فى نفس الفتى أثرا لم يتمكن مع الأيام من معالجته حتى وافاه أجله .

ب — حادثة المدفأة : وملخص هذا الحادث يقصه بنفسه هو أن ديكارت مكث فى حجرة منعزلة — أثناء ترحاله فى قرية نائية ، وكان ذلك بألمانيا فى بداية شتاء ١٦١٩م ، ونزل بحجرة دافئة محلة منعزلة حيث لا صديق ولا أنيس نقضى سحابة يومه وأخذ يفكر فى كل المعارف التى حصلها ، فرأى أن هذه المعارف ينقصها الكثير حتى تكون يقينية ، وقال فى نفسه ماذا أقرأ من كتب ؟ ومن ذا الذى أزور من أساتذة ، وظلت هذه الأفكار تتناوش فى ذهنه حتى غلبه النوم فنام .

ولم يكد يستغرق فى نومه حتى رأى فى منامه أحلاما ثلاثة فهم منها أن السماء تنتظر منه وحده أن يكون هو الرائد فى طريق تخليص الناس من المعارف المسلمة الكاذبة ، وطريق تلخيص المعارف السابقة والوصول بها الى معارف يقينية ، بعد تمحيص المعارف السابقة ، والوصول الى معارف صادقة يقينية تقع من الناس موقع القبول والتسليم وهى فى حد ذاتها مقبولة .

بمعنى آخر رأى فى منامه — حسب روايتهم — أنه مطلوب منه أن يضع منهجا للمعرفة الانسانية يقوم فيه المعارف السابقة ، ويرسم الطريق للحصول على معارف يقينية ، ربما تسألنى عن صدق هذه القصة من عدمه فأقول : قد تكون القصة صحيحة وقد لاتكون ، لكن الذى لاشك فى صحته هو أن ديكارت كان قلقا لأنه كان يعيش بين أنقاض قيم تهدم ، وشبح أخرى جديدة يلوح .

اهتم ديكارت بما رآه ، واعتبر نفسه مسؤلا عن تنفيذ المهمة حتى يهدى البشرية الحائرة فى أوربا الى الحق وانتشالها من لجج الشك وهدايتها الى شواطىء اليقين .

جـ — حادثة ووترخيت :

هذه الحادثة مضمونها أنه كان فى مقاطعة ووترخيت جامعة ألمانية وكان فيها مدرس متعصب الى أبعد الحدود لفكر ديكارت ، ولكن هذه الأفكار لم تكن لتعجب عميد كلية اللاهوت ، فأخذ العميد يهاجم المدرس ووقعت بينهما مساجلات على صفحات الجرائد ، ولم يكن ديكارت طرفا فيها .

فاتهم ديكارت بأنه ضد القيم والأخلاق حتى أوشك أن يطرد من ألمانيا كلها لولا تدخل سفير فرنسا فى الموقف وأنهاء المشكلة ، وكانت لديكارت آراء جديرة بالاحترام ، وكان يمكنه أن يخرج الكثير منها فى كتب

يعرض فيها آراءه وأفكاره بحرية ووضوح ، لكنه كان يعرف سلفا أن سخط الكنيسة ينتظره ، وأن الرأى العام ليس مهيأ له ، ومن ثم سوف ينقلب عليه ويستاء منه ، وتلك مسألة مهمة جدا .

(٣)

على أية حال فان ديكارت بعد عشر سنوات من الترحال المتواصل والتطواف الطويل فضل الاستقرار والعزلة ، وآثر الهدوء والراحة ، فأقام بهولندا ولم يكن له من الأصدقاء فيها الا القليل ، منهم الطبيب والرياضى -بكمان - الذى عرفه ديكارت فى سن مبكرة حين قدم له أولى مؤلفاته وكان عبارة عن رسالة فى الموسيقى وعمر ديكارت آنئذ حوالى عشرين عاما .

ارتبط ديكارت بقلة من الأصدقاء ، وتفرغ فى مدة عشرين سنة للقراءة والتأمل والبحث والكتابة ، بل لقد ذكرنا أنه لم يرتبط بزوجة ولا ولد ، الا أنه كانت له صداقات تدعمها علاقات جنسية آثمة ، اتصل فيها ببعض السيدات وحملن منه بغير الطريق الشرعى .

٦ - وظائفه :

أ - عمل بالكتابة والتأليف ليفيد الناس بما حصل من علم وما اكتسب من معرفة .

لقد تأثر ديكارت مع الرأى العام ، من ثم فحين فكر فى تعليم الفلسفة كان يختار تلاميذه بدقة وحذر شديدين ، وكان فى مقدمة تلاميذه طالبة

كان يعتز بها كثيرا ، ويفضلها على كل تلاميذه لا لشيء الا أنها كما يقول تفهم آراءه خيرا من الجميع ، وكانت هذه الفتاة تدعى اليزابيس ابنة أحد الملوك المخلوعين ، وكانت له حكمة يقول فيها من الصعب أن تعثر على امرأة جميلة ، أو واعظ فاضل ، أو كتاب جيد ، لكن على ما يبدو فان اليزابيس كانت هي هذه المرأة التي تتمتع بالجمال وفي الوقت نفسه تفهم عنه كل ما يريد .

ب – تعليمه لكرستينا ملكة السويد :

في سنة ١٦٤٩ وردت رسالة من كرستينا ملكة السويد الى ديكارت ، وكرستينا هذه سيدة فاضلة عرفت في أوربا كلها بسعة الأفق وحدة الذهن ، وكثرة القراءة في المعارف الانسانية على وجه العموم بل وحرصها على مكاتبة مشاهير الرجال في شتى المعارف .

وكانت الرسالة موجهة الى ديكارت تدعوه فيها لزيارة السويد ، وحتى تكون الملكة تلميذته الوحيدة في الفلسفة التي تتوق الى تعلمها منه ، فتعلل ديكارت ولم يستجب لها في المرة الأولى ، فراسلته الملكة للمرة الثانية ملحة عليه وفي النهاية انتزعت منه الموافقة فأرسلت اليه سفينة حربية خاصة حملته الى شواطيء السويد .

أجاب ديكارت الدعوة ورحل الى أرض السويد فالتقى بكرستينا الملكة واتفقا على نظام تلقي الفلسفة وتمسكت الملكة بأن يكون الدرس في الساعة

الخامسة من الصباح الباكر كل يوم ، ولم يستطع ديكارت أن يقاوم الرغبة الملكية فاستسلم للنظام .

ولما كان ديكارت قد نشأ بين احضان حدائق تورين الغناء واستمتع بنسيمها العبق فلم يقو على احتمال جو السويد القارس وبردها الشديد فسرعان ما أصيب بسل رئوي ، أقعده عن التدريس للملكة ، وهو أثر مما ورثه عن أمه .

عرضته الملكة على كبار الأطباء وأمهرهم لأنها فرضت حمايتها عليه فلا أقل من أن تعرضه على كل الأطباء ، ولكن ديكارت كان مريضا عنيدا أما كيف ؟ فلأن الأطباء قرروا تحليل دمه فرفض وقال : أنا لا أحب أن يراق الدم الفرنسي على أرض السويد .

وظل ديكارت يحارب المرض وهو يحاربه الى أن عاجلته منيته وهو في ضيافة الملكة كرستينا . ثم نقل جثمان المواطن الفرنسي المعتز ببلده اليها فيما بعد .

٧ — وفاتــــه :

في ١١ فبراير ١٦٥٠ اشتد المرض على ديكارت فمات هناك وكانت وصيته أن يدفن في أرض وطنه من ثم نقل جثمانه الى فرنسا في ١٦٦٧م أي

بعد سبعة عشر عاما من دفنه ، فما كان من حكومة بلده الا أن احتفت به وجعلت له قبرا خاصا وتمثالا خاصا وضع التمثال فى متحف اللوفر بفرنسا .

٨ — شــــهرتــه :

بلغ ديكارت من ذيوع الشهرة وبعد الصيت ، وانتشار الذكر وقـــوة الأثر الحسد الذى جعل العالم يحتفل بذكرى مرور ثلاثمائة سنة على ظهور كتابه مقال فى المنهج ، واشتركت الجامعة المصرية فى هذا الاحتفال الذى أقيم عام ١٩٣٧م .

تلك كانت نشأته وحياته وشهرته ووفاته فما هى مؤلفاته ؟

٩ — مؤلفاتـــــه :

ترك ديكارت العديد من المؤلفات أشهرها :

أ — مقال فى المنهـــــج .

ب — التأملات فى الفلسفة الأولى .

جـ — مبادىء الفلســـــفة .

د — رسالة فى انفعالات النفس .

هـ — العالــــــم .

وسوف أقدم لمحة خاطفة عن محتويات هذه المؤلفات علها تدفـــع الباب المغلق أمام طلابنا ، فربما وقعت عيونهم على ما بعد البــــاب، فاستفادوا علما وحكمة .

١ - مقال فى المنهج :

هذا الكتاب أحدث دويا هائلا فى أوربا كلها ولايزال أثره الى اليوم وقصته أن ديكارت ألفه وهو عبارة عن مقدمة ورسائل علمية ثلاث ، واحدة فى البصريات ، وثانية فى الهندسة ، وثالثة فى الآثار العلوية وكلها تكشف وجهة نظر ديكارت نفسه وتحملها فى مؤلفاته .

أما المقدمة فتشغل حوالى ربع الكتاب كله وفيها يرسم ديكارت المنهج السليم لسير العالم الذى ينتهى بصاحبه الى نتائج أقرب الى الصحة وأوفى عند التطبيق ، والرسائل الثلاث عبارة عن تطبيقات علمية لهذا المنهج .

وحين ظهر الكتاب لجأ كثير من الناس الى مقدمته فهجروها والى الرسائل فقرءوها ، لكن بعد فترة فطن الناس الى فائدة المقدمة فراحوا يقرؤن المقدمة ويتركون الرسائل فتنوسيت الرسائل وماعاد الناس يذكرون سوى المقدمة مثالهم ابن خلدون ومقدمته الشهيرة ، فقد تنوسيت رسائل ابن خلدون تماما واشتهرت المقدمة .

لكن مقدمة ديكارت لمقال فى المنهج قد ذكرت الطريقة العلمية التى يجب على المفكر الانسانى أن يسلكها فى كافة المجالات ، ويصح لأى باحث فى أى فرع أن يستبصر بهذا المقال ، أو يسترشد بتلك المقدمة لأنها وضعت قواعد عامة يمكن تطبيقها فى العلوم التى بامكانها الاستفادة من

ذلك المنهج .

وكانت مأساة الدكتور طه حسين فى العشرينات من هذا القرن أنه تلقى تعليمه الفرنسى على نهج ديكارت فلما عاد من بعثته العلمية للعمل بالجامعة المصرية حاول تطبيق منهج ديكارت على الأدب الجاهلى وكان المنهج غريبا من ثم كان رأى طه حسين فى الجامعة المصرية غريبا أيضا ، فقامت المشكلة ولكن مالبثت الجامعة المصرية أن شاركت الجامعات فى العالم احتفالها بمرور ثلاثة قرون على ظهور كتاب ديكارت " مقال فى المنهج " وكانت هذه المشاركة اعلانا صريحا بسحب اعتراضاتها السابقة على هذا المنهج ، فماذا عن محتويات مقال فى المنهج ؟

حلل ديكارت المعرفة الانسانية فى هذا المقال ، وخرج بنظرية القواعد الأربع ، أو مايسميه البعض بالخطوات الأربع وهى كما يقررها ديكارت نفسه .

أ - قاعدة الوضوح العقلى - اليقين :

يقرر فيها أنه لن يقبل شيئا على أنه حق مالم يكن واثقا من أنه حق فعلا بدرجة اليقين ، ولن يدس فى حكمه شيئا زائدا على ما يتجلى أمامه فى درجة من الوضوح يستحيل معها أى لبس أو أى مظنة للشك . ومن ثم فهو يحاول التثبت فى المسألة عن طريق الفحص والتحليل بغض النظر عن ورود المسألة فى كتاب موثق أو نقلها عن مصدر نال من الناس القبول .

انه يرفض هنا التصديق بالفكرة والثقة فيها ويظل هذا يلازمه حتى يتأكد بنفسه أنه حق من حيث هو لايعنيه الشهرة الذائعة ولا الصيت البعيد كل هذا أمام ديكارت لاقيمة له ، ولايدخل فى تأكيد حقيقة ما أو الشك فيها ، ولذلك سماها قاعدة الوضوح العقلى ، وسوف أذكر هذه القواعد مجملة على أمل العودة اليها عند بسط فلسفته حتى لايقع نوع تكرار .

ب — القاعدة الثانية : التحليل العقلى .

جـ — القاعدة الثالثة : التركيب العقلى .

د — القاعدة الرابعة : المراجعة .

ذلك مجمل محتويات مقال فى المنهج .

٢ — كتاب التأملات فى الفلسفة الأولى :

هذا الكتاب أحدث ردود فعل واسعة فى فرنسا حين تم نشره حتى ان بريد ديكارت اليومى كان يعج بالخطابات الكثيرة التى كان يرسلها أصحابها للاستفسار من ديكارت نفسه عن مقصوده من الكتاب ، والكتاب له شكل وموضوع . فماذا عن شكل الكتاب وموضوعه ؟

أ — شكل الكتاب :

ظهر الكتاب فى الأسواق الفرنسية مكتوبا باللغة المحلية وكان هذا أول كتاب متخصص يصدر باللغة المحلية ، لأن المنتج فى هذه المباحث

الفلسفية باللاتينية ، فخرج ديكارت على هذا التقليد وكتبه باللغة المحلية .

سأله أحد المثقفين لماذا كتبته باللغة المحلية ولم تكتبه باللغة اللاتينية ؟ أجاب ديكارت : انه لا أُحِبّ اليّ أن يفهمني جمهور القراء الفرنسيين بدل أن أصير محدود الفهم عند عبيد الكتب ، وكان يقصد بعبيد الكتب المتمسكين باللغة اللاتينية ولايحاولون النزول الى الجمهور

هذا عن شكل الكتاب ، فماذا عن موضوعه ؟

ب — موضوع الكتاب — التأملات :

الكتاب يمثل أدلة ديكارت على وجود الله تعالى ، وخلود النفس، والتنبيه على أن خلود النفس قضية خطيرة ، ليس لأحاد الناس بحثها حتى هو نفسه لمس تلك الصعوبة فى تناولها فوضعها تحت علاقة النفس بالبدن ، وحاول أثبات كل منهما بعيدا عن الآخر .

والجديد فى هذا الكتاب أن ديكارت أتبعه بملحق خاص ، دون فى هذا الملحق الاعتراضات التى وجهها اليه أصدقاؤه المخلصين الذين قرؤا كتابه قبل طبعه ، وردوده عليها ، وربما كان أول المعترضين بيكون وهوبز ، وطريقة كتابة الاعتراضات مع الأصل فيها دليل على ثقة ديكارت من نفسه وتمكنه من المادة العلمية التى يتناولها ويعرضها بثقة على قرائه .

٣ - مبادئ الفلسفة :

وهو كتاب جيد احتوى على بعض الآراء التجريبية التى بثها ديكارت فى كتابه - العالم - والذى لم ينشر الا بعد وفاته ، حيث كانت فيه قضايا كالتى احرق بسببها جاليليو .

٤ - العالم :

وهذا الكتاب لم يظهر فى فرنسا الا بعد موت ديكارت نفسه ، وفيه الحديث الطويل عن كثير من المشكلات الطبيعية المتعلقة بالعالم والكون وقيامه وفساده .

٥ - انفعالات النفس :

وهو عبارة عن رسالة صغيرة الحجم سماها ديكارت انفعالات النفس وقد تصدى فيها لتعليل الظاهرة الأخلاقية تعليلا بعيدا عن الموروثات القديمة ، ونالت بعض الذيوع والانتشار ، وبخاصة أن انفعالات النفس كان قد نبه اليها فى كتابه مقال فى المنهج .

تلكم كانت أهم كتب ديكارت على الاطلاق ، وهى فى ذات الوقت حملت فلسفته كاملة بكل مافيها من محاور للبحث ، وافاضة للقارئ ، كما أنها ترسم الطريق لمن بعده ، اذا أراد السير نحو الحقيقة الخالدة وسوف تتبدى معالم الفلسفة الديكارتية أثناء تناولنا لها فيما يأتى من سطور وسنجده من صفحات .

١٠ — فلســفته :

أ — ظروف نشأتها :

الحق أن أوربا كلها وفرنسا بوجه خاص كانت قبل ديكارت قــد تعرضت لعاصفة من الشك عنيفة ، كادت تطيح بمسلمات النـــاس وتقاليدهم ومألوفاتهم بل ودياناتهم ليحل محل ذلك كله جدل لايفتر وشك لايهدأ ، وصراع حاد لايلين ، وكان مونتانى من أبرز هؤلاء — الشكاك فى فرنسا الذى أعاد الى الذهن البشرى عهود زينون الايلى واستاذه بارمنيدس حيث كان كل منهما يحاول زلزلة الحقائق والتشكيك فى الواقع مستخدما فى ذلك منطق العقل وقوانين الفكر ، وبالتالــى كان شكه شك فاهم لما يريد ، انه لايريد سوى الشك .

فلما جاء ديكارت حاول أن يتصدى للشك السائد بمنطق الشــك أيضا ، ولكن هناك فارق إن مونتانى يشك ليهدم ، أما ديكارت فغرضه أن يهدم الشك نفسه ليبنى اليقين ، ولذا قيل عن مقال فى المنهــج لديكارت : انه يعارض قضية هزيمة بقضيــة انتصار ، حين أفلس مونتانــى صاحب الشك المطلق ، وانتهى الى الفراغ والموت والانتهاء فجـــاء ديكارت لينتصر حيث كشف عن الروحيه ، واستعاد يقين الحقيقـــة ، واهتدى إلى الله على طريقتم .

أجل . واجه ديكارت الشك بمنطق الشك ، انه شك فـــي المحسوسات كما شك في المعقولات ، ولم يقف بشكه عند نقطة معينـــة وانما مضى في شكه الى نهايته آملا تحطيم الشك نفسه ، فافتـــرض الشيطان الخبيث الذى يضلله ، وفطن الى أنه يشك في كل شيء ، الا أنه يشك في كل شيء ، وتلك حقيقة انه شك حتى في أنه يشك ، وكـان غرضه بناء اليقين .

وهو بهذا يخالف سانشيه Sanches وأمثاله فقد كـــان سانشيه يردد مقولة غريبة هي كلما ازددت تفكيرا ازددت شكا ، أمـــا ديكارت فيقول : كلما ازددت شكا ازددت تفكيرا فازددت ايمانا بوجودى بل ان ديكارت نفسه يعلن " ماكنت في هذا الشك مقلدا أصحاب الشك المطلق أولئك الذين لايشكون الا لمجرد الشك ، ويتكلفون أن يظلــوا حيارى ، بل أنا على العكس لا أقصد لغير اليقين ، ولغير أن أدع — الأرض الرخوة ، والرمل لكى أجد الصخر والصلصال " (١) .

اذن ظروف عصره هي التي فرضت عليه معالجة هذا النوع مـــن الفلسفة ، حقا كان ديكارت ينشد مبدأ عقليا يرتفع عن كل شك ليقيـــم عليه فلسفته ، فليس من المستحيل عليه اذن أن يجد هذا الأســـاس

---

(١) للمزيد يمكن الرجوع الى د / توفيق الطويل — أسس الفلسفة فـــي ص ٣٢٥ ومابعدها .

في مبدئه اليقيني الأول الكوجيتو Le Cogito وهو القائل : أنا أفكر اذن أنا موجود ، وهو مبدأ يقيني تعلا توصل اليه ديكارت بالحدس وبه أثبت الأنية بالفكر ، ومن ثم استطاع اثبات النقص والكمال حتى انتهى الى أن اثبات وجود الله ضرورة عقلية ، لأنه لابد للكمال من مانح له يكون منزها عن كل نقص وخداع ، وهو الذي وضع العقل فينا ، وهو الضامن لسلامة وصحة معلوماته ، ولن يكون ذلك الا الله .

من ثم . فقد لعبت فلسفة ديكارت على سيرك الأفكار ، وعزفت على أوتار الحاجة الى اليقين أعذب الألحان ، حتى راح صداها يجتاز أوربا كلها ، واستحق ديكارت أن يلقب في أوربا بأنه أبو الفلسفة الحديثة . فما هي معالم فلسفته ؟

ب – معالم فلسفة ديكارت :

فلسفة ديكارت محصورة في نقاط محددة ، لأنه نفسه كان مركزا في تفكيره ، وبالتالي فلا تخرج معالم فلسفته عن أجزاء محددة هي :

أولا : الشك الديكارتي .

ثانيا : المنهج الديكارتي .

ثالثا : اثبات وجود الله عنده .

رابعا : اثبات وجود العالم الخارجي .

خامسا : رأيه في المعرفة والأخلاق .

وسنحاول تقديم المامة عجلى حول هذه الأجزاء حتى تتضح فـــي الأذهان فلسفة ديكارت ومعالمها الرئيسية •

أولا : الشك الديكارتي :

لقد شك ديكارت في المحسوسات ، كما شك في المعقولات ،شك في كل شيء بدءً من حواسه التي يعتمد عليها حتى دينه الذي يعتنقه ، ومابين حواسه ودينه فقد شك الشك كله ، شك في عالمه وعلمه وشك فـــي نفسه وماحوله ، شك حتى في آماله وآلامه ، وذكريات ماضيه وآمال حاضره وربما تسألني لماذا كل هذا الشك ؟ والجواب أنه يريد أن يبنـــــى معلومات يقينية من ثم فلا ريب أنه سوف يشك في كل شيء ، كما أنـــــه افترض وجود شيطان ماكر خبيث قد تسلل اليه في وحدته فألقى في روعـــه ما يعتقد أنه صواب •

ومن يدري لعل الحياة التي نحياها مجرد حلم طويل تتأرجـــح أطيافه أمام أعين الناظرين اليه فيظنونه حقائق وماهي الا خيالات نائـم ان النائم يرى أشياء كثيرة ، ويلمس أشياء أكثر وربما اعتقد أنها حقيقـــة فيفزع من نومه طالبا تفسيرا لرؤياه ، وربما استعذب أحلامه فلم يفق مـــن نومه ، وتمنى لو أن حبل الأحلام طال •

فاذا فرغت أحلامه وفاق من نومه وانفلت خيط الحلم من بين يديـــه أو من بين عينيه تحسر على ذلك النعيم الذي لم يذق منه الا غذيـــة

الرؤى ، وحلاوة الاحلام ، ومن يدرينا أننا في الواقع على الحقيقـــة ألا يمكن أن نكون الآن في دور الحلم ، ونحن لاندرى ؟ اذن شك ديكارت أتخذ مراحل :

المرحلة الأولى : الشك في المعرفة الحسية :

نظر ديكارت الى حواسه فاذا هى خادعة . أليست العين مثـلا تنظر الى الطائرة فتراها فى حجم النملة فاذا هبطت أرض المطار وجدها كالمنزل ، أليست العين اذن خادعة تريك البعيد صغيرا والقريب كبيرا رغم أنه شيء واحد في الحالتين ؟

حاسة اللمس : اليد مثلا تلمس الأشياء ، فتحكم عليها بالصلابـة أو الليونة ، والنعومة أو الخشونة ومع هذا لاتميز اليد بين نعومـة الجسم ونعومة الصابونة ، ولابين خشونة الصوف والحديد المكشـوف انها الخشونة أو النعومة فقط فهل تكون صادقة أم خادعة ، انهـا تنغمس في الماء شتاء كما تنغمس فيه صيفا والماء واحد ومع هذا تشعر اليد به مرة باردا وأخرى حارا ، فهل يمكن التصديق بها .

كذلك حاسة السمع الأصوات القريبة منها تسمعها بتركيز وكلما بعد مصدر الصوت كلما قلت الاستجابة له حتى يتلاشى تماما ، اذن الحواس خادعة وغير مأمونة ولايمكن التصديق بها كمصدر معرفي موثـق

يبلغ درجة اليقين ، فما بالك وديكارت تنشد اليقينَ نفسُه · فهل يصدق الحواس ؟ من ثم نقد شك في كل المعارف الحسية ·

المرحلة الثانية : الشك في المعرفة العقلية :

وقف ديكارت من العقل موقفين متناقضين بحيث لايمكن الجمع بينهما الابشيء من التأني وقليل من الحذر :

الموقف الأول : اهمال العقل والشك في كل معارفه ، انها معارف تمثل خواطر وأفكار وتصورات في نفوس الناس بينما هي في الحقيقة خيالات وأوهام لاوجود لها ، وأبرز مظاهر ذلك التقهقر والتراجع بعد الثبات والتأكيد ·

الموقف الثاني : الترحيب بالعقل ، وبيان أنه أعدل الأشياء قسمة بين الناس · ومن ثم فان معلوماته موثقة ونتائجه مقبولة متى كان العقل صحيحا فأي الموقفين يمكن اعتماده عند ديكارت ؟

لاشك أن ديكارت في الموقف الأول يهمل المعلومات العقلية باعتبار العقل وعاء لها وهذا لا [illegible] من قيمة العقل حتى يعبأ بالمعلومات الصحيحة الموثقة اليقينية ، انه يرى العقل سلة ممتازة تحفظ مايوضع فيها بدقة وتصونه بعناية ، فاذا وضعت فيها تفاحا حافظت عليه واذا وضعت فيها حنظلا صانته بنفس القدر والعناية ·

وطبقا لهذا فهو يحاول تفريغ العقل من المعلومات الخاطئة حتى يتمكن من وضع المعلومات الموثقة المؤكدة ، ومن ثم فهو لايهمل العقل ولايلغيه بل يتمسك به أيما تمسك ، ولذا حينما قرر الشك فى كل شئ حتى فى المعلومات العقلية ، استثنى منها المعلومات الرياضية لأنها موثقة ، والمعلومات الدينية لأن مصدرها الوحى المعصوم ، وطبقا لهذا يمكن فهم موقف ديكارت من العقل الانسانى وهو ماسنزيده حديثا ونشبعه بيانا فى آن آخر ·

المرحلة الثالثة : الشك المطلق فى كل شئ :

وهذه المرحلة تمثل خطورة شديدة ، لأن الشك فى كل شئ — يهدم كل القيم ، ويطيح بكل اليقينيات ، ولكن ديكارت كان من الحذر والحرص الشديدين بمكان ، اذ أنه لم يقرر الشك الا على ناحية واحدة هى الشك فى المعلومات لافى مركز المعلومات وفرق بين الأمرين· وربما عبر هو عن هذه الحقيقة حينما قال : انى أشك فى كل شئ حتى فى انى أشك ، وكونى أشك حقيقة لاأستطيع الفرار منها أو التخفى بعيدا عنها ·

اذن هناك معلومات قائمة لم يلغها شك ديكارت أبرزها :

(١) المعلومات الدينية التى مصدرها الوحى المعصوم ·

(٢) المعلومات الرياضية لأنها بديهية ·

(٣) حقيقة أنه يشك ·

من ثم . اذا قال آحاد المتسرعين ان ديكارت شك في كل شيء وافرغ معلوماته من عقله كما أفرغ سلة التفاح مما فيها ثم بدأ الطريق اليقيني من أوله ، قلنا له ماهي المعلومات التي أخذ يميز بها المعلومات الصادقة من الكاذبة اذن ، ماهي الأسس التي وضعها ليقيم عليها نقد الآراء المطروحة عليه اذن ؟ أظنك تصدقني القول : بأن هذه معلومة غير صواب ، وأن ديكارت احتفظ في ذاكرته بمعلومات ثابتة بها يميز الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، واليقيني من الزائف .

اذن الشك عند ديكارت في كل شيء محتمل وجائز ، لكنه شك ليبني حقائق يثبتها العقل ، ويصدقها الواقع ، لاشك الهدم والخراب والتدمير على ماهو المألوف لدى سوفسطائية اليونان أومونتاني وأمثاله من سوفسطائية العصر الحديث ، واذا كان ديكارت قد انتهى من شكه الى المراحل التي سلف ذكرها ، وفرغ من شكه فلا تثريب عليه أن هو حاول بناء مذهب فلسفي قائم على منهج فكري .

الفرق بين شك ديكارت وشكاك عصره :

هناك فروق عديدة بين شك ديكارت وشك غيره نورد بعضها فيما يلي :

(١) شك ديكارت زعزع الحقائق وزلزل الوقائع ، بينما شك غيره أثبت الفوضى وهز اليقين .

(٢) شك ديكارت كان بمنطق العقل ، بينما شك مونتانى كان قائما على العفوية والتلقائية والسفسطة .

(٣) شك ديكارت كان المقصود منه البناء الحقيقى ، وشك مونتانى يهدم الحقائق لذات الهدم .

(٤) شك ديكارت يعود لما هدمه أو شكك فى وجوده فيقيمه من جديد أو يثبت ما سبق أن أنكره ، أما شك مونتانى فلايعود الى الوراء ، انه شك كالنار المشتعلة تأكل كل ما تقابله ، لافرق عندها بين التبر والتبن ، ولا أشجار الخشب ونباتات الزينة .

(٥) شك ديكارت قائم على عملية نفسية وتفكير منظم يقوم به صاحبه أما شك غيره فهو قائم على مبدأ السخط والسخرية والحط من أقدار الآخرين ، والنظر للأشياء اللامعة البراقة على أنها ظواهر تخفى تحتها الخداع والحديد بدل الذهب وفيروز الشطآن .

وعلى هذا أكتفى بذكر الفوارق بين الشكين تاركا لفارس آخر فرصة التجوال داخل هذه الفلسفة الخصبة آملا أن يفوز منها بنصيب وافر ، أو يعود موفور الصحة والعافية .

ثانيا : المنهج الديكارتى :

ما إن أعلن ديكارت عن منهجه حتى أحدث دويا هائلا فى أوروبا كلها ، وما ذلك الا لأن الناس فقدت الثقة فى الشكاك فلما انكشف أن منهج ديكارت يقوم على دعائم من الدقة فى الخطوات والصدق مع اليقين فى النتائج بجانب التمحيص الفكرى ، انشغل الناس بمنهج ديكارت وتناسوا بيكون وأوهامه الأربعة ، كما تناسوا هوبز وأفكاره التى لم تقبل التطبيق .

ومنهج ديكارت بناه على قواعد أربع رأى فيها كفاية لاقامة هذا النسق الفنى الفريد وهذه القواعد وضع لها مسميات كما وضع لها موضوعات يحسن بنا أن نذكرها مع اعتبارها مراحل متتالية .

القاعدة الأولى : الوضوح العقلى :

مؤدى هذه القاعدة ألا أقبل شيئا على أنه حق مالم أكن واثقا من أنه كذلك ، ولا أدس فى حكمى شيئا زائدا على مايتجلى أمام عقلى فى درجة من الوضوح والتميز يستحيل معها كل مظنة للشك ، انه يرفض قبول أية فكرة واعتبارها صوابا لمجرد أن أحد المشاهير رددها ، أو أنها نسبت الى صادق فى قوله بل واجبه أن يتأكد بنفسه من حقيقة ماذكر ، ثم يستوثق من صحته عن طريق الفحص والتحليل .

ولعلك تسألنى ما المراد بالتحليل هنا ؟ والجواب أن التحليل فى العلوم الطبيعية مختلف عن العلوم النظرية ، وهو هنا يتحدث عن العلوم النظرية وبالتالى يكون المراد بالتحليل هو اعادة الكل الى أجزائه ، ثم محاولة ربط الأجزاء بالأصل حتى يتأكد أن عرى العلاقة بينها قائمة ، وكذا تراه يعلن عدم تأثره بالقرب أو البعد ولايؤثر عنده حسن السمعة أو ذيوع الشهرة فكل ذلك لاقيمة له أمام ديكارت لأنها أمور لادخل لها بالحقيقة التى يبحث عنها .

القاعدة الثانية : التحليل العقلى :

وهى تقوم على أن يرجع طالب الحقيقة الى الأمر الكلى فيوزعه بين جزئياته ، والكل الى أجزائه التى تركب منها ، ثم يفحص كل واحد من تلك الأجزاء فحصا مستقلا كأنه حالة بذاتها ، كما يبحث كل جزء على حدة بنوع من التحليل العقلى الدقيق ، حتى ينتهى الى اليقين فى أن الأجزاء التى تم فحصها هى نفسها جزئيات الكلى ، أو أجزاء الكل ، ولابد أن يكون ذلك بوضوح عقلى كالحال مع التحليل تماما بتمام .

القاعدة الثالثة : التركيب العقلى :

ديكارت قد حلل المركب والكل واستوثق مما حلله ، من ثم تأتى مرحلة أخرى ضرورية لسابقتها ومؤدى هذه القاعدة : أن يقوم بتركيب الأجزاء التى قام بتحليلها فى ضوء ما انتهت اليه قاعدة التحليل العقلى .

ففي سابقتها قام بالتحليل وفي هذه قام بالتركيب وهما عمليتان يكمل أحدهما الثاني ٠

القاعدة الرابعة : المراجعة :

وهذه القاعدة على درجة من الأهمية اذ يتم فيها اعادة الفحص والمراجعة وبالتالي يعود مرة أخرى لما سبق أن قام به على سبيل التأكد من أن كل مرحلة منها استوفت أركانها وبالتالي فديكارت يقرر أن أقوم بعملية استقصاء شاملة تضمن لي أنني لم أغفل شيئا ٠

انه يراجع العمليات التي سلف له القيام بها مراجعة شاملة حتى يتأكد بما لا يقبل الجدل أن جميع خطواته صحيحة ، ولاشك أن ديكارت قد اعتبر هذه القواعد الأربع أساسا للتفكير السليم ، ووسيلة للوصول الى نتائج يقينية ، وقد ألتزم ديكارت بهذا المنهج الفكري في بحثه كليه وفي فلسفته كلها ٠

لكن ماذا يفعل ديكارت لو أن المراجعة انتهت الى أن الظاهرة لها أكثر من سبب وكلها تتم مع المراجعة؟

والجواب : أن ديكارت لجأ الى الحدس وليس المراد بالحدس التخمين انما المراد به عند ديكارت نور فطري يولد الانسان مزودا به ، يمكنه من ادراك الأفكار البسيطة ، والحقائق الثابتة ، والعلاقات بينها ادراكا مباشرا ، وهي مبادئ المعرفة ٠

كما أن الاستنباط العقلى عند ديكارت هو عملية استدلال يقوم بها الذهن لاستنتاج المجهول من المعلوم عن طريق البرهان العقلى وتعتبر النتائج يقينية لازمة عن المقدمات الواضحة .

وبهذه القواعد الأربع يكون ديكارت قد أقام منهجه فى تناول قضايا الفلسفة والمعرفة الانسانية ، واثبات الحقائق المطلقة ، وأن هذا المنهج صار خليقاً بأن يعاد النظر اليه ، وأن يتخطى حدود فرنسا الى ألمانيا وايطاليا . وغيرها من بلاد أوربا حتى تسطع أضواءه اللامعة على دراسة المنهج فى أوربا كلها فيحاول كل بلوغ مآربه ، والاحتماء بالمنهج الديكارتى الذى صار فيما بعد علامة على نضج صاحبه الفكرى ، وتقدمه على غيره فى قبض أفانين المعرفة الانسانية ، وقد امتاز المنهج الديكارتى عن المنهج الأرسطى نفسه بمميزات كبيرة اذكر أهمها :

بين المنهج الديكارتى والمنهج الأرسطى.

فعلاً أمتاز المنهج الديكارتى عن المنهج الأرسطى ، وصار من نافلة القول أن هذه الفروق ميزات فعلية ملموسة وليست نظرية تقوم على الحكاية والظن من هذه الفروق مايلى :

١- المنهج الديكارتى يبدأ فى التفكير بحقائق واضحة متميزة وتحديد الألفاظ بدقة على أساس انطباقها على خصائصها ، وليس على أساس الجنس والفصل كما هو الحال فى المنطق الأرسطى الصورى.

٢ - المنهج الديكارتى لا يؤمن بالتصورات المجردة ، وانما يطالب بالمعانى الواضحة المتمايزة ولذلك لا يكون الا بالشك فى وجود أى شئ حتى يعرف معرفة واضحة تماما .

٣ - المنهج الديكارتى عبارة عن أصل ثابت يؤخذ له العديد من الصور ، فهو يستخدم فى الطبيعيات كما يستخدم فى الرياضيات ويستخدم فى مسائل التاريخ والجغرافيا وليس ذلك بمتوفر فى أى منهج فكرى آخر من المناهج التى سلف ذكرها .

ثالثا : اثبات وجود الله

لم يكن ديكارت ممن يفتقدون الحس الروحانى من الفلاسفة حتى اذا تعرضوا لأمر غيبى قابلوه بالرفض ولو كانت أسمى القضايا - قضية وجود الله - وانما كان ديكارت حريصا على تقديم أدلة جديدة يثبت بها وجود الله لم تكن من مطروحات رجال الدين الكنسى وانما كانت من بنات أفكاره .

ويبدو أن داخله لم يكن على اتفاق مع سلوكيات السلطة الدينية فى فرنسا ، ولعل مشاعر كراهيته لكلية اللاهوت لم يكن بامكانه أن يعلن عنها وبخاصة عندما تقدمت الكلية بطلب الى السلطة الحاكمة مطالبة بالغاء مؤتمر العلماء الذى سلفت الاشارة اليه ، ولذلك عمد ديكارت

الى التعمية ، وابراز مظاهر الولاء لهذه السلطة الدينية فتراه أهدى التأملات الى علماء كلية اللاهوت ذر الللرماد فى العيون الناعسة •

وبالتالى فقد بذل جهدا لتقديم أدلة يثبت بها وجود الله وكان من الحيطة بمكان حتى اذا قوبلت آراؤه بالرفض — وهو موقف محتمل — يستطيع التخلص منها بسرعة شديدة مع سهولة ويسر ، وأبسط طريق للتخلص أن يقال هذه أدلة العقل على وجود الله ونحن نؤمن بأدلة الأناجيل وبالتالى يتهرب من الوقوع تحت ضغط العامة وحكم الغوغاء ونزعة رجال الدين الكنسى المتسلطة ، والأدلة على وجود الله عنده هى :

١ — فكرة اللانهائى : لكل فكرة مدلول خارجى •

٢ — فكرة اللانهائى الكامل : لكل فكرة مصدر يساويها فى الكمال ويزيد عليها •

٣ — النقص والقصور الانسانى •

وسوف نعود لبسط تلك الأدلة فى مكانها ، فكيف سلك ديكارت طريقه ؟

---

(١) د / عبد الرحمن بدوى يراجع المنطق الصورى والرياضى فى المسألة

أ — اثبات وجود النفس الانسانية أولا :

(١)

تطلع ديكارت الى طريق يدلى به الى مطلوبه ، فقرر البحث فى النفس الانسانية أولا ، انه ينظر الى الانسانية فيراها معنى من المعانى لاوجود له الا فى الذهن ، ثم ينظر الى الانسان فيراه جسما ونفسا ، والفرق بينهما كبير هائل ، ولابد من دراسة كل منهما — الجسم والنفس — على حدة ، حتى يرى أيهما الخليق بالحديث معه والاستمرار بل وأيهما أكثر تأثيرا فى الآخر .

(٢)

قرر ديكارت البحث فى جزئى الانسان وابتدأ بالجسم فبان له أن الجسم من العالم الخارجى الذى يقوم فى اثباته على مجرد الحواس وهو قد شك فيها ، فالجسم على هذا أمر موجود وجودا قابلا للطعن عليه .

انه جسم ذو أبعاد وأبعاض ، فيه طول وعرض ، وعمق ومساحة ، وتلك أبعاده ، وفيه يد ورجل وعين وأذن وصدر وأرجل وجذع وتلك أبعاضه ، ثم هذا الجسم يذبل ويكبر كما يضعف ويهرم كما كان طفلا وبالتالى فهذه المواصفات لاتنطبق الا عليه ، ومع هذا احتفظ ديكارت

بطريقة اثبات وجود جسم فى مذكرته الخاصة لحين الانتهاء من اثبات وجود نفسه ، فهل نجح فى هذا ؟

(٣)

وجد ديكارت الانسان جزأين الجسم وقد تحدثت قليلا عنه ، والنفس ولابد له من معالجة موضوعها انه يرى فى داخله عمليات ليست مادية كالحب والبغض ، والتفكير ، والشك ، وهى قطعا لاعلاقة لها بالجسم انها ليست ذات أبعاض أو أبعاد حتى يقال أنها من ذوات الأجسام . اذن هى من نوع آخر انه العمليات النفسية ، اذن هناك نفس بجانب الجسم يتكون منهما الانسان ، لكن كيف يثبت وجود النفس ؟ انه قرر سلفا التسليم بعمليات نفسية ومن هذه العمليات الشك نفسه ، والشك فى حد ذاته فكر وبالتالى وضع المسألة فى قالب منطقى هكذا :

أنا أشك وكل شاك مفكر ، اذن أنا مفكر ، وهذه حقيقة لاتقبل المساومة عليها ، ثم ان الفكر معنى من المعانى ، وعرض من الأعراض فهو يحتاج الى جوهر ، والى محل يقوم به ، لأنه لاتوجد فكرة بدون مفكر ، وبالتالى أنا أفكر ، وطبقا لهذه المعطيات صارت عندنا جملتان ونتيجة .

١ — أنا شاك ، وكل شاك مفكر ، اذن أنا مفكر .

٢ — أنا مفكر ، وكل مفكر موجود ، اذن أنا موجود ٠

٣ — كان لابد من نتيجة لهذا هي أنا أفكر فأنا موجود ٠

بيد أن ديكارت حث على التسليم بأن الشك عملية نفسية وبالتالي فهو موجود ، لأن النفس موجودة والفكر عرض من أعراضها ، فاذا سلمنا أن الشك موجود ، والفكر موجود فلابد من الاصغاء الى أن المفكر نفسه أيضا موجود ، ثم ماذا يفكر في الانسان المكون من جسم ونفس هل الذي يفكر جسم الانسان أم نفسه ، أم بأي شيء آخر يقوم الفكر ولكن ديكارت يسرع فيثبت أن الشك والفكر من عمليات النفس وما دام قد ثبت أن الانسان يفكر فقد ثبت أن له نفسا وأنه موجود ، وأن النفس تقوم بدورها في ممارسة عملية التفكير والشك وسائر صفاتها وبالتالي فهي موجودة قطعا ٠

(٤)

ب — اثبات الجسم ثانيا :

هناك ثنائية في الانسان ، النفس وقد أثبتها عن طريق التأكيد على وجود الشك ، والفكر ، كما أثبتها عن طريق كشف الجسم وأنه يتمتع بأبعاد وأبعاض والقسمة العقلية تقتضي أنه ما دامت في الجسم ثنائية وقد ثبت وجود أحدهما فلاشك أن الثاني ثابت قطعا ، من

ثم فلم يستغرق ديكارت وقتا حتى أثبت الجسم كما أثبت النفس ، وان كان وجود النفس هو المظهر الحقيقي للانسان نفسه ، بينما الجسم من العالم الخارجي .

لكن الذى نهتم به هو أن ديكارت بعد أن أثبت النفس الانسانية وكونها موجودة مجردة وأن مظاهرها بادية ، وصفاتها مميزة ، لجأ بنفس الطريقة فى اثبات وجود النفس الانسانية الى اثبات وجود الله تعالى ، عن طريق عوارض النفس لاذاتياتها ، لأن حقيقة النفس من الكنه والجوهر لايعلمها الا الله سبحانه وتعالى ، اما مظاهرها من الحب والبغض والشك فذلك أمر يدركه ديكارت وأمثاله .

رابعا : أدلته على اثبات الوجود الالهى :

(١)

بعد أن أثبت ديكارت وجود النفس الانسانية وكونها مجردة ولها صفات ذاتية وعوارض مشخصة قال فى نفسه أننى أحس فى ثنايا نفسى بفكرة غاية فى السمو والكمال ، وهذه الفكرة أحس بها ويشاركنى هذا الاحساس أمثالى من المفكرين ، انها فكرة تلح على خاطرى ، وتطرق بعنف وجدانى ولا أستطيع أخفاء الشعور بها والتعبير عنها ، انها قوية وعنيفة وممتدة عملاقة ، لكن ماهى تلك الفكرة ؟

(٢)

الدليل الأول : فكرة اللانهائى :

انها فكرة اللانهائى ، هذه الفكرة ليست موجودة فى الخارج ، وانما فى الذهن ، فى النفس الانسانية اللانهائى فى وجوده ، وفى حياته وعلمه وقدرته ، انها بتعبير آخر فكرة اللامتناهى فى كمالاته الأزلية الأبدية ، ان هذه الفكرة – اللانهائى – احس بها فى نفسى وحيث أن الثابت من الأقوال العلمية هو أن كل فكرة نفسية لها مدلول خارجى ، وعندى فكرة اللانهائى فى ذاكرتى اذن لابد أن يكون اللانهائى موجودا فعلا وجودا حقيقيا يتناسب معه ، باعتبار أن لكل فكرة نفسية مدلول خارجى .

انه لا أول له ولا آخر ، وجوده ذاتى له ، له مالايتناهى من الصفات ، وكل صفاته كمالات ، ولاشك أن هذا الذى لايتناهى ، وكل صفاته كمالات ، وموجود فى ذاكرتى ، وله وجود خارج عنها ، هو صاحب الكمال المطلق وهو الله الذى لاتتناهى كمالاته المقدسة على نحو من الأنحاء .

وهكذا كان الدليل الأول عند ديكارت على اثبات وجود الله هو فكرة اللانهائى على مامر بيانه .

الدليل الثاني : اللانهائي الكامل :

ربما كان هذا الدليل قريبا من سابقه ومؤدى هذا الدليل عند ديكارت هو أن الفكرة الكاملة الشاملة السامية عن اللانهائي لا أستطيع وحدى أن استمدها من نفسى ، أما لماذا ؟ فلأن نفسى متناهية وتتصف بالقصور والعجز بل والنقصان ، وفاقد الشيء لايعطيه كما يقولون ، فكيف تمنحنى نفسى الناقصة شيئا عن الفكرة السامية فكرة وجود اللانهائي ؟

اذن لابد لى من التصديق بوجود موجود أعلى منى ومن كل الآخرين أمثالى ، هذا الموجود السامى الكامل هو الذى قد أوحى الىّ بهذه الفكرة حتما ، ولايجوز أن يكون ناقصا لأن الناقص لايوحى بما هو أكمل منه . من ثم فلابد أن يكون مصدر هذه الفكرة اللانهائية فى نفوسنا هو الكامل المطلق اللانهائي وهو الله سبحانه وتعالى .

ويلاحظ أن ديكارت انطلق فى هذا الدليل من منطق رياضى بحت فى مفرداته ، فلم تسعفه المفردات الرياضية فلجأ الى المصطلحات الفنية ، وذلك يدل على قدرة ديكارت الفنية على توظيف الألفاظ لخدمة القضية التى قرر أن يتحمل تبعاتها بنفسه ، ويبدو أنه كان يحس بشيء من القلق ناحية فكرة اللانهائي فحاول التأكيد عليها حتى تثبت فى أذهان قارئيه .

اذن يمكن القول بأن هذا الدليل — اللانهائى الكامل واللانهائى — فكرتهما واحدة هى اللامتناهى ، ونعنى به اللامتناهى فى صفات السمو والكمال ، ويدعم ماذهبنا اليه القول : بأنه لابد لكل فكرة نفسية مصدر يساويها فى الكمال ·

الفرق بين الدليلين :

ربما تسألنى ان الدليلين قاما على فكرة اللانهائى ، أو اللامتناهى حتى ان المعجول ينظر اليهما على أنهما دليل واحد له أجزاء ، ان صح القول · فما الفرق بين الدليل عندك ؟

والجواب :

ان ديكارت فى الدليل الأول — فكرة اللانهائى — عمد الى اثبات صفات الكمال ، واذ قد ثبتت فلقد كانت قائمة على فكرة ثابتة : هى لكل فكرة نفسية مدلول خارجى يساويها فى الكمال ·

أما فى الدليل الثانى — اللانهائى الكامل — فقامت على أساس أن كل فكرة نفسية لابد أن يكون لها مصدر خارجى ، وليس مدلول كما فى الدليل الأول وهذا المصدر الخارجى لابد له من السمو وعلو الشأن ، ولايساوى اللانهائى الكامل ، الا اللانهائى الكامل وهو الله سبحانه وتعالى ·

وربما يحق لك القول : بأن علماء الرياضة في الكم المنفصل والمتصل يعرفون اللانهائي بأنه ماله أول ولا آخر له ، اذ هو يبدأ بالأرقــــام الحسابية من واحد الى مالانهاية ، اللانهائي الرياضى ، واللــــه لا أول له ولا آخر ، فاستدلاله باللانهائي غير صحيح ، ولايؤدى الـــى النتائج التي بناها عليه .

والجواب : ان المقصود باللانهائى فى الفلسفة هو مجرد الفكـرة ، وليس المصطلح الرياضى ، فلو استبدل لنا لفظ اللانهائى بالمطلق لأدى الغرض ، لكن ديكارت فيلسوف رياضى وبالتالى فمفرداته اللغوية التـــى يعبر بها غالبا ماتسلك تلك المسالك التي يتعامل بها ، وأعنى ألفــاظ اللغة ومفرداتها .

كما أن اللانهائى الرياضى موجود فرضا وليس واقعا ، لأن المعروف أن الأرقام الحسابية مفردات وهمية انتزعها العقل من التجريب الــــى التجريد ، والوهم يجهز التعبير بها مع وضع معان أخرى لها يتأتى بها المطلوب نفسه ، خذ مثلا فكرة الحب ، أو البغض ، وخذ مثلا فكـــرة اللانهائى ، والنهائى أليست كلها مجرد أفكار فى الذهن ؟ ان ديكارت لايستدل الا بمجرد الفكرة وليس المدلول الحرفى الذى يستخدمـــه الرياضيون لمفهوم اللانهائى .

الدليل الثالث : النقص الانسانى ، والكمال الالهى :

تلفت ديكارت حول نفسه والآخرين فلم يجد أحدا كاملا ، بـل ولاديكارت نفسه ، والكمال الذى يقصده هو عدم الاحتياج للآخريـن ان كل عاقل يشعر فى نفسه قصورا أو نقصا ، وكل مفكر يستشعر فـى أعماق نفسه هذا الاحساس المتناهـى ، ويتردد فى صدره ســـؤال مفروض عليه من خارج نفسه لماذا أنا ناقص ؟ والجواب : لأنى محتاج للآخرين ، بل اننى محتاج لأجزاء جسى المركبة ، بل الأكثر مـــن هذا أنى لاأستطيع صيانة نفسى عن الأعراض المتبدلة عليها ، فأنــا اذا جعت لا أشبع من نفسى انما يشبعنى طعام أنا فى حاجة اليه .

— أنا اذا شعرت بالعطش لا أرتوى من نفسى ، انما لابد لى من مرو سواء كان ماء ، أو لبنا أو خلافه اذًا أنا محتاج الى الماء وبدونه أموت .

— أنا محتاج الى الغطاء من البرد فى الشتاء ولايكون الدفء محققا لى من نفسى بل لابد لى من مدفأة وغطاء واق وظروف ملائمة أنـا محتاج اليها .

— الدواء تعترينى أخلاط فى المعدة ، وسائر أجزاء جسى كلـــه ارتفاع الحرارة ، وضغط الدم ، وانخفاضه وأمراض العيون والقلب

وسائر الأمراض التى تنشأ عن أخلاط ضارة أو فيروسات أو ميكروبـــات أرانى أمامها عاجزا عن دفعها وحدى ، ولابد لى من مساعد خارجى يمكنه السيطرة عليها ، تكون العقاقير بالنسبة لى هى الوسيلة المرئية للمعاونة الخارجية ، وهذا كله يؤكد أننى محتاج وناقص ٠

قس على ذلك سائر الأناســـى ، وبما أنى ناقص والكل مـــن أمثالى يعتريهم هذا النقص فلا أشك أن هناك كاملا خالقا عليما خلقنى وخلق غيرى ، ويصون ماخلقه بوسائل يهيىء المخلوقات اليه طبقـــا لتوجيهاته السامية وارادته العالية ولايمكن أن يكون ذلك الكامـــل الا الله ٠

غير أن ديكارت راح يدلل على فكرة النقصان الانسانى مــــرات عدة ، وكانت أسئلته الحائرة أبلغ دليل على تلك المحاولات الديكارتيـة التى لم تقف بصاحبها عند نقطة اللانهائى ، والنقص الذى ربما تعلل البعض بمحاولة دفعه ، ولو من قبيل الجدل ، فقرر ديكارت مناقشـــة النقص الانسانى مرة أخرى ٠

(١)

أ - عجز الانسان عن خلق نفسه :

يعرض ديكارت صورا للنقص الانسانى ومنها عجز الانسان نفســـه

عن خلق نفسه ، يقول ديكارت من أدلة النقص الانسانى أن الانسان لايخلق نفسه أما كيف ؟ فلانى لو خلقت نفسى لمنحتها كل ألوان الكمال ، ان لم امنحها الحظ الأوفى منه ، فهل أنا كامل ، ان النقص يحتوينى من كل ناحية ، اذا أنا لست كاملا ، وما أنى ناقص فلايصح لى الزعم بأنى خلقت نفسى ، وهذا الفرض ثبت بطلانه ، اذا أنا ناقص وعاجز عن خلق نفسى .

هب أن أبى وأمى هما اللذان اشتركا فى خلقى، وهذا الفرض قائم ، لكن أليست فكرة النقص التى احتوتنى هى أيضا التى احتوت أبى وأمى ، ان أبى ناقص لأنه لم يخلق نفسه ، وأمى كذلك لأنها لم تخلق نفسها ، فكيف يتمكن الناقص — أبى وأمى — من خلق الكامل وهو أنا المستقل فى تفكيرى وملامحى عن كل منهما ، ولو كانا قد خلقانى لمنحانى أكبر فرصة من الكمال ، ثم أليس من المعقول أن يقال لو أن : خالق انسان مثلى ناقص ، لكان أولى له وأيسر عليه أن يكمل نفسه أولاً، بدل أن يتجه الى خلق غيره ، أليس ذلك أمرا مشروعا له ، بل واجب عليه ، بل ربما كان من السهل عليه فى هذه الحالة أن يكمل نفسه للمقومات الموجودة عنده ، والرغبة الملحة فى الكمال الذى ينشده ، وحيث لم يقم بهذا الدور — من تكميل نفسه — فقد أعلن أفلاسه .

اذن لم يبق لى من قول الا أننى لم أخلق نفسى ولم يخلقنى غيرى ممن يشتركون معى فى العلة التى أشرت اليها وهى النقصان وانما لابد أن يكون الخالق لنا جميعا ، خالقى وخالقهم كائنا كاملا بعيدا كل البعد عن شوائب النقص ، وشبه القصور ، وهذا الكائن بصفاته التى يجب أن يوصف بها لايكون الا الله سبحانه وتعالى وهذا الاله يتميز بعقل علاقى يمكن اعتباره — الوجود العقلى — دليلا طبيعيا على وجود الله ، وأن العقل الالهى لايختلف عن العقل الانسانى الا كما يختلف اللانهائى الأبدى عن النهائى المحدود ، والكامل التام عن الناقص المحدد .

(٢)

ب — عجزه عن الاحتفاظ بذاته :

ان قضية وجود الله شغلت على الفيلسوف الفرنسى مناح عديدة من تفكيره ، ولذلك فهو يحاول جاهدا تقديم أدلة متنوعة لاثبات هذه القضية الأساسية ، وكما سبق القول ، بعيدا عن مصطلحات الكنيسة ورجال الكهنوت الذين كان يخشى فيهم سطوة الجاهل ، وحماسة الأحمق .

قرر ديكارت أن الانسان لو خلق نفسه ، أو أن أحدا من الناس خلقه لحافظ على حياته ، اذ هى الفرصة الوحيدة لاستمرار هذا

المخلوق ، فلو كان أحد المخلوقين هو الذى خلق الآخرين لدافع عن حياتهم فما بال الأمراض والعلل تعتريهم أنفسهم ، ثم يأتى كأس الموت وان اختلفت طرق وصوله — قاطعا حياة أولئك ، ومنهيا آمال آخرين ، رغم أن الحياة عزيزة ولذيذة وهى الفرصة السانحة الوحيدة .

[illegible] نفسى ، ولم يخلقنى مخلوق مثلى ، والدليل [illegible] من الاحتفاظ لأنفسنا ببقاءها فى الحياة بشكل [illegible] من هذه الناحية واضح جدا ، وان سجلات الوفيات تنقل أخبارها باستمرار وكالات الأنباء المحلية والعالمية بما لا يمكن لأحد أن ينكره أو يتجاهله ، بل من المفارقات أن طبيب القلب الذى كان يعالج الناس منه — يأتيه الموت ويجرع الكأس نفسه فيموت بمرض القلب وهو دليل على عجزه الكامل عن دفع الأذى عن نفسه ، وعدم قدرته على الاحتفاظ بذاته ، وضرب الأمثلة الكثيرة ان كان يفيد العوام ، فمن الإشارة تكفى أهل الأفهام .

وبهذا يكون ديكارت قد خرج من شرح أدلة اثبات وجود النفس ، وصارت لديه ثلاثة كلها حقائق لا مفر من تقريرها ، والتسليم بوجودها ، أو قل على سبيل الاختصار ، صارت لديه حقيقتان اثنتان لا مفر من تقرير وجودهما على النحو الذى أوردناه ، وأنهما موجودتان مع اختلاف مفهوم الوجود فى كل منهما وضعا .

الحقيقة الأولى : اثبات وجود النفس الانسانية وكونها مجردة ومستقلة عن الجسم .

الحقيقة الثانية : اثبات وجود الله بكل ماله من صفات الجلال والكمال .

لكن بقيت بعد ذلك حقائق كثيرة ينظر اليها ديكارت بعين واعية لقد أعمل فيها من قبل معول الهدم وصارت حطاما ينظر اليه بأسى فاذا هي جذور مجتثة ، ورماد تذروه الرياح ومن تلك الحقائق العالم الخارجي ، فهل يوفق ديكارت في خطواته القادمة ، لاثبات شيء من هذه الحقائق ، التي منها العالم الخارجي ، أو يضع لبنة قوية في هذا البناء المتصدع المنهار ، هذا ماسوف نعرفه أثناء الحديث عن اثباته العالم الخارجي ، فكيف أثبته ؟

رابعا : كيف أثبت ديكارت وجود العالم الخارجي ؟

عرفنا كيف غلف ديكارت شكه بخلاف شفيق ، وأنه بدأ بعد الشك يتلمس اعادة بناء الحقائق من جديد ، وأنه وجد ذلك في الدعائم المنطقية والدلائل العقلية ، وأنه حاول اعادة الثقة لتلك الحقائق وأثبت أن فيها يقينا ، مهما كانت نسبته ، واستخدم المنطق الشخصي الذي ابتدأه بعبارته الشهيرة : أنا أفكر فأنا موجود .

(٢)

وأدركنا أنه أثبت وجود النفس أولا ثم بدأ ينطلق منهما ليثبت

وجود الله ، ولمحنا أنه أجهد فكره ليقدم أدلة على وجود الله ، وأنه ساق لهذه الغاية السامية ثلاثة أدلة مختلفة ، لكن بقيت أمامه نقطة مهمة تتعلق بجسمه نفسه وأجسام الآخرين ، انه قرر قبل ذلك اعتبار جسمه من العالم الخارجي والسؤال الآن . كيف أثبت أن هناك عالما خارجيا ، وأنه على نحو ماتدركه الحواس ، ويحكم بوجوده العقل ؟

والجواب : أن ديكارت في هذه النقطة ربما كان مخالفا لمنهجه ، ولكن تلمس المعاذير له يوحي بأن الرجل خطا هذه الخطوة — اثبات وجود العالم الخارجي — بناء على قاعدة ثابتة عنده ، وهي الثقة بوجود الله . الذي كان قضيته الأساسية ، والتي أثبتها بأكثر من دليل . اذن اثبات وجود العالم الخارجي سلك له ديكارت مراحل عدة .

(٣)

مراحل اثبات وجود العالم عنده :

المرحلة الأولى : اثبات أن وجود الله حقيقة راسخة لايرقى اليها الشك أبدا .

المرحلة الثانية : اثبات صفات الخالق ، القادر العليم وكافة الصفات التي تليق بالله .

المرحلة الثالثة : اثبات أن الله خلق للانسان حواسه ليستخدمهما ،

العين لترى ، واليد لتبطش ، والقدم لتسعى والعقل
ليفكر به ويدرك ماخلق الله من أشياء .

المرحلة الرابعة : اثبات أنه عن طريق حواس الانسان وعقله يتمكن
الانسان من تكوين صورة واضحة عن العالم الخارجي
الذى يدركه والذى يتوهمه .

المرحلة الخامسة : اثبات أن الله هو الذى خلق الانسان وحواسه
وطريقة عملها وهو صادق لايكذب ، كامل لايخدع
وبالتالى فان الأدوات التى خلقها الله للانسان
كالادراك وغيره لاتكون كاذبة أبدا ، لأنها صفة
الله والكذب مستحيل عليه فلابد أن يكون ماتدلى به
الحواس كالادراك مثلا صادقا وصحيحا .

(٤)

وطبقا لهذا الذى انتهى اليه قرر انه متى ادرك المفكر أن له
جسما خارجيا ، فلابد أن يكون الأمر كذلك ، وأن يكون العالم
الخارجى موجودا فعلا .
انى أدرك أن هذا المكتب صلب ، فلابد أن يكون المكتب فعلا متسما
بالصلابة متى أدركها فيه ، لأن ادراكى صحيح والضامن لصحته هو
الذى خلقه وهو الله .

انه يقرر امكانية ادراك كل أجزاء العالم الخارجي وجزئياته لأنه

وثق من أمر مهم وهو أن الله الذى زوده بتلك الأدوات وألهمه التعرف

على العالم الخارجي صادق ، وضامن لصحة أفكارنا ، وسلامة ادراكنا

وبالتالي فكل ما يدركه من العالم الخارجي هو ادراك صحيح فعلا .

(٥)

لعلك لاحظت معى أن ديكارت سلك مسلكا منطقيا متسلسلا ، انه

عن :

— طريق الخطوة الأولى أثبت وجود نفسه .

— وعن طريق الخطوة الثانية : أثبت وجود الله .

— وعن طريق الخطوة الثالثة : أثبت وجود العالم الخارجي .

أنها عملية تسلسل منطقي قاد لها ديكارت بنفسه حتى يخرج المتأمل

من دائرة الشك المطبقة عليه بظلماتها الكثيفة الى نور اليقين ، من الشك

فى كل شئ الى اليقين الثابت الذى انطلق بعده فى اثبات الحقائق

بشكل جيد ومتوازن .

(٦)

وربما تسألنى أن الحواس مختلفة بحكم قوتها وضعفها ، وسلامتها

وعللها ، كما أن الاجتهادات الشخصية متفاوتة ، وطبقا لهذا فلا تكون

معارفنا على درجة واحدة ، وانما لابد فيها من التفاوت بحكم تفاوتنا

نحن فى الثقافة والخواص وتكوين المعارف : فكيف اعتبره ديكارت دليلا لاثبات العالم الخارجى ؟

والجواب : أجل اننا نتفاوت فى عمليات الادراك والاجتهادات، ولكن ديكارت تسلم القاسم المشترك ثم أخذ يقرأ أكثر ، ويجرب أكثر ثم يجرب ماقرأ ، وكان عليه أن يفكر كثيرا ويقرأ أكثر ويجرب ، طبقا لمنهجه فى بناء اليقين ، وبالتالى فقد نجح ديكارت الى حد ما فى الوصول الى مقصده .

ان ديكارت عول — فى اثبات العالم الخارجى — على مظاهر العالم الخارجى فقط ، واعتبر ما نحسه من تلك المظاهر حقائق ثابتة لأن الله أسمى من أن يوقع النفس الانسانية فى الخطأ ، وبمعنى آخر بأن ديكارت يعتقد أن الله تعالى أوحى الى النفوس المختلفة بوجود حقائق فى الكون مختلفة ، وهذا الاعتقاد عند ديكارت بوجود الحقائق المختلفة فى الكون قد حل محل الشك بل أنه أزاح الشك تماما ، ولذلك كانت للتطبيق فى ذهن ديكارت صورة خاصة تمثل العالم الكائن أمامه بشكل متفق مع أفكاره ويسير مع منهجه .

صورة الطبيعة فى ناظره :

الطبيعة فى نظر ديكارت تمثل صورة العالم المادى ، ولذلك فهو يرى وجود قسمة ثلاثية تبدو الأشياء الطبيعية فيها ممثلة للعالم المادى ، فهو يتحدث عن هذه الثلاثية على النحو التالى :

القسم الأول : الأجسام المادية المتماسكة ــ الكتل

وهي تمثل المظهر المادى للطبيعة ذاتها ، انها عبارة عن كتل متماسكة وهى تبدو فى المتماسكات مثل المكتب والكرسى والبـــاب ، والعمارات وخلافه من الجمادات ، وكل هذه متى تجاوزت الـــذرات فقد صارت كتلا ٠

القسم الثانى : الذرات التى أضعفها الاحتكاك

وهى عبارة عن ذرات صغيرة ودقيقة ، ومن الممكن أن تكون فـــى الأصل أجساما مادية ولكن الاحتكاك المستمر بها وفيما بينها حولهـــا من الضخامة الى الصغر ، ومن التماسك الى التفرق ويبدو أن ديكارت يعتبر كل الماديات التى فوق الذرات كتلا ٠

القسم الثالث : الهباء أو الأثير :

يرى ديكارت أن الهباء أو الأثير هو مادة لطيفة ، بل هى الطف الماديات وهى متماسكة الأجزاء وهى عند ديكارت العنصر الأول أعنــى الأثير ، ثم ان المادة متسعة ممتدة فى كل مكان بحيث لا يوجد مكـــان للخلاء أبدا ، أنه يرى منع الخلاء مطلقا ٠

لكن اذا أردنا ترتيب هذه الأقسام ترتيبا تصاعديا فان علينـــا أن نساير ديكارت فى طريقه وهو أن الأثير يمثل العنصر الأول منهـــا ، وعنه نشأت النار والنجوم ، كما يرى العنصر الثانى وهو الذرات التـــى أضعفها الاحتكاك وقد نشأ عنها الهواء ، أما العنصر الثالث وهـــو الكتل فيرى ديكارت أنها العنصر الثالث الذى نشأت عنه الأجســـام السائلة والصلبة وهو ممتد فى كل مكان ، ان الخلاء بالنسبة لديكـارت

مستحيل وكل مايتعلق بالمادة لا يخرج عن هذه المظاهر الثلاثة ، ان المادة منتشرة فى كل مكان ، وكل مافى الكون هو صور للمادة ومظاهر ليس الا .

(١)

لكن ما موقفه من فكرتى الخلاء والملاء ؟

ان ديكارت يؤمن بالملاء ، ويرفض الخلاء ، ان فكرة الخلاء بالنسبة له تعبير فيه من السذاجة والتناقض ما فيه ، أما لماذا ؟ فلأن الخلاء مجرد تصور ذهنى لا وجود له فى العالم الطبيعى ، فاذا قلت لماذا ؟

كان الجواب : أنه ما من خلاء الا وهو فى مكان ما ، والمكان نفسه مادة ، اذن الخلاء مستحيل وتعبير متناقض ، أما الملاء فانه واقع حقيقى ، وبالتالى يكون ديكارت من أنصار القول بالملاء ومن خصوم القول بالخلاء .

(٢)

لكن اذا كان الكون — العالم الخارجى — مادة كله فكيف يدار من وجهة نظر ديكارت ؟

والجواب أن ديكارت عقلية رياضية ، وقوانين الحركة فى العلوم الطبيعية أمر مقرر اذن ، فهناك قوانين ثابتة تسمى قوانين الحركة ، وهى التى تتولى توجيه المادة التى يمثلها الملاء كله ، اذ المعلوم أن كمية الحركة فى الكون ثابتة وهى فى ذات الوقت لا تنقص ولا تزيد ، وكل جسم من الأجسام — بناء على قوانين الحركة — يحتفظ بوضعه ، وتصدر

عنه حركة خاصة به ، في الليل والنهار ، والضوء والظلمة ، فـــي النوم واليقظة وأن هذه الحركة توجه المادة على الشكل الثابت فـــي قوانين الحركة .

اذن العالم من وجهه ما هو الا كتلة متماسكة قابلة للانقسام الـى ذرات صغيرة ربما لا متناهية في الدقة والصغر ، ولقد كانت لديكارت أفكار ثابتة عن العالم بثها في كتابه " العالم " الذى لم ينشـــر الا بعد وفاته تفاديا للأثر الذى سوف يخلفه لو عرف به رجال السلـــك الكهنـوتي .

(٣)

من قوانين الحركة عند ديكارت

اذا كانت الحركة في الكون ثابتة من حيث المقدار ، ولها قوانين مرتبطة متلازمة وفي نفس الوقت قوانين صارمة لا تقبل الاستثناء ، فمـا هي القوانين التي استعملها ديكارت بصور حديثة عن العالم الطبيعي والمـادة ؟

والجواب : أن ديكارت ذكر من قوانين الحركة ما يلي :

١ — القانون الأول : بقاء المادة

وهذا المبدأ كيميائي يقوم على أن المادة باقية ، وأن كمية الحركة محددة ، وأنها لا تزيد ولا تنقص .

٢ — القانون الثاني : مبدأ القصور الذاتي

وهو من مبادئ الميكانيكا ومؤداه أن كل جسم له وضع معيـن لا

يغيره ، الا اذا طرأ عليه طارئ فمثلا كرة موضوعة على مكان ما ، فانها تظل فى هذا المكان حتى تأتى قوة أخرى تدفع تلك الكرة تقدما أو تأخرا ، وهكذا فان المقياس الحقيقى للحركة فى هذا الكون هو مقياس آلى ليس الا .

(٤)

كان الناس فى الماضى يتصورون الأشياء ثابتة فاذا تحركت سألوا عن سبب الحركة : أما ديكارت فقد حاول اثبات أن الحركة هى الأصل وأن حركة الكون دائمة ، انها الحركة المنتظمة — الميكانيكا . كل شئ لابد له من سبب ، وكل سبب لابد له من سمة معينة ، ولكى يتأكد من تحقيق الألية فى السلوك قام ديكارت نفسه بتشريح بعض الحيوانات حاول تحديد مكان المخيلة والذاكرة فى الحيوان ، ثم استطاع تعليل السلوك الحيوانى ، وأرجعه الى جهازى المخ والقلب ، وحث المشرح أن يتبين ما عرف عن حيوان ما مستقبلا ، أو درس بدقة الظروف المحيطة به .

(٥)

اذن مبدأ التصور الذاتى يفسره ديكارت بشكل آلى جدا ، ليس فى الحيوان وحده ، وانما الانسان نفسه يخضع لهذا السلوك الآلى فى نظر ديكارت ، فالانسان يرى ويسمع ، ويتذوق ويلمس ويشم والحواس كلها تنقل الصور الخاصة بالأشياء ، وفى نفس الوقت تحدث عملية داخلية فى نفس الانسان ، فالقلب يدفع الدم ، فيندفع الدم حارا ، وكلما ابتعد عن مصدر الدفع — القلب — كلما قلت الحرارة فيه حتى يصل فى النهاية الى المخ .

فى المخ هذا المركز القوى ، يتكون الروح الحيوانى - حسب تسمية ديكارت له - هذا الروح الحيوانى يراه ديكارت شبيها بالمهندس الأعظم الذى يشرف على أعضاء الجسم كلها ، وقد أثبت العلم الحديث أن مخ الانسان يوجد به حوالى ٩٦ ألف مليون خلية ، كل خلية يخرج منها نسيج عصبى يغذى جزء من أطراف الجسم كله ، بحيث اذا فسدت خلية مخية تقابلها شلل فى الجزء الذى يعتمد عليها .

(٦)

بهذه الطريقة الآلية يرى ديكارت أن غرائز الانسان وعواطفه ومعارفه تتكون بنفس الطريقة الآلية القائمة على مبدأ التصور الذاتى ، لأنها تستقبل ما تنقله الحواس فتحدث هذه الحركة الداخلية فتتكون الروح الحيوانية ، ثم ترسل هذه الروح وحيها وتوجيهها الى الأعضاء فتتكون الأفكار والمعارف على النحو الذى يكشف لنا موقف ديكارت من المعرفة الانسانية .

خامسا : رأيه فى المعرفة الانسانية :

يرى ديكارت أن المعرفة أصلها الادراك ، والادراك قائم على الفكر ولذا راح يقدم تصوره عن الفكر الانسانى حتى اذا خلص من الحديث عنه لجأ الى ذكر المعارف المترتبة عليه ، وقد سبق القول بأن ديكارت شك

فى المعارف الانسانية كلها ، من حسية ، وعقلية وغيرها ، وأنه راح يعيد بناءها على شكل يقينى بطريق جديد ٠

لكنه هنا يتناول الأفكار الانسانية — أو المعارف الانسانية — ، فيقسمها الى تقسيمات متعددة باعتبارات مختلفة :

التقسيم الأول للأفكار : باعتبار الوضوح وعدمه :

أ — أفكار واضحة كاملة ٠

يرى ديكارت أن الأفكار التى يزدحم بها الذهن الانسانى لاتكون كلها فى الذهن بدرجة واحدة ، بل منها أفكار واضحة ماتزال حية ، أفكار يستطيع صاحبها أن يدونها كاملة اذا طلب منه تدوينها ، انها ماتزال على أول عهده بها ، وضوحا وبيانا ، ولنضرب مثالا : بيانات وثيقة الميلاد ، يتعامل بها الانسان غالبا وبالتالى فكل بياناتها عنده واضحة ، وبالتالى فهذه أفكار واضحة ٠

مثال آخر : عنوان المنزل الذى تقيم فيه يمثل بالنسبة لك أفكارا واضحة وفى ذات الوقت كاملة ، فهل تجهل عنوانك ، أما عنوان زميل تراه قليلا على فترات متباعدة فلاشك أنه يمثل أفكارا منقوصة ليست واضحة وطبقا لهذا انطلق ديكارت يحدد كافة الأفكار الواضحة ويجعلها فى قوائم احصائية تقريبا للأفهام ٠

ب — أفكار غير واضحة "ناقصة" :

اذا كان القسم الأول هو الأفكار الواضحة وقد تحدث عنها الا أنه هـهنا يتناول قسيم الأول فيكشف عن وجود أفكار غامضة ناقصة لا شيء فيها من الوضوح ، ولذلك فهو يسميها أفكارا ناقصة أو غير واضحة .

خذ مثالا : فكرة دينية تحدثت عن رؤس الشياطين ، وأنه نوع من ثمار شجرة الزقوم ، وأن أهل النار لاطعام لهم الا من شجرة الزقوم التى طلعها كأنه رؤس الشياطين .. أجل عندك فكرة عن رؤس الشياطين لكن اذا قال لك صغير صف لى رؤس الشياطين فحتما ستعجز عن الاجابة على سؤال الصبى ، لأن فكرتك عن رؤس الشياطين ناقصة ، انها مجرد فكرة سمعتها من واعظ جيد ذات مرة ، أو خطيب مفوه فى جمعة ، أو عالم متقن نمرت عليك ، ومررت عليها .

هذه المسألة ببساطة شديدة تكون بالنسبة لك فكرة ناقصة غير واضحة ، وان كانت بالنسبة لغيرك غاية الوضوح والبيان وبخاصة لو أن الصبى هو ابن العالم الذى يجيد الحديث عن الأمور الدينية ، فاذا قال له ابنه ماهى رؤس الشياطين ؟

قال الوالد يابنى : ان الله يصور عذاب أهل النار وطعامهم بصورة رديئة مخيفة أنها مرة المذاق مخيفة فى شكلها العام ، ولهذا يابنى قال الله تعالى : " انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم .

طلعها كأنه رؤس الشياطين ، فانهم لآكلون منها فمالئون منهـــا البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ".

يابنى ان هذا الطعام غريب فى كافة أشكاله ، وسوف لايأكله الا أهل النار ، فالله يخوفهم به قبل أن يأتى موعده لعلهم الى اللـــه يتـوبـون ، وعن أعمالهم الفاسدة يتخلون ، كمن يقول لولده والتشبيه مع الفارق : ان فعلت ضلالا فلسوف أفعل بك مالم تتوقعه ، فيظل الابن خائفا مما لم يتوقعه .

هذه الأفكار على هذا النحو يراها ديكارت ناقصة غير واضحـــة ، وهى فى حد ذاتها لايمكن الاعتماد عليها كمصدر معرفى يقينى ، وان كانت من المصادر المعاونة لكنها على أية حال لاتخلو من فحص لهـــا وتدقيق لمحتوياتها ومراجعة شاملة لكل ماينطوى فيها ، ذلك هـــو التقسيم الأول للأفكار عند ديكارت من حيث الوضوح وعدمه ، فماذا عــن التقسيم الثانى للأفكار عنده .

التقسيم الثانى : باعتبار مصدرها :

يرى ديكارت أن كل فكرة لها مصدر ، هذا المصدر قد يصاحـــب الفكرة زمانا طـويلا ، وقد يكون زمانا قصيرا ، وقد يكون فطريا وقد يكـون مكتسبا ، وبالتالى قسم ديكارت الأفكار بهذا الاعتبار الى :

(١) أفكار فطريـــــة :

وهي الأفكار التي خلقنا الله بها مركوزة في طبائعنا لاتحتـاج الى تعلم ومهارة ، وانما نمارسها بشكل تلقائي تماما ، أنها أفكـار صادقة وصحيحة ، وهي في ذات الوقت تمثل المبدأ الحقيقي الـذي يكون وعاء لاكتساب المعلومات المكتسبة ، ثم انها لفطريتها تنشـــأ عنها أفكار صحيحة ومعلومات ومعارف يقينية ، لأن مصدرها الفطـرة ، والفطرة صادقة دائما .

(٢) أفكار كوناها بأنفسنا — أفكار شعبية :

هذه الأفكار نحن أحرار في اختيارها كانشاء فكرة الغول مثـــلا والعنقاء ، فان هذه أفكار كـوناها بأنفسنا ، ورسمنا صورتها بأفكارنـا الأساسية ، ولذلك خلعنا عليها من الأوصاف ما أمكننا أن نخلعه .

(٣) أفكار مكتسبة :

وهي أفكار نستمدها من العالم المحيط بنا عن طريق الحواس التي تنقل الى الذهن صور الموجودات ، وعن طريق العقل الذي يجاهــد في سبيل التغلب عليها والوصول اليها ، وربما كانت المعارف التجريبية والمنطقية وغيرها من هذا النوع المكتسب ، ولذا فان الصدق في هـذا النوع من المعرفة يتوقف في حقيقته على مطابقته لحقائق العالم الخارجي المحيطة به من عدمه .

بل ان جميع المدركات الحسية ، تدخل تحت هذا النوع •

وأعنى به المعرفة المكتسبة.خذ مثلا معرفة أن المثلث عبارة عن شكل هندسي محاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة ، وأن مجموع زواياه = ٢ ق ، لاشك أن هذه معرفة مكتسبة بدليل أنك لو صادفت يافعا لم يدرس الهندسة وسألته عن تعريف المثلث أو مساحته فلاشك أنه سوف يجيب بالنفي ، وماذلك الا لأنه لم يكتسب هذا اللون من المعرفة •

(١)

لعلكم لاحظتم معى أننا تعرضنا لأقسام ثلاثة حين تناولنا الأفكار من حيث المصدر ، وبان لنا أن القسم الأول وهو الأفكار الفطرية ، لاصلة لنا به ، ولاحيلة لنا فيه ، انه أفكار فطرية جبلنا عليها ، كما لاحظتم أن القسم الثانى ، وهو الأفكار التى كوناها بأنفسنا ونحن أحرار فيها أمر داخلى بحت حيث أن كل انسان حر وفى استطاعته أن يكون من الأفكار مايشاء •

ولعله قد بان لكم • أن القسم الثالث • وهو الأفكار المكتسبة مقصورة علينا وحدنا ، لكن هناك شرط ضرورى لابد منه وهو مطابقة الفكرة للواقع سواء حصلت هذه المطابقة عن طريق التجربة كما هو الحال

فى العلوم التجريبية ، أو عن طريق القراءة الموثقة ، أو عن طريق السماع الصادق ، بشرط أن تكون خطوات الطريق موافقة للمنهج الديكارتى ، كما يرى ديكارت أن أعظم طريق لاكتساب معرفة يقينية فى العلوم التجريبية هو التجربة وحدها .

(٢)

* موقفه من علماء الطبيعة والفلك :

لم يقف ديكارت عند حد التفكير وانما بدأ حملة عنيفة على علماء الطبيعة والفلك واتهمهم بأنهم مجرد هواة اجتمعوا على قراءة أفكار الآخرين ، وبالتالى فهم يكتفون بالقراءة ولايعيرون التجربة انتباهها ولذا طالبهم ديكارت بانشاء معامل اختراع ، وآلات تساعد العالم على اجراء تجاربه حتى يصل الى ايجاد حلول قوية لمشاكل الكون الطبيعية .

ان ديكارت رفض العالم الراوية الذى لاهم له غير مطالعة ماانتجته عقول الآخرين ، ان جهاز التسجيل فى هذه الحالة يكون أفضل منه ألف مرة ، ويبدو أن هذه الحملة العنيفة التى قادها ديكارت على المنتسبين لعلوم الطبيعة والفلك لاقت بعض القبول لدى خصومهم ، فاعتبروا توجيه ديكارت فتوى علمية واجبة النفاذ ، واستخدموها سلاحا يرفعونه فى وجه المنتسبين الى العلوم الطبيعية والفلك ، مما حرك

مشاعر هؤلاء الدفينة فانطلقوا الى المعامل بدل المقاعد ، والــــى الابتكار بدل التكرار ٠

(٣)

* موقفه من القياس العقلي :

ظن بعض هواة النقل العجلى أن ديكارت بأفكاره التجريبية يرفض القياس العقلي ، ويهمله اهمالا ذريعا ، وهم ليسوا على صواب أمـــا لماذا ؟ فلأن ديكارت اعتبر القياس العقلي أحد وسائل المعرفـــــة الانسانية ، انه يستعمله في الاستقراء الناقص فكيف يهمله ، لكنهم لـــم يفطنوا الى أن قياس ديكارت العقلي يختلف عن قياس أرسطو الصـــورى وأن ديكارت حين هاجم القياس قصد القياس الصورى النظرى ، الـــذى لايهتم الا بتسليم الخصم للمقدمات ولو خالفت نتائجه البدهيات ٠

فاذا قلت مثلا : الشمس تجرى ، وكل جار ماء ، لزم القول بـــأن الشمس ماء ، فهل يقبل عقل ما هذه النتيجة ، ان ديكارت طالـــب أصحاب المنطق الصورى بتعديل اوضاعهم حتى يكون الأمر على مطابقـــة الواقع وتصديق التجربة القوية ، لاعلى تسليم الخصم الضعيف ، وكرامة المقدمات المتهاوية ، ولذلك وجدنا فروقا كثيرة بين منطق أرسطو ومنطق ديكارت ٠

(٤)

الفرق بين قياس ديكارت وقياس أرسطو :

(١) قياس أرسطو يعتمد على تسليم الخصم للمقدمات ، حتى وان لم تكن هذه المقدمات في الواقع صحيحة ، المهم فقط مجرد التسليم من الخصم بالمقدمات حتى تلزمه النتائج .

أما قياس ديكارت فانه يعتمد على مقدمات مطابقة للواقع وتصدقها التجربة ، انه يطالب بأقيسة عقلية يؤمن هو شخصيا بسلامتها ، ولذلك فهو أحيانا يضطر الى تمحيص مقدماته ، ويبحث في كل واحدة على حدة حتى يصل الى أنها سليمة ، ويستعين على ذلك بالتجربة ، وهذا مفيد في تقدم العلوم بكافة أشكالها .

(٢) قياس أرسطو قياس فنان ، لا يعنيه الا مشاعره التي تتلاشى حينا وتعظم أخرى ، أما قياس ديكارت فهو قياس عالم ، خبر التجربة واعتبر ما يقدمه قاعدة عامة للانسانية كلها مادامت قد لجأت الى التجربة ، والفرق كبير .

(٣) قياس أرسطو قياس شعرى . فاذا كان القول السائد — أعذب الشعر أكذبه — قولا مقبولا ، فان قياس أرسطو قد حظى من هذا الجانب بكثير ، خذ مثلا هذا المثال : أطيب الطعام الجبن

وكل جبن مهلكة ترى النتيجة اللازمة له أطيب الطعام مهلكة ،
فأين هذا من الواقع ، ولما حاول المناطقة الصوريون وضع
شروطهم حتى ينجو منطقهم من مثل هذه المخالفات ، لم
يهتموا بالواقع سواء فى جانب المطابقة أو التجربة ، وانما كان
كل همهم ترميم ماتصدع من بناء فكرى أغريقى فى جانبه المنطقى
الشكلى ، ولن ينفع داء حتى يعيد الـهَرَم الطاعن الى
شبابه القديم .

أما قياس ديكارت فقياس عالم . والفرق بين العالم والشاعر كبير
انه قياس لايخوض فى الوحل ، انه يعتمد على صدق المقدمات
مع الواقع ، وتصديق التجربة للمقدمة انه يتخذ خطوات عدة حتى
يسلم بنتائجه التى لو لم يؤمن بها كان مخالفا للضرورة العقلية
خذ مثلا : مبدأ القصور الذاتى ، وحاول تطبيقه على جهاز
تلفزيون . سيظل الجهاز صامتا ينتظرك تزيل حواجز صمته فاذا
أدرته لن يتوقف الا اذا فاجأه عطل آخر ، طبق هذا على كل
التلفزيونات ستراها حقيقة واقعة ، فيها الصدق والقابلية لاعادة
التجربة ، قس على ذلك كافة الأمور المتعلقة بالقياس العقلى .

(٤) قياس أرسطو معقد ، فيه أشكال أربعة وضروب متعددة ، وفيه
رد بأكثر من طريق . أما قياس ديكارت فلبنه الحدس العقلى

الذى يحكم به مباشرة ، والحدس العقلى عند ديكارت عبارة عن نور فطرى ، كما يقول هو بنفسه : أنا أفكر فأنا موجود ، هذا قياس لايحتاج الى رد وتعب ، لاشروط معقدة فيه ، ولاغموض فى صياغته بل مقدماته ونتائجه فيها تلازم يقربه كل عاقل من نفسه .

(٥)

ان منطق أرسطو فى هذه الناحية ربما كان أكثر دقة من منطق ديكارت ، أما كيف ؟ فلأ فى مثال ديكارت السابق : أنا أفكر فأنا موجود — تقدم لنتائج ضخمة بمقدمة واحدة ، اذن قياس ديكارت قام على مقدمة ونتيجة ، وربما كان القفز من المقدمة الواحدة الى النتيجة غير مأمون العواقب ، لأن المنازعة ربما قامت بين المقدمة أنا أفكر ، وبين النتيجة اذا أنا موجود منازعة فى احداهما ، وبالتالى فلاتثبت الثانية ، لأنه اذا طعن على احداهما انصب الطعن على الأخرى ، ويلزم اثبات كل منهما بضرورة اثبات الأخرى وفى هذا دور بارز ، والدور باطل .

أما عند أرسطو فالمسألة أكثر دقة انه يقرر فى المثال نفسه : أنا أفكر ، وكل مفكر موجود ، اذا أنا موجود ، وبالتالى فالطعن على احدى المقدمات يمكن دفعه ولاينال النتيجة سوء فمثلا : اذا

قال أنا أفكر وكل مفكر موجود : ونازعه منازع فقال ليس كل مفكـــر موجود ، فمنع صاحب المثال الطعن على كبرى القياس فقد حمـل الخصم عبء اثبات النفي الذى مال اليه · بينما النتيجة ماتـزال قائمة ومسلمة · من هنا كان قياس أرسطو فى هذه النقطـــــة — التعقيد وعدمه — أكثر دقة من قياس ديكارت ·

(٥) قياس أرسطو جدلى ، والجدل باب سهم فيه ، والمنازعة تنال منه عناية كبيرة ، أما قياس ديكارت فقياس ميتافيزيقى طبيعى ، لأنه يهتم فقط بالنواحى الطبيعية ، ومطابقة الفكرة للواقع المعـاش من كافة نواحيه ، هناك مسألة أخرى أشير اليها هى أن أرسطـو كفيلسوف فسر ظاهرة التغير فى الكون بارجاعه الى فكرة التقـاء الصورة بالمادة ، وهى ماتزال غامضة كفكرة ، وفسر الحركـــة باسنادها الى قوى خفية غيبية وقوانين غير معروفة ، وهى فكـرة ماتزال غامضة فى الفكر اليونانى ، أما ديكارت فقد حاول تفـادى هذا الغموض القائم حول تفسير ظاهرة التغير الدائم فى العالـم الخارجى ، ونادى بضرورة تحكيم التجربة المباشرة فى المسألـة ، وأعنى بها تفسير الظواهر الطبيعية ، وربما كان ذلك راجعا لما فـى طبيعة ديكارت العلمية وممارسته العلوم الرياضية ·

وربما تراني أسرفت القول وابتعدت عن تقسيم الأفكار ، ولكن هذا

شأن المحاضرات العلمية التى ترتجل فتستدرج الأفكار المحاضر الـــى حيث اللآلئ والأصداف ، وربما غالبت الريح القوية القارب والمجـداف فلنعد الى تقسيم الأفكار ٠

(٦)

التقسيم الثالث : باعتبار طبيعة الأفكار ودلالتها :

وهذا التقسيم عند ديكارت ربما أراد به التفرقة بين الأفعـــــال الانسانية ، ولكنه لجأ اليها كناحية معرفية ، لأنه خص الأخلاق بحديث مستقل فلامانع من أن يستدرك هناك ما أشار اليه هنا ، ولذا نراه يقسم الأفكار من ناحية طبيعتها ودلالتها الى أقسام ٠

(١) الأفكار الارادية الفاعلة :

وهذه الأفكار عنده تمثل علة ، فمثلا : عندما ترى طعاما معينـا ، وتشم رائحة ذكية ، فانك فى هذه الحال تلجأ الى تكوين معان وترتسـم فى ذهنك فكرة معينة عن مصدر الطعام ، وتلك فكرة ادراكية ، فـــاذا نزعت الى تناول الطعام وهمت اليه ، وبدأت فى تناوله فلاشك أنهـــا فكرة ارادية ٠ من ثم فان الأفكار الارادية علة فاعلة لما تقوم به عن ارادة حرة قوية ٠

٢ — الأفكار الادراكية المنفعلة القابلة :

وهذه الأفكار الادراكية تمثل صورة للعواطف : انها تعبير حسى عن الداخل الملتهب ·

خذ مثلا : سيارة قادمة بسرعة يقودها فتى ناعم الأظافر ، والطريق ملتو وأنت فى مقابلة مع السيارة وسائقها الأرعن ، فماذا أنت فاعل ؟

لاشك أنك ستدرك بعواطفك رغبتك فى الحياة ، كما سيقفز الى ذهنك أن هذا الفتى متهور ، ولذلك سترى فى نفسك رغبة قوية وعاطفة شديدة لتفادى هذا الموقف المفاجئ ·

تلك أفكار ادراكية منفعلة بالموقف قابلة للتأثير المباشر ، والتعديل السريع ، هممت للهرب من هذا الموقف المخيف وانطلقت تعدو نحو الرصيف فلاشك أن هذه أفكار ارادية ، فالعدو ارادة كان بالامكان الارتداد الى الخلف أو القفز الى الأمام ، أو الهرب الى أحد الجانبين وهذه كلها أفكار ارادية فاعلة على ما يراه ديكارت ·

بهذا نكون قد عرضنا لموقفه من الأفكار ورأيه فيها لكن ما العمل اذا وقع خلاف حاد بين الأفكار الادراكية والأفكار الارادية ؟ بمعنى ماذا يفعل ديكارت اذا حدث صراع بين الادراك والارادة ، صراع بين العقل — الارادة — وبين العاطفة — الادراك — ؟ هذا ما سوف نلتفت اليه

عند موقف ديكارت من الأخلاق فلنذهب سويا اليه .

لكن لابد من الاشارة الجادة الى أن فلسفة ديكارت في المعرفة الانسانية استخدمت وسيلتين واعتبرتهما حقيقة ثابتة وهما :

١ — الحدس

٢ — القياس العقلي

أما الحدس ، فهو النور الالهي والغريزة الفطرية التي يستطيع المرء بها أن يدرك الفكرة الضرورية البسيطة ، ككون الكل أكبر من الجزء ، وكفكرة الامتداد للمادة ، والانتظام للحركة والحقائق الثابتة التي لا مجال للجدل حولها مثل أنا أفكر فأنا موجود ، محمد انسان فهو فان .

كما أن هذا الحدس يدرك العلاقات الواضحة القائمة بين قضية وأخرى فيها البرهنة ظاهرة كقولك أ ، ب مساويان لـ ب ، أ ، ومحمد مساو لخليل ، وكل ما كان من هذا القبيل من العلاقات الواضحة بين القضايا ، هذا عن الحدس .

أما عن القياس العقلي كوسيلة معرفية ، فان ديكارت يراه عبارة عن اثبات قضية أية قضية بواسطة المبادئ العامة التي تترتب عليها ، وتلك مسألة مهمة نالت من ديكارت جهدا كبيرا وعناية أكبر .

موقفه من الأخلاق

عبث الشكاك بمقدرات الناس وقيمتهم ، كما عبثوا بأخلاقهم وأفكارهم

من ثم رأى ديكارت في نفسه رغبة ملحة لتناول الجانب الأخلاقي في الانسان نفسه ، وحتى لا يستهلك وقت قارئه فقد لخص الأخلاق في جملة قصيرة هي : سيطرة العقل على العاطفة :

ان ديكارت قد أطلعنا على أن الادراك مسألة غاية في التسرع والاندفاع ، وأنه لابد لهذه من ضابط يحكمها ، وبالتالي رأى أن هذا الحاكم لا يكون الا الارادة القوية ، ثم افترض وجود نزاع بين الادراكية المنفعلة ، وبين الارادية الفاعلة ، وانتدب من نفسه حكما بين الطرفين فقال : اذا استطاع الانسان أن يحكّم في عواطفه عقله ، ويكبل غرائزه بارادته ، ويكبح جماح شهواته بأمر من معقولاته كانت أخلاقه كاملة .

أما اذا حدث العكس فتحكمت عواطفه في ارادته ، وساقته عواطفه الى غرائزه بحيث تصرفه عن الأخلاق وصار جحيما ، أو قل : صار شهوانيا .

والحق أن هذه المسألة الأخلاقية بهذا الفصل الديكارتي فيها نوع من القلق والاضطراب انه يصور العواطف والارادة في ميدان عام بعيد كل البعد عن الجسم نفسه ، وتلك محاولة غير موفقة .

وربما كان ذلك راجع الى تأثر ديكارت بفصله بين الجسم والنفس ، اذ المعروف أنه في القرن السابع عشر فرق ديكارت بين النفس والجسم تفرقة حاسمة ، حيث اعتبر جوهر النفس قائما في التفكير وحده ، أو الشعور

واعتبر جوهر الجسم قائما فى الامتداد الذى يشغل حيزا من الفـــراغ ، وساعد هذا على جعل الظواهر المادية موضوعا لعلم الطبيعة ، والظواهر العقلية أو الشعورية موضوعا لعلم النفس الحديث حتى صار موضوع علـــم النفس هو دراسة الشعور بعد أن كان يدرس ماهية النفس وكنه العقل (١)

ولكن هذا لا يمنع من توجيه نقد قوى الى ديكارت مؤداه اذا كنت قد فصلت بين الجسم والنفس الى هذا الحد ، ورأيت وجود ثنائية قائمة ومستدة بين الجسم والنفس ، وأحدثت استقلالا بين كل منهما فكيف يتـــم الاتصال بينهما اذن ، انك أقمت سورا رهيبا وحاجزا قويا بين النفـــس والجسم فكيف يتصل كل منهما بالآخر ، وتلك مسألة ضرورية .

ويبدو أن ديكارت شعر بهذا النقد اللاذع أو استشعره فحـــــاول تقديم تقرير فسيولوجى عن علاقة الجسم بالنفس يقدم هذا التقرير علـــى أساس أن الجسم يؤثر فى النفس عن طريق الحواس التى تنقل الصور اليها والنفس تؤثر فى الجسم عن طريق الغـــدة الصنوبرية الموجودة فى مؤخرة المخ التى تتلقى وحى الارادة فتنقله الى الجوارح والأعصاب .

بيد أن تصور ديكارت عن الغـــدة الصنوبرية كان رهين موقفـــه ، ولكن ديكارت يواجه صعوبات جمة فى ثنايا فلسفته التى امتدت وتشعبـــت وصارت بحق فى حاجة الى من يعيد النظر فى نتائجها حسب امكانيـــات

(١) راجع أسس الفلسفة وتوفيق الطويل ص ٩٩ وما بعدها .

العصر وظروفه الملائمة ٠

وبعد ، فقد تبين أن ديكارت قدم فلسفة خصبة وفيها ثراء ، بحث في الشك ومحصه ، وبحث في الطبيعة وقوانين الحركة ، كما بحث في المعرفة الانسانية ، وقرر أن المعرفة تحتاج الى التجارب العملية ورأيناه يدفع بالقياس العقلي الى دائرة الاستدلال ٠

كما الممحنا اليه يدير دفة الحوار مع الأخلاق الانسانية حتى ينتهي الى أن الأخلاق السامية تكمن في سيطرة الارادة الفاعلة على العواطف المنفعلة التي تكوّن داخل أنفسنا الأشياء المختلفة ، ثم أكد على أنه متى نجحت الارادة الانسانية في السيطرة على العواطف ، أو نجحت الأفكار الارادية على الادراكية وتمكنت من كبح جماح سعارها العاطفي تمكنت من قيادة السلوك الانساني الى معارج الفضل ومنازل الفضيلة ٠

كما رأينا ديكارت يضع قانونا يميز بين العمل الأخلاقي من ناحية خيريته أو شريته ، ويفرق بين الفعل الالهي ، والأخلاقي والملائكي والشيطاني ويقدم لذلك في عبارات ضيقة أحيانا وفضفاضة في أخرى ٠

لكن بقيت مسألة نحن بحاجة اليها ، وأعترف أن هذا الرجل قبل قراءته كان يمثل هرما في فكري غير أني لما تناولت حياته الشخصية ورأيت منه استباحة الاتصال الجنسي الذي مارسه حتى تم الحمل عن غير الطرق

الشرعية ، ورأيت أغلب آرائه قد نقلها عن غيره ، أعيد الاعتراف بأنَّ أسهم الرجل قد انخفضت في بورصة أفكارى العلمية ، حتى أن بعضها صار يمثل شيكا بدون رصيد ·

لذا أراني مضطرا الى مناقشة فلسفته على وجه التفصيل حتى اكشف عن الوجه الحقيقى للرجل · ولكن ظروف الصحة وضغط العمل ، وبما حالا دون اتمام كل المشروع الآن على الأقل ، من ثم سأحاول مناقشة فلسفته بالقدر الذى يسمح به الوقت ، وتعين عليه الصحة ، والله خير الناصرين·

((الخاطـــــر الســـــابع))

(مناقشـة فلســـفة ديكـــــــارت)

تمهيـــد :

(١)

لعلكم تلاحظون أننى اعتبرت مناقشة فلسفة ديكارت خاطرا مستقلا ، على غير المألوف مع من سبقه من فلاسفة ، ولعلكم تتساءلون لماذا ؟

والجواب : أن فلسفة ديكارت قد امتدت لتشمل أمورا كثيرة ، وأنها من الثراء والرواء بمايفرض على من يتولى دراستها أن يفصل بين عــــرض للفلسفة ومناقشته لها فصلا تاما بحيث يكون العرض مثلا لفكرة ديكـارت من غير تدخل فيها ، وتكون المناقشة مثلة لتقيم تلك الفلسفة وبيـــــان قيمتها الفنية أن كانت لها قيمة ، وأثرها فى غيرها ان كان لها أثر يذكر .

(٢)

اذن بعد الرحلة الطويلة مع فلسفة ديكارت السريعة فى تنـــــاول قضاياها ، بقى أن نذكر حصيلة ماوصلنا اليه فى الحكم له أو عليـــــه ، والحقيقة التى تبدو سافرة هى أن هناك جوانب كثيرة تستحق المناقشـــــة وأخرى تستوجب التعديل .

فديكارت تناول موضوعات شتى ، وله اضافات كثيرة ربما اعتبرت هائلة فى بعض الأحيان وخافتة فى بعضها الآخر ، وبخاصة فى الفلسفة الأوربية التى كانت على أمل انتظار فيلسوف كديكارت والمعروف أنه كلما كان محصول الفيلسوف الفكرى كبيرا كلما كانت وقفات المناقشة معه أكبر .

بيد أني سأسلك مع الرجل وفلسفته في المناقشة مسلكا يقوم علـــى

أمرين هما :

(١) مايتعلق بديكارت نفســـه .

(٢) ما يتعلـــق بفلســـفته .

وربما تسألني لماذا تتناول الرجل رغم أن المطلوب فلسفته ؟

والجواب : أن سيرة الرجل الذاتية كشفت جوانب كثيرة عن داخله وأعماقه

وكان لها أثر على فكره ، وبالتالي كان من الضروري تقييم هذا الجانـــب

الشخصي في الرجل نفسه ، اذ ليس من المعقول أن أترك هذا الأثـــر

الذاتي وأتعلق بالآثار الاضافية ، بل الواجب وضع الأمرين في الاعتبـــار

فربما كانت فلسفته متأثرة بنشأته ومسلكه الشخصي وبيئته التي نما فيهـــا

وترعرع .

(٣)

الأمر الأول : مسلكه الشخصي : مايتعلق بديكارت :

تابعنا بشغف حياة ديكارت ، وعرفنا كيف تقلبت به من اليتم والعدم

الى الجاه والنعم ، وطالعنا رحلاته وأسفاره ، وربما لم يكن في مســـلكه

الشخصي مايراه ديكارت قمينـــا باخفائه ، كما أن الدارسين له ربمـــا

حرصوا على سرد هذه السيرة من غير أن توقفـــهم فصولها ، ولكنا نلاحظ

مايلـــي :

١ — الرغبة والتمنع :

كان لنشأته يتيم الأم أثر على سلوكياته نحو المرأة ، فهو يتعلق بها أيما تعلق حتى أنه ليسمح بالاتصال الجنسي بها من طريق غير مشروع ، استردادا لحنان مفقود ، واشباعا لنزعة طفولية لم يقدر لها أن تنعم بحنان الأم ودفء الأسرة ، ثم هو في ذات الوقت يتمنع عليها فتطلبه الملكة لتعليمها ويرى الفرصة سانحة للتعبير القوى ، والرفض العنيف لسطوة المرأة وسلطانها ، وبهذا يستجيب لنداء داخلي وسطوة وجدانية ترسبت في أعماقه أثناء التحاقه بمدرسة الآباء اليسوعيين والتي كان الراهبات فيها يمثلن سلطانا وجبروتا لاحد له ، فلما دعته الملكة أولا رفض كنوع من الاحساس بالاضطهاد الذي تجب مقاومته ، فلما طلبته ثانية وألحت عليه وافق ، وبين الأمرين مسافة نفسية تحتاج الى تحليل طويل •

٢ — أثر اليسوعيين على تفكيره الديني :

ألحق الفتى بمدرسة الآباء اليسوعيين في لافلشن ، وهي مدرسة ذات طابع لاهوتي صارم ، بحيث يقف التلميذ من الدين المسيحي موقف التلقين فقط ، مما يجعل رهبة الدين في النفوس لاتقاوم ، كما جعل جبروت رجال الكهنوت سورا عاليا لايمكن لأحد تخطيه أو محاولة تجاوزه • ولذا نرى ديكارت وهو العنيف الذي ماهاب أحدا ، يحني هامه لعلماء

كلية اللاهوت ، ويقدم تأملاته اهداء لهم ، وهو فى قمة نجاحاته ، كما أنه حاول تجنب الدين من تطبيق منهجه عليه .

٣ — عدم الموائمة بين أخلاقه الشخصية والأخلاق التى دعا اليها :

انه كتب عن الأخلاق مطالبا بسيطرة الارادة على العاطفة ، وطالب الناس الالتزام بها ، بينما يقف هو سليب الارادة فاتر العاطفة حتى يسمح لنفسه بمعاشرة الساقطات والتردد على مواخير الفساد ، وانفاق ما بقى له من صحة ، فى تعاطى المنبهات التى أثرت على جهازه العصبى ومكنت المرض القديم — السعال — من فرضه سلطانه على رئتيه ، حتى وجد السل فرصة سانحة فى جسمه الهزيل فلم يهملها .

٤ — الاعتداد المقوت :

(١)

ربما لايلتفت كثير من الناس الى أن ديكارت كان الكبر فى داخله يفرض سلطانه عليه ، حتى أنه تجاهل أصدقاءه القدامى من زملاء الدراسة الذين وقفت بهم ظروف الحياة عند نقطة أقل من موقف ديكارت ، بل ولم يعد يذكرهم وفى نفس الوقت كان يتطلع الى إحداث صداقة بين المشهورين من زعماء الفكر ، بل انه راح يراسلهم ويتلقى الرسائل ويقوم بالرد عليها .

(٢)

أضف الى ذلك اهماله الرد على توماس هوبز ، واعتزازه بنفسه الى الحد الذى قرر فيه أنه لو فكر فى الرد على اعتراضات هوبز لأعطى الردود

أكثر مما تستحق ، انه يهمل هوبز وهو صاحب المذهب الذرى ، ويهمل اعتراضاته على كتاب ديكارت التأملات ، بل ويعلن فى تحد صارخ أن هوبز واعتراضاته لايستحقان الرد ، وأظنك قد لاحظت أن هذه المسألة نوع من الغرور بلا مبرر .

(٣)

حين مرض استدعت الملكة أطباء لعلاجه ، فلما أرادوا تحليل دمه لمعرفة مرضه بدقة رفض بحجة واهية قالها بنفسه : " أنا لا أحب أن يراق الدم الفرنسى على أرض السويد " ففى عبارته اعلان صريح بأن ديكارت مريض بالعنصرية التى اجتاحت داخله ، فماذا يتم لو أن نقطة من دمه وضعت فى مختبر حتى يتمكن الأطباء من معالجة حالته ؟ لكنه الغرور والاندفاع والتعصب الذى راح ضحيتهم ديكارت نفسه .

(٤)

حينما أشرف على الموت ورأى أنه حتما هالك ، وطلب اليه اختيار مدفن بأرض السويد ، كان رده لا أحب أن يوضع رفاتى فى غير فرنسا ، ولما سئل فى هذا قال : ان دمى ذكى ، وتراب بلدى ذكى ، ولا أرضى أن يوضع رفاتى فى غير بلدى ، ولئن كانت العبارة يمكن حملها على أنها نوع من الاعتزاز بالنفس والتمسك بالوطنية ، الا أنها تنم عن داخل شغيف يوحى بعنصرية كاذبة .

ان ديكارت صاحب تجربة بل هو صاحب مذهب تجريبى ، ويعلم قبل غيره أن المعمل لايفرق فى تجاربه بين الناس على أساس اللون أو الجنس بل ولا الثقافة ، انه يميز بين أنواع الدم ليس الا ، ومع هذا خالف ديكارت منهجه البحثى الذى أوقف شطرا من عمره يبنى فيه ويشيد .

٥ — الجبن المقنع :

رأى ديكارت فساد الساسة ، وخراب السلطة الدينية ، ومع هذا لم تتحرك مشاعره حتى يولى السياسة بعض اهتمام ، وماذلك الا لايثاره السلامة ، وأن ينعم بالأمن ، يحيا ماشاء له الأمر فى سلام ، لذا لم يتقدم ديكارت مرة واحدة نحو الفساد السياسى فيعمل على اصلاحه أو الفساد الدينى فينبه على فساده ، بل على العكس كان يلاين هؤلاء ويصانع أولئك ، قانعا بأنها لون من الشجاعة واستخدام المنهج الأمثل فى أن يترك السياسة لأهلها وأهل الدين لأمرهم .

بل أنه لشدة خوفه من أن تكون مؤلفاته قد أغضبت قسا ، أو لمزت لسلطة أمير فقد كان يعرض مؤلفاته العلمية قبل نشرها على أصدقائه الذين يتوسم فيهم أمانة النقد ، وسلامة الصدر ، وحساسية الموقف ، فلما ألف كتابه ونصحه أصدقاؤه بعدم نشره ، لم يتردد رغم ثقته فى أن مابه من معلومات على درجة من اليقين ، ولم ينشر الكتاب — العالم — الا بعد وفاة ديكارت نفسه .

على أن هذا الجانب — مسلكه الشخصى — أخشى ان استرسلت فيه أن يتولد لدى القارىء أو السامع شعور بأن خلافا فى الرأى نشب بيننا وليس الأمر كذلك ، كما أهاب أن يغطى هذا النقد — القائم على المسلك الشخصى — على مناقشة الأمور الجوهرية من فلسفته وبخاصة لدى أصحاب الأفكار السطحية الذين يتحدثون كثيرا ، ويكتبون قليلا ويزعمون لأنفسهم مالا تدلى به امكانياتهم ، وهم الى الوراقين أقرب من المفكرين ، والى الناقلين أقرب من المبدعين ، فيقف فريقهم عند القشور ، أو يدافع عن دفين ليس له مكان إلا فى القبور ، فلنذهب الى مناقشة فلسفته .

الأمر الثانى : مناقشة فلسفة ديكارت :

لا شك أننا عرضنا الجوانب العديدة فى فلسفة ديكارت ، لكن تبقى لنا معه وقفات نحاول معا اعادة النظر فى العمل الفلسفى نفسه لنلاحظ هل أخلص ديكارت لفلسفته بالقدر الذى نادى به ، وهل تمكن من اشادة تلك الفلسفة على سياق منهجى — بالشكل الذى دعا اليه ؟ ثم ماهى جوانب الغموض التى نراها بحاجة الى توضيح ، ذلك ماسوف نصنعه ههنا ، فلنبدأ بمناقشة الفلسفة الديكارتية فى نقاط معينة .

النقطة الأولى : فكرة الشك الديكارتى :

ان أول نقطة فى فلسفة ديكارت تستوقف الناقد المحلل هى فكرة الشك عنده ، ان ديكارت أعلن شكه فى كل شىء حتى فى نفسه ، وتلك

مسألة غير مسلمة ، لأنه حين بدأ في اثبات الأشياء ، على هذا النحو يكون قد بدأ من فراغ ، لأنه سبق له أن ألقى بكل معلوماته في أتون الشك بحيث لم تبق فكرة الا وهي في الشك ملقاة .

ونحن نقول : انك قد ألقيت بكل معلوماتك على الأرض ولا تقبل أن تضع في نفسك أية فكرة الا بعد الفحص والتمحيص ، ثم تأتي وتقول أن هنالك فكرة اللامتناهي فمن أين أتيت بها ؟ وكيف أثبتها ، وما هي الأدوات الفنية خارج معلوماتك التي وقفت بها بين الأفكار محاولا التمييز كيف تستطيع أن توفق بين الفراغ النفسي ، والقاء كل معلوماتك على الأرض تشبيها بتفاح السلة ، وبين زعمك بوجود فكرة اللامتناهي ؟ ان ديكارت يواجه في هذه المسألة اشكالات عديدة ، وكل اجاباته حولها لاتخرج عن الجدل ، وربما عن لك أن تسألني . ألم يكن الشك سمة العصر ، وأيضا الاشكالات العويصة كانت طبيعة المسائل المعروضة ؟

والجواب : ان هناك سمات لعصر ديكارت ، وسمات للمدارس الفكرية في عصره والفرق كبير ، وألفت نظرك الى أن المدارس الشكية في عصره انحصرت في نوعين :

المدرسة الأولى : أصحاب نظرية الشك :

هذه المدرسة غايتها الشك ، والأساس الذي قامت عليه هو الشك ، وهؤلاء قديما يمثلهم السوفسطائية ومنهم بارمنيدس ، وزينون ، هؤلاء شكوا

فى كل الحقائق ، شكوا فى كل المعارف ، وهم فى العصر الأغريقى كانوا كثرة ، غير أن هؤلاء مثلهم فى عصر ديكارت وفى محيط فرنسا كل من مونتانى وسانشيه من شكاك العصر الحديث ، وهم جميعا اعتبروا الشك نظرية من نظرياتهم تستوجب الشك فى كل شئ ، والغاية عندهم منه الهدم لا البناء . وكان ديكارت بشكه المنهجى حربا شعواء عليهم قوضت دعائم الشك عندهم .

المدرسة الثانية : أصحاب منهج الشك :

وهذه المدرسة أتخذت الشك منهجا فنيا ، منهج تثبت به اليقين ، الشك عندهم منهج منظم ، وعملية عقلية ، انه وسيلة البلوغ للحقائق الثابتة واليقين الصادق وليس الشك عندهم غاية ، والفرق بين المدرستين واضح وكبير ، وكان الشك الديكارتى منهجيا ينطبق عليه مايقال : ان الشك أساس المعرفة ، ومدرسة الحقيقة ، ووسيلة اليقين ، وربما كان الامام الغزالى أسبق الناس الى اصطناع هذا المنهج الذى عرفته أوربا فيما بعد .

الشك المنهجى بين الغزالى وديكارت :

ان الشك المنهجى مسألة يشترك فيها الامام الغزالى كما يشترك فيها ديكارت ، بل ان هناك أوجه شبه بين الشك المنهجى عند الرجلين وحيث ان الامام الغزالى قد سبق ديكارت وجودا فلاشك أن هناك استحالة أن

يتأثر الغزالي بديكارت ، وان كانت مسألة تأثر ديكارت بالغزالي ماتـزال مطروحة للبحث وادلة الاثبات أقوى فيها من شبهات النفي ، لكن ماالفرق بين شك الرجلين ؟

الجواب : من وجوه :

الأول : ان الغزالي خرج من شكه الى اليقين عن طريق العناية الالهيـة حيث أن الغزالي بقي في خضم الشك تتقاذفه لجاته هنا وهناك حتـى انتشلته العناية الالهية بنور قذفه الله في قلبه .

أما ديكارت : فقد خرج من شكه الى اليقين عن طريق النظر والتأمل والاستنتاج العقلي الذي دخل اليه حر الارادة وخرج به منطلق التفكير .

الثاني : انك ان سألت الامام الغزالي كيف خرج من شكه ، وماالـذي عاناه فيه ؟ كان جوابه : من ذاق عرف ومن حرم انحرف ، انه لايستطيع رسم طريق الدخول الى الشك أو الخروج منه .

أما ديكارت فان باستطاعته أن يشرح لك كيف دخل الى ميدان شـكه ، وكيف خرج منه ، بل انه يستطيع تدبـر ذلك الطريق وتكرار التجربة .

الثالث : ان الامام الغزالي لم يكن واعيا في شكه من أوله الى منتهاه كل ما يمكنه قوله أنه ترك نفسه للعناية الالهية في تسليم مطلق واستسلام لايقوى على فعل غيره ، وكان المخلص له هو النور الذي قذفه الله في قلبه عـن طريق الالهام .

أما ديكارت ، فقد كان واعيا فى شكه طول الطريق ، يستطيع تعديل مساره بنفسه ، ويمكنه ترك نقطة ثم العودة اليها أنه يقبض على شكه بيديه ويحكم زمام شكه بفكره .

الرابع : شك الغزالى من نوع خاص غير قابل للتجربة ، انه تجربة ذاتية قواعدها خاصة ، ومراحله آنية ونمارسها ليست له خبرة .

أما ديكارت فقد رسم منهجا للشك ، وكان واعيا لمراحله ، جعل التجربة المحك والقواعد اشارات الخطر التى لا يجب تجاوزها والا وقعت الكوارث ، ومن ثم كان طريقه غير طريق الامام الغزالى .

الخامس : الامام الغزالى لخص تجربته فى الشك على سبيل السيرة الذاتية والأحداث الخاصة ، وذلك فى كتابه "المنقذ من الضلال" ، وتعرف من حديثه أنه شك فى كل شىء لا بارادته وأنه وصل الى اليقين لا بارادته أيضا انما بنور الهى .

أما ديكارت فقد لخص تجربته فى كتابه "مقال فى المنهج" ، وذكر القواعد الأربع التى تعتبر طريقة تمحيص المعارف ، وطالب الناس/اذا رغبوا فى أن تكون معارفهم يقينية/من سلوك هذا الطريق واستخدام نفس المنهج الذى بدا مشوقا وجديدا فى آن واحد .

تبقى مسألة التأثير والتأثر :

انها حقا قائمة وأوجه التشابه لايمكن انكارها وفى تقديرى أن المسألة عبارة عن حديقتين تجاورتا أحداهما تؤتى ثمارها من زمن طويل وثانيتهما حديثة النشأة ثمارها صغيرة ونباتها فج ألقى الريح بعض ثمار الأولى الى أرض الثانية فصاحب التجربة يقطع بأن هذه الثمار ألقتها الريح وليست انتاج الحديقة حديثة النشأة لعدم ملائمة الثمار لها ٠

أما صاحب التجربة البسيطة أو خالى التجربة فانه يتعجل الحكم بأن هذه ثمار الحديقة لأنها وجدت فى أرضها وبين ثنايا أشجارها ولا عبرة عنده بشدة الريح ، وضخامة شجر الأولى وامتدادها حتى تجاوز حدود الثانية أنه يتعجل لايقرأ على مهل ، ولايفحص انكاره بمنهج ديكارت ولعلك قد فهمت ما أعنيه ٠

<u>النقطة الثانية</u> : المنهج الديكارتى :

(١)

أجل ٠ المنهج الديكارتى له بريق بجانب أنه أحدث فى أوربا كلها دويا هائلا سواء كان ذلك فى الأوساط الفلسفية أو غيرها ، ممن رأت فى منهج ديكارت وسيلة انقاذ فكرى لما تلاقيه من سطوة الشك ، وبهلوانية السوفسطائية ٠ فكان له أثره الايجابى فى توجيه الحياة الفكرية نحو مسار صحيح ٠ لكن هل خرج المنهج الديكارتى عن فكرة الأوهام الأربعة التى مثلت فى فلسفة فرنسيس بيكون الجانب السلبى من فلسفته ؟

الحق أن أوهام بيكون كانت تمهيدا واضحا شيد ديكارت على أنقاضه منهجه بقواعده الأربع غير أن ديكارت نظر اليها نظرة أخرى واستطاع توظيفها بشكل ايجابي بدل أن كان بيكون يوظفها بشكل سلبي الغرض منه تخليص الناس مما علق بأذهانهم من أوهام الجنس ، والكهف والسوق والمسرح •

(٢)

على أنا لانجد حرجا من القول بأن ديكارت لم يأت بجديد على نحو مطلق في منهجه الفلسفي ، وانما توجد مادة منهجه في الفكر الاسلامي ، وبخاصة في جانبه التفسيري والعقدي معا ، أما كيف ؟ فلأن المنهج الديكارتي عند تطبيق قواعده يتضح وجه الاقتباس من الفكر الاسلامي لامجرد التشابه في الأفكار ، ان مادة منهجه موجودة في القرآن الكريم وبشكل قوي وبارز وهو ماسوف أطلعكم عليه •

ربما طاف بذاكرتكم سؤال في غير موطنه • هل القرآن الكريم كتاب نظريات ؟

والجواب : ان القرآن الكريم ليس كتاب نظريات مشهورة تعرف بقوانينها وأبوابها ، لكن الكثير من النظريات والقوانين المدنية الحديثة والمعاصرة نجد مادتها في القرآن الكريم ، وتظهر عند تناولها بشكل جيد ، ومنهج ديكارت بقواعده الأربع يمكن تلمسه من مواقف المفكرين المسلمين في اثبات صفة الوحدانية لله تعالى •

(٣)

ويأخذنا العجب والاعجاب حين نجد قواعد المنهج الديكارتـــي متناثرة فى القرآن الكريم تجلو للناس أصول المنهج الفكرى الذى يجـب عليهم أن يتبعوه ، ولو حاولنا استعراض الآيات القرآنية ومحاولة استنباط قواعد المنهج الديكارتى منها فربما طال الوقت ولكنا سنحاول الاشـــارة مع ذكر نموذج تطبيقى .

خذ مثلا : خواتيم سورة الحشر ، وهى قوله تعالى : " هو الله الـذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة . هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبـر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسـما ء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والارض وهو العزيز الحكيم " (١) وحـاول أن تقيم نوعا من التطبيق بين النقل المنزل وبين المنهج الديكارتى فسوف ترى وجوها عديدة للمطابقة .

(١) قررت الآيات القرآنية الكمال الالهى فى كافة نواحيه حتى بات مـن المؤكد أنها صارت فى وضوح عقلى لايمكن انكارها أو التخلى عنها أو الشك فيها ، وهى قاعدة الوضوح العقلى عند ديكارت .

---

(١) سورة الحشـر الآيات رقم ٢٢/٢٤

(٢) ذكرت الآيات القرآنية الصفات الالهية التى تمثل الكمال الالهى واحدة واحدة ، الملك القدوس ، السلام .. الى آخر الصفات الالهية وهى قاعدة التحليل العقلى ، انها حللت الكمال الالهى الى مفرداته وهى صفاته الأزلية وهى مسألة التحليل العقلى عند ديكارت ، ان الآيات القرآنية حللت الكمال الالهى الى عناصره الأساسية التى يتألف منها .

(٣) ثم ان الآيات القرآنية أعادت التحليل الى التركيب " له الأسماء الحسنى " فأكدت أن هذه الأسماء الحسنى هى التى اذا حللت الى مفرداتها كانت الصفات الالهية واحدة واحدة ، واذا أعيد تركيبها كانت هى الأسماء الحسنى على وجه الاجمال ، وهى عند ديكارت قاعدة التركيب العقلى .

(٤) كما أن الآيات القرآنية أبرزت المراجعة الشاملة وأن أسماءه الحسنى وصفاته العظمى قادت الناس الى عقيدة ثابتة غردت بها كافة المخلوقات العلوية والسفلية ، الأرضية والسماوية ، قال تعالى : "يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم " ، وهى بعينها قاعدة المراجعة فى المنهج الديكارتى .

(٤)

وربما تقول أن ديكارت لم يعرف القرآن الكريم ، فأقول أن علماء المسلمين قد تناولوا المسألة بوضوح أثناء حديثهم عن صفات الكمال الالهى لله تعالى .

خذ مثلا : اثبات الكمال الالهى :

ان هذا الكمال لايكون الا من خلال صفات لله تقود الى هـــذا الكمال وتكشف عنه ، فهو القادر والقاهر ، المحى المميت ، ثم عد معى ومعهم الى آخر سوة الحشر ترى الآيات الثلاث قد ابدأت بذكر قضيـــة أصلية هى الأساسية فى المسألة أنها ابتدأت بقوله تعالى : " هو اللـه" وهذه القضية لاننزلها منزل الشك أبدا لكنا نقول : الله واحد فى كمالـه ثم نحلل هذا الكمال الى أجزائه التى يتألف منها ، عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، فيكون قد حلل الكمال الى جزئياته مثل العلــــم ، والرحمـــة .

بعد التحليل يأتى دور التركيب . فيركب هذه الصفات من جديـد هو الله الذى لااله الا هو .. الى آخر الآيات . ثم تأتى خطوة أخـرى فى منهج ديكارت التى هى التأكيد والاعادة والفحص لكى يؤكـــد أن الخطوات السابقة سليمة ، هذا التأكيد يورده القرآن الكريم مرتين فـى الآيات فيقول تعالى : " الملك القدوس السلام .. الى آخر الآية ، ثم يعيد التركيب فى قوله تعالى : " سبحان الله عما يشركون ".

(٥)

بل ان القرآن الكريم أكد ثم حلل الكمال الى جزئياته ثم الى مزيد من الجزئيات ، الخالق البارئ المصور ، حتى اذا بلغ الغاية قام بذكر النتائج البدهية حتى يتأكد للأفهام السليمة ان هذه القضية — آيات الكمال الالهي — سليمة ١٠٠٪ له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

من ثم يمكن القول مجاراة ان المنهج القرآني في المسألة لايختلف عن المنهج الديكارتي ، الا كما يختلف الكلام الالهي المعجز عن الكلام البشري العاجز ، وكما يختلف الكامل المطلق عن الناقص الأبدي .

على أننا لانسلم أن ديكارت قد بدأ منهجه من فراغ ثم توصل في النهاية الى نفس المنهج الذي سبق به في القرآن الكريم بأكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وهذا لاينقص من قيمة ديكارت وانما يشدنا الى أن مواضع التأثير الاسلامي/منتسبه وفكره/قد غزت أرجاء الفكر الانساني ، وأن تطبيقات الاسلام سليمة كما أنها سليمة المنهج . أما غيره فان التطبيقات ربما كشفت عن سلامتها أو عدمها . وهذا فارق جوهري بين النقل المنزل ، وبين الفكر البشري الذي يعتريه النقص من أغلب نواحيه .

<u>النقطة الثالثة</u> : اثبات النفس :

ان ديكارت قام باثبات النفس بناء على دليل ثبت عنده ، وهو أنا أفكر

فأنا موجود ، وهذا الدليل ربما ترونه جديرا بالقبول ، ولكن هـذا الدليل اذا نظرنا الى نتيجته فأنا موجود تبدو مناطق ضعف الدليل وذلك على النحو التالى :

أولا : ان هذا الدليل قائم على أساس تقسيم شخص الانسان الى جسم ونفس ثم الاستدلال على وجود النفس بالفكر ، والاستدلال على الجسم بالعالم الخارجى . لكن ماهى صورة الربط بين النفس وهى العالم الحقيقى والمعبر الصحيح عن الانسان ، وبين جسم الانسان الذى هو من العالم الخارجى ؟

ان ديكارت لم يفرق بين الجسم الحى والجسم الميت رغم أن كلا منهما جسم ، الفرق الذى نعلمه ان النفس والجسم - شخص الانسان - حيان وبينهما ارتباط قوى ، لايوجد فى الجسم والنفس الميتين أبدا وكافة العقلاء يشاركوننا وجهة النظر ، ثم ان النفس جوهر غير مادى وهى باقية على رأيه . فما هى علاقة الباقية - النفس ، بالفانى وهو الجسد ، ان الثنائية حينئذ تكون غير صحيحة ، وقد عجز ديكارت عن تقديم جواب شاف لمثل هذا الاعتراض .

صحيح تنبه ديكارت الى هذا الخطأ الذى وقع فيه ، وفعلا حاول اصلاحه ، فلما لم يتمكن قرر الهرب بلباقة لاتستعصى على دارس ، انه قرر أن النفس والجسم يرتبطان عن طريق الغدة الصنوبرية ، ولكن هـذا

الربط هش ونظرى لأن الثابت وجود عدد من الغدد تتحكم فى نظـــام الجسم المادى ، وبالتالى هى من صفات الجسم الحى ، وليست مـــن صفات الجسم ، انها جسم كامل تحتها عديد من الغدد ، غيـــر أن ديكارت اكتفى بهذا الاجمال الناقص عن الغدة الصنوبرية وعلاقتها بالجسم مما يثبت أن ديكارت فى اثبات النفس لم يغز بدليل موثق ، أو يحظـــى بقبول يتناسب مع حجم دعواه .

النقطة الرابعة : أدلته على اثبات وجود الله :

قدم ديكارت على اثبات وجود الله تعالى أدلة لكن كل دليل منهـا قائم على مجرد التسليم النظرى والا فان اعادة النظر فى الأدلة يجعلها أكثر ضعفا من أن يعتمد عليها ، ولذا سأتناول كل واحد منها بالمناقشة .

(١) مناقشة دليله الأول :

(١)

أقام ديكارت دليله على أنه فى كل نفس فكرة اللامتناهى ، وبما أنـــه لابد لكل فكرة نفسية من مدلول خارجى ، فلابد أن يكون اللامتناهى هـــو الله ، ويكون وجوده وجودا حقيقيا وخارجيا .

ونحن لانوافقه على أنه لابد لكل فكرة نفسية من مدلول خارجى ، أما لماذا ؟ فلأننا ندرك فى أنفسنا وجود أفكار كالغول والعنقاء ، وهـــى موجودة فى رؤسنا ، وليس لها مدلول خارجى وقديما قال الشاعر العربى :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ∴ فعاند من تطيق له جناح

ولايوجد شيء في الخارج اسمه الغول والعنقاء ، اذن ليس من الضروري أن يكون لكل فكرة نفسية مدلول خارجي ، وبالتالي نقد انهار دليل ديكارت تماما ، من أنه لابد لكل فكرة نفسية من مدلول خارجي، وصار من المتعين عليه أن يبحث عن دليل آخر يثبت به وجود الله .

(٢) فكرة اللامتناهي ليست موجودة في كل النفوس :

أقام ديكارت دليله على أن فكرة اللانهائي ثابتة في النفوس، وهذه الفكرة خاطئة تماما ، فالنفوس مختلفة ، بل ان المتناولين لها يختلفون في تصورها ، وأنت لو سألت فلاحا أو عاملا عن فكرة اللانهائي وادعى ادراكه ، فلاشك أنك سوف تلاحظ أنه ادراك غير سليم ، بمعنى أنك لو سألته عن مضمون هذه الفكرة — اللامتناهي — ربما قال لك ببساطة شديدة ، أنه ليس للدنيا نهاية ، أو أنه ليس للدنيا آخر ، وتلك فكرته عن اللانهائي ، ان اللانهائي فكرة خيالية ليس الا حتى في ذهنه ، في حين انك لو سألت رياضيا لكانت اجابته مختلفة عن سابقه ، ولو عرضت السؤال على فيلسوف وعالم طبيعة لكانت الاجابة في الفلسفة والطبيعة مختلفة عن الاجابة في الرياضة لاختلاف موضوع الرياضة عن موضوع الطبيعة والميتافيزيقا . ولذا ستجد اجابة الرياضي بأن اللانهائي لا أول له ولا آخر من الأعداد ، واجابة الطبيعي مالا أول له ولا آخر من الامتداد ،

واجابة الفيلسوف بأنه ما لا أول له ولا آخر فى الأفهام .

(٣)

من ثم . فان فكرة اللانهائى لاتصلح أن تكون دليلا قويا ومقياسا ثابتا لاثبات حقيقة هامة وخطيرة ، هى قضية اثبات الألوهية ، وبالتالى كان على ديكارت اصلاح فكرته عن اللانهائى حتى يسلم له دليله ، ان اراد به اثبات وجود الله تعالى . ويؤكد على أن فكرة اللانهائى تنتهى بالقطع والتطبيق الى اثبات أنه لايمكن وجود موجودات لاتنتهى حتى اللانهائى نفسه ، ثم ينتهى الى أن الموجود الثابت الدائم الوجود الذى له صفات الكمال والتمام هو الله تعالى ، طبقا لقياس الخلف ، أو برهان التطبيق الذى تحدث عنه المتكلمون فى قواعدهم الكلامية فى برهان التسلسل وبرهان التطبيق .

على أن فكرة اللامتناهى فى أساسها ليست من العمق والشمول بحيث يمكن اعتبارها فكرة فطرية يتسع لها ذهن رجل الشارع ، كما يسعها عقل الفيلسوف ، ويقبل الاستدلال بها رجل الفن ، كما يعانقها راسم الكاريكاتير ، حتى تكون دليلا قويا على عقيدة دينية ، اذن فشلت فكرة اللانهائى الديكارتية فى تحقيق ما هدف اليه .

(٢) مناقشة دليله الثاني : صفات الكمال للمتناهي :

وهو أن هذا اللانهائي كامل وله من صفات الكمال ما يناسبه والحق أن هذا الدليل لا يمكن النظر فيه مستقلا ، انه استكمال لسابقه وما دامت الفكرة الأولى لم تقف على قدم ثابتة ، فهل نتوقع للاحقها الانتصاب بمفرده من غير أقدام تحمله ؟ ! ان الحديث عن فكرة اللامتناهي عندنا قد هدمت دليلي ديكارت في اللانهائي والكمال التابع له .

(٣) مناقشة الدليل الثالث : النقص الانساني :

وهذا الدليل قد أعطى بريقا وظفر من بعض الناس باعجاب ، لكن البحث أثبت أنه ليس من بنات أفكار ديكارت ، بل ان العقل الانساني من أول مراحل تفكيره يلاحظ هذا النقص في الانسان ، انه يمرض ويموت ، والضعف ينتابه من كل جانب ، وتلك حقيقة مسلمة .

ان ديكارت نفسه ليس بدعا في المسألة ، والدليل في حد ذاته قوى لاغبار عليه ، والفكرة من حيث هي قوية وجديرة بالقبول ، لكن الصواب أنها ليست من أفكار ديكارت ، انه مسبوق بالفكر الاغريقي في صورة من صوره ومسبوق بالفكر الاسلامي في كل من مادة الدليل ومنهجه ، وبعيدا عن الفكر الأغريقي ، اصحبك الى " رياض الاسلام " .

- من ناحية النقص الانساني :

لخص القرآن الكريم الفكرة كلها - النقص الانساني بداية ونهاية - فكأن النقص يحيط بالانسان من كل جانب ، أليست بدايته نطفة مذرة ، ثم نهايته جيفة قذرة ، أليس كل ذلك نقصا فى الانسان نفسه بداية ونهاية نطفة وجيفة ، ان هذا كله نقص انسانى دائم يدل على أن خالقه كامل منزه عن كل أوجه النقص .

قال تعالى : " أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين " (١) واذا كنا بهذا الحال من النقص فهل ندعى أننا خلقنا أنفسنا ؟ !! أو هل يحق لنا مجرد هذا الادعاء ؟ من البداية نقص ، والنهاية نقص ، ومابين النقصين نعيش نحن ؟ فهل نرفع رأسنا ونزعم أننا خلقنا أنفسنا ؟ أليس الدليل القرآنى على النقص الانسانى أقوى من دليل ديكارت . وأقدر على تفادى كل الملاحظات .

ان هذا الدليل رغم وضوحه وتكراره فى القرآن الكريم لم ينل من العناية لدى مفكرى الاسلام مثل مانال دليل الحدوث ، أو دليل الامكان . مع أن : القرآن الكريم قد قلب كل جزئيات هذا الدليل ، تعالى معى الى قوله تعالى حاكيا موقف ابراهيم الخليل فى الاستدلال بالكمال الالهى فى مقابله النقص الانسانى قال تعالى :

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٥٨/٦٠

" الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعمنى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يميتنى ثم يحيين " (١) حيث نبه القرآن الكريم على جهات النقص في الانسان ، ومظاهر القصور البشرى ، فنبه أولا : الى أن الانسان لايخلق نفسه ، ولو خلقها لما احتاج الى هداية من أحد ، الذى خلقنى فهو يهدين ، ثم ان الانسان محتاج الى الطعام والشراب فلو خلق الانسان نفسه ما احتاج الى الطعام والشراب والشفاء من أحد لأنه كان سيخلق نفسه كاملا غير محتاج الى شئ من هذه الأشياء •

ثم ان الانسان يخشى الموت ويهابه ، فلو خلق نفسه هل كان يخلقها قابلة للموت ، كلا انه كان سيخلقها لاتقبل الموت والفناء ، انه يحتاج لمن يخلقه ويهديه ، ويطعمه ويسقيه ، ويحتاج الى من اذا مرض فهو يشفيه ، ويحتاج الى من يميته ويحييه ، ان كل هذا نقص انسانى دائم ويدل على أن خالقه منزه عن كل أوجه النقص ، لأنه كامل •

والحق أن فى صدرى غصة ، وكم تمنيت لو أن علماء المسلمين شغل فريق منهم نفسه باستخراج أدلة أثبات وجود الله تعالى وصفاته العظمى من النقل المنزل لكان الأمر جديدا على الفكر ، وجديرا بالتحمس له والاحتفاء فيه ، على أن هذا كلما ثبت تأخر ديكارت بمنهجه عن الفكر الاسلامى سنوات طويلة مع الأخذ فى الاعتبار أن منهج الاسلام نقى وصادق ومنهج

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٨/٨١

ديكارت عليه من الملاحظات مايحتاج الى ترميم كامل للمذهب كله .

ومن يلاحظ آيات القرآن الكريم التى سلف ذكرها يرى أنها تناولت جوانب عديدة للنقص الانسانى فى آيات قليلة وتغنى عن مجلدات كثيرة انها تناولت :

أ — جانب الموت باعتباره أهم جانب من جوانب النقص الانسانى فلابد أن يكون للانسانية وكافة المخلوقات خالق اله كامل لايلحقه العدم بحال ، كما لايطرأ عليه الحدوث . انه وحده المنشىء المعيد ، وهو الخالق للكل ، والكل محتاج اليه .

ب — العوارض الملازمة . الجوع والشبع ، والعطش والرى ، والمرض والصحة وكلها عوارض تتبدل على الانسان وكلها أوجه نقص حتى الشبع والرى والصحة لأن غيرها يزيحها ويحل محلها ، اذن هى أوجه نقص فى الانسان وتدليل على أن خالقه كامل ، ولئن كان هذا النقص فى الجانب المادى من الانسان فان الجانب النفسى يقاس عليها .

جـ — النقص الانسانى فى النفس البشرية : " الخطيئة والتوبة " :

سلف الحديث عن موقف القرآن الكريم من اثبات النقص فى الجسم البشرى وهانحن نقدم جدة لم يسبق اليها أحد ، انها من الفكر الاخلاقى وحده ، لم ينتبه اليها ديكارت ، وهى مسألة الخطيئة

والتوبة ، ان ديكارت حاول اثبات النقص المادى فى الانســـان ، بينما القرآن الكريم ينبه إلى النقص فى الجسم والنفس .

الخطيئة يقع فيها المرء وهى عمل نفسى يشعر بعدها أنه أرتكب مالايصح فماذا يفعل ؟ انه يلجأ إلى أن يكمل نفسه فيقلـــــع عنها إذن الخطيئة نقص وغفرانها تكميل ، وقد أشار القرآن الكريم إليها فى قوله تعالى : " والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يـــوم الدين " (١) وهكذا تفرد الله وحده بالكمال ، ورجع إليه وحـــده أمر اصلاح الكون على ما اقتضته حكمته السامية وارادته العليـــا . ليكون مظهرا على قصور البشر الناقصين ، وليكون قصورهم مظهـــرا على كمال قدرته وارادته ، وليظل نقصهم الدائم دليلا على كمالـــه الأبدى جل علاه .

على أن ما أدعو إليه هو أن يراجع علماء الإسلام الفكر الإسلامــــى مرة أخرى ، وأن تكون لهم نظرات سابقة وفى نفس الوقت ثاقبة حتى يـــرى الكل أن الفكر الإسلامى بثرائه ومضامينه أكثر دقة وأوسع مساحة ، وأعمـــق فكرا ، وأصدق يقينا من كل ما سواه .

---

(١) سورة الشعراء الآية / ٨٢

نهاية المطاف مع فلسفة ديكارت :

علك تسألنى هل استنفدت وجوه النقد على فلسفة ديكارت ؟

والجواب : أننى مازلت واجدا عليها فى نفسى أشياء ، ولاقيـا الكثير من أوجه النقد عليها والتمحيص ، مما لايسع المجال له ، اذ ما تزال هناك نقاط أخرى كثيرة للنقد والمؤاخذة ، والتوجيه والمعاندة على ماهى طبيعة المباحث الميتافيزيقية ٠

ولكن هذه الملاحظات لايمكن أن تنقص من قدر الفلسفة الديكارتية التى فرضت نفسها بوجودها على سطح الفكر الأوربى قرونا متعاقبـة ومازال صالحة للأخذ منها والرد عليها حتى ان أحد فلاسفة الإنجليز سئل عنها ذات مرة فقال : ان خير ما قدمته فرنسا للانسانية هو ديكارت وخير ماقدم ديكارت هو أبحاثه الفلسفية والعلمية ٠

ديكارت الذى نظر إلى الكون نظرة شاملة محيطة فحلل وفحص حتى وصل الى اليقين فى عصر تحوطه الظلمات ، ويغطيه الشك ، ويلفه السكون وتتلقه الأفكار القلقـة ، ان ديكارت الفرنسى استطاع بحق أن يهدى الانسان الأوربى للحقيقة ، أو يهدى الحقيقة الانسانية إلى الإنسـان الأوربى ٠ كل هذا وهو صاحب الجسم النحيل ، والوجه الشاحب وصوت الحقيقة والصحة المعتلة التى كانت تفرض عليه النوم عشر ساعات كل يوم ، ولكن سبحان الله يضع بعض سره فى أضعف خلقه وكان من بينهم ديكارت ٠

((الخاطـــــر الثامـــــن))

(نموذج من الميتافيزيقا النقدية والمثالية الأخلاقيـة)

((عمانويل كانت))

تمهيد :

(١)

مازلنا ننتقل مرتحلين بين عواصم الفكر الأوربى ، فمرة تقف سفن الترحال عند أحد شواطىء انجلترا ، وأخرى على سواحل فرنسا ، وثالثة عند مراسى ألمانيا ، وربما عدنا بالرحلة الى نفس الطريق الذى بدأنا السير منه ، ونحن لايعنينا الطريق انما الذى نقصده هو تلك المراحل الفكرية التى كان لها صداها فى أوربا كلها .

(٢)

استعرضنا فلسفة ديكارت بجوانبها المتعددة لكن هناك فلسفات وسيطة فصلت بين أرجاء الفكر الانسانى فى أوربا كلها وفى انجلترا على وجه الخصوص ، صحيح أن فلاسفة الانجليز شككوا الناس فيما توارثوه من أفكار كانت محل اعتقاد واتفاق على ماسلف ذكر طرف منه ، وعلى نفس المنهج كان هناك غيرهم يشكك لكن بطريقة أقل .

(٣)

أرجع بيكون أكثر المعارف الإنسانية إلى أوهام يرثها المرء عن أسلافه أو يكتسبها من بيئته ، أو تمليها عليه ظروفه الخاصة وملابساته الشخصية

هذا فضلا عما يسرى الى نفس المرء من أوهام رسخت فى طبيعة الجنس البشرى كله بشكل عام ، وهى التى سماها بيكون الأوهام الأربعة وراح يخلص المجتمع منها .

(٤)

وجاء لوك فرفض فكرة وجود معان ومعارف فطرية يولد المرء مزودا بها ، وتصور أن العقل الانسانى عبارة عن صفحة بيضاء لم يخط فيها بخط ثم تتوارد عليه المعارف والمعلومات المختلفة ، كما أنه ميز بين الظواهر الطبيعية المادية ، والظواهر العقلية النفسية على اعتبار أن العقل وحده هو الجوهر المقوم للادراك الباطنى ، وهو بهذا يسقط كافة المعلومات التى يرثها المرء ويتشكك فيها ، لأن المحصلة عنده تقوم على أن المرء يستمد معارفه المختلفة فيما بعد عن طريق التجربة الظاهرية الباطنة .

(٥)

وكان القدر على موعد مع دافيد هيوم ، ذلك الذى أنكر وجود العقل الانسانى نفسه ، واعتبر المسألة مجرد سلسلة طويلة من المشاعر والخواطر والذكريات ، انه يشبهه بجهاز تسجيل ، وقاد هيوم سلسلة من زعزعة الحقائق ، وقد سبقه لوك وكان خطوة لوك الجريئة انكار المعارف الفطرية ، ومهد لهيوم الذى أنكر العقل نفسه ، وسلم بوجود المشاعر والخواطر والذكريات .

(٦)

غير أن جورج بركلى قرر أنه لاوجود للمادة . وأن كل ما تعرفه عنها ليس أكثر مما تنقله الحواس السليمة إلينا ، ومن المجازفة والتهور القول بوجود جواهر مادية متحققة فى الخارج بل هى فى حقيقتها مجموعة من العوارض والصفات ينقلها الحس إلى الذهن ، وليس للمادة وجود آخر غير هذا الوجود الذهنى الخاص .

على أن المدرسة الانجليزية قد انتهى بها الأمر الى انكار العقل والمادة ، وانكار الحقائق الأساسية فى الوجود الانسانى كله ، كما أن الدارسين يرون أن فلسفة دافيد هيوم كانت أقوى ماصوب إلى صدر الحقيقة الفلسفية والحقائق الثابتة من سهام ، حتى بات من المؤكد أن الشك المطلق عاد سيرته الأولى فلف ظواهر الكون ومظاهر الحياة بغلائل قاتمة وقيود جبارة ، وأفلت زمام اليقين من أيدى القابضين عليه ، فلم يعودوا بالقادرين على كبح جماح الشك وماهى الا سويعات قلائل حتى اسلمهم إلى قلق لايرحم وجدل لايفتر .

(٧)

وهكذا برزت مسألة الشك ونمت شجرته مرة أخرى فى ظل الفلسفة ، هذه المرة حتى حجبت شمس الحقيقة عن عيون الناس ، ونشرت عليهم ظلها الموحش ، وفرضت عليهم الاختفاء تحت ضربات سوطها الرهيب حتى كانت

الأصوات الخفيضة التي تنادى بالبحث العقلي ، وتطالب بالتحرر الفكرى تتلاشى بين شدة الرعد وقصف العواصف ، وغزارة الأفكار .

(٨)

وكان روسو قد همس في غياهب القرن الثامن عشر « دعوا العقل وما انتهى اليه من نتائج ، وعودوا إلى مكامن النور في أنفسكم واستلهموا صوت الحكمة في قلوبكم ، فان مشاعر القلب اسمى من منطق العقل وحرية الوجدان من غموض الفكر وقسوة التكران . ولكن همسه لم يؤت ثماره ، وان حرك في الوجدان نوازع الالهام .

(٩)

وفي غضون هذه الظروف خف إلى وجدان روسو أناس تلمسوا فيه همسة أمنا من وحشة الدنيا وتوقعوا فيه نورا من ظلمات الفلسفة ، بينما وقف آخرون على الطرق المفترقة يرون أن بحث الحقيقة أمر فوق طاقات كثيرة وأنه ليس من السهل أن يفصل فيها بصوت فنان أو قضاء أديب .

(١٠)

من ثم فقد بات الناس على أمل انتظار شمس الضحى الصبوح ، التى تحمل لهم ظهور فيلسوف له القدر المعلى والامكانيات الهائلة حتى يعيد المسألة — اليقين — إلى دائرة الفحص والبحث والتحليل ، حتى تأتى نتائجه مدعمة العقل في موقفه ، فإما أن تصل به شاطىء الأمان

أو تأخذ به الى طريق مأمون لكنه على العقل جديد .

ويبدو أن شمس الضحى لم تغب كثيرا ، فقد كانت القلوب تلهث بالدعاء لها ، والأكف ترفع نحوها ، فحملت اليهم روحا متدفقة ، ذلكم هو الفيلسوف الألماني عمانويل كانت ، الذى وجد الناس فى أفكاره ، مايذكى وحى القلب ، ويصون التجربة ، ويحدث الوجدان ، وبذلك صار الرجل العلامة الوحيدة — فى قرنه — لليقين الفلسفى ، والحق النظرى ، بين معالم الشك ومشارف الجحود والنكران .

(١١)

سمات فلسفات ما بعد ديكارت :

قبل التعرض لكانت تجدر الاشارة الى أن فلسفات ما بعد ديكارت كانت لها سمتان محدودتان وكان لهما أثرهما البارز فى تلك الآونة :

السمة الأولى : أنها فلسفات تشكيكية ، تستهدف نوع الثقة بالحقائق كلها وزعزعتها .

السمة الثانية : أنها تمثل التجريبية الانجليزية فى مرحلة ما ، وأنها هدفت الى ازالة الآثار الدينية وسلطة الدولة .

(عمانويل كانت)

أولا : حياته ومؤلفاته :

(١)

عاش كانت حياة حافلة بالإثارة والمفاجآت ، امتدت قرابة الثمانين عاما ، وبين مولده ووفاته تقلبت حياته من الطفولة الغضة ، الى الشباب الثائر ، ومن الهدوء والسكينة الى مقاومة السلطة ، ومن البحث فى الميتافيزيقا الى تقليب وريقات فى الأخلاق ، ومن ملاقاة الأصدقاء الى منازلة الخصوم الألداء ، مما يجعل حياته بحق أمرا يحتاج الى دراسة ٠

(٢)

(أ) حياته :

١ - مولده : ولد عمانويل كانت - الساعة الخامسة من صباح السبت الثانى والعشرين من أبريل عام ١٧٢٤م بمدينة كونجسبرج ، التى كانت تعد مركزا ثقافيا هاما (١) ، وهى واقعة على الحدود الشمالية الشرقية لألمانيا (٢) وكانت تمثل عاصمة لدوقية بروسيا ، وطبقا لهذا فان كانت ولد فى عاصمة ثقافية ، ومركز اشعاع حضارى مما سيكون له عظيم الأثر فى حياته الفلسفية والعلمية فيما بعد ٠

(١) د / نازلى اسماعيل - مقدمة ترجمة امانويل كانت ص٧ - مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما وزارة الثقافة ط دار الكاتب العربى ١٩٦٨م ٠

(٢) دكتور / زكريا ابراهيم - كانت والفلسفة النقدية ص ٣٦ ط٣ مكتبة مصر ٠

أما والداه ، فكان أبوه " يوحنا جورج كانت " رجلا رقيق الحال لايملك ثروة أو ثقافة ، كل ما يملكه أنه كان ينحدر من أصل اسكتلندى ، وكان يعمل سراجا ، وهى مهنة متواضعة ماكانت تدر عليه الا دخلا قليلا يكفى حياة أسرته من غير ترف ، وكان الأب يتمتع بشىء من الدين المسيحى حمله على الجد والكد وأن يكون كد اليمين وعرق الجبين هما أساس الحياة الشريفة التى تمثلها الأب فى تربية ابنائه ومنهم كانت نفسه ٠

(٣)

غير أن أمه " أنارجيرنا روتو " كانت هى الأخرى من أسرة متواضعة اذ كانت ابنة لأحد الصناع من مدينة نورنبرج ، تلاقت أنارجيرنا مع يوحنا الذى كان يكبرها بخمسة عشر عاما (١) ، واتفقا على الزواج اذ لم تكن هناك موانع تحول عن اتمامه ، وقد تلاقت مشاعرهما وانتهت مراسم الزواج ، وقد قررا — بحكم نزعتهما المسيحية التقوية — أن يكافحا حتى النهاية ٠

(٤)

على أن ما يمكن الالتفات اليه هو أن الأسرة توالى عليها الأبناء حتى كان كانت هو الابن الرابع ليوحنا ، حيث كان ليوحنا بنتان هما ماريا اليصابات ، وبربارا ، وكان له ولدان هما : يوحنا هينرش وكانت ومع ذلك فلم تنعم الأسرة برغد العيش ورفاهيته ، كما لم تذق يوما طعم

---

(١) مقدمة الدكتورة نازلى اسماعيل ص ٧

الجوع والحرمان ، وانما كانت ديانة الأب ، وتقوى الأم بمثابة الواحة الهادئة التى نعم فى رحابها أبناء تلك الأسرة ومن بينهم كانت .

وعرفت الأم بأنها كانت تتحلى بالقناعة والتقوى والورع ، لذا عملت على تربية أولادها تربية دينية صالحة بل كانت مثالا حيا للتضحية فى سبيل الواجب ، حتى انها غرست فى بنيها كثيرا من القيم الأخلاقية الرفيعة ، والمشاعر الدينية السامية ، وظلت هذه الأم محافظة على نزعتها الدينية مؤكدة أن الايمان سلوك فردى ونية طيبة ومشاعر صادقة ، وليس الايمان طقوسا شكلية ، ولا عبادات خارجية ، أو معتقدات عقلية خاوية المعنى .

(٥)

ويبدو أن هذه الأسرة قد لمست فى كانت ملامح الصفاء ، ومخايل النبوغ فأولته الأم التقية عناية خاصة ، زودته من خلالها بالثقافة الدينية وباشرت بنفسها تطبيق تلك الثقافة مع وليدها ، وعلى الرغم من أنها كانت أما محدودة الثقافة الا أنها قرأت أفكار كانت مبكرا ، ولمحت خاطره الغض يتجول مناحى الطبيعة الهادئة ، فاذا بالأم تزكى فيه هذا الجانب ، فراحت تصحبه فى نزهة خلوية حول المدينة الجميلة ، وتلفت نظره الى سحر الطبيعة الجذاب وجمالها الخلاب ، ونظام الكون أرضه وسمائه بل ربما حاولت — وهى صاحبة الثقافة المحدودة — تفسير بعض ظواهر

الطبيعة لوليدها وتجيب على أسئلته بقدر ما نالت من علم وحققته من معرفة. (١)

(٦)

وقد صحت توقعات الأسرة فى فتاها الذى لم يلبث أن نظر للحياة فى أجمل معانيها ، وبدأ يشعر بها فى عقله وقلبه وكيانه ، ونظراً لما تمتع به من ذكاء ونبوغ ، فقد حرص على أن ترى الأسرة أنها انما تبذر فى خصب وليس فى سبخ ، فكثيرا ما حاول ابراز هذا الذكاء ، واظهار ذلك التفوق والنبوغ ، حتى لمست الأسرة بيديها ذكاء خارقا ، ونبوغا وتفوقا فألحقت الفتى بالمدرسة الأولية التابعة لمستشفى القديس جورج حوالى سنة ١٧٣٠م (٢) ، وفعلا غرست الأم فى وليدها حبها حتى قال بعد موتها " أنا لا أنسى أمى ماحييت ، انها غرست أولى بذور الخير فى نفسى " .

(٧)

٢ — ثقافتــه : حرصت الأسرة على أن يبلغ كانت رحلة علمية متوازنة تقوم على الانضباط العلمى ، والأخلاقى والأدبى فى حدود من الدين التقوى المسيحى التقليدى ، وليس الايمان القائم على النزعة البروتستانية

---

(١) الدكتور/ زكريا ابراهيم — كانت ص ٣٧ والدكتورة / نازلى ص ٨
(٢) الدكتورة / نازلى ص ٨ .

الايقانية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت منادية بالانجيل وحده واقصاء سلطة رجال الدين على الكنيسة ٠

وحتى لايخرج الفتى عن مارسمته الأسرة له ، فقد ألحق بمدرسة أولية تابعة لمستشفى القديس جورج تعلم فيها أصول الديانة المسيحية مع الكتابة والقراءة والحساب ، فأظهر الفتى تقدما فى تلك المدرسة وتجاوز امتحاناتها بسرعة دفعت بالأسرة الى الحاقه بدراسات أعلى كانت نفسه تتوق اليها وتتطلع ٠

(٨)

ألحقته الأسرة بكلية الملك فردريك بكونجسبرج ولما يبلغ عامه الثامن ، وكانت الدراسة فى هذه الكلية منضبطة أشد الانضباط اذ كان مديرها رائدا من رواد نزعة التقوى ، وكان واعظا لكنيسة المدينة القديمة وكان لنها طابع فيه كثير من المعارف والكثير من التشدد التى دفعت كانت الى كره هذه الطقوس والمراسم التى تؤدى الى التنفير من الدين لا الاقبال عليه ، وبالتالى ما ان وجد كانت نفسه فرصة الانفلات من تلك الكلية فى عام ١٧٤٠م حتى استخدمها دون اجتياز امتحانات أو حصول على شهادة من تلك الكلية ٠ لكن كانت لديه ثقافة لاتينية ممتازة ٠

(٩)

غير أنه عاود الدراسة اذ لم يتمكن من السيطرة على عقله الملحاح بعيدا عن مجال الثقافة والفلسفة والعلم ، ومن ثم التحق بجامعة الملك

البرت كلية الفلسفة التى تأثر فيها بمارتن كنوتسن الذى لمع جدا فـــى تدريس الفلسفة وبخاصة فلسفة ليبنتس ، كما لمع فى الرياضة التى ينبنى عليها العلم الطبيعى عند نيوتن ، وظل كانت يتابع الدراسة فيها حتى عام ١٧٤٧م .

(١٠)

وكانت ظروف الحياة قد ضغطت عليه ، وبخاصة بعد موت أمه وهـو فى الثالثة عشـرة من عمره ، وموت أبيه وهو مايزال طالبا بكلية الملك ألبرت وتوقف خاله عن الانفاق عليه ، مما اضطره لترك الجامعة ، ثم مالبث أن عاوده الحنين للدراسة نقدم للجامعة رسالته للدكتوراه فى ١٧ ابريل ١٧٧٥ وكانت فى فلسفة الطبيعة حيث اختار النار موضوعا لدراستها وحصل علـى الدرجة التى هيأت له فيما بعد وظيفة محاضر خارجى بالجامعة فــدرس للطلبة الرياضيات والطبيعة والفلسفة ، مع القائه بعض المحاضرات فـى الجغرافيا الطبيعية ، وظل محاضرا خارجيا قرابة الخمسة عشر عاما ... وفى النهاية وصل كانت منصب عميد الكلية ثم مديرا للجامعة ذاتها .

(١١)

٣ — أحداث فى حياته : كثير من المتعاطين للفلسفة يتعاملون مـــع الفلاسفة كأنهم آلهة ليس فى حياتهم أحداث متغيرة ، أو خلق غريـــب يعيشون فى أبراج عاجية لا هم لهم الا أفراغ أفكارهم فى قوالب فلسفيـــة

انهم فى نظر هؤلاء المثال المطلق ، انهم صانع تفريخ الأفكـــار والنظريات ، انهم صناع العلماء ، انهم انهم ... وتناسى هؤلاء ، وأولئك أن الفلاسفة بشر فيهم من النقص أكمله ، وأن لهم حياة فيهـا اليتم والعدم ، فيها الفقر والحاجة ، فيها الأحداث المتراكمـة والحوادث التى تعصف بهم حينا وتقف معهم أحايين ، وقد سبق مثلها مع بيكون ، وهوبز ، وديكارت .

(١٢)

أ — تبرمه بكلية الملك فردريك :

كانت الكلية قد التحق بها كانت ووجد فيها فرصة لدراسة اللغـة اللاتينية وثقافتها وبخاصة أن رواد نزعة التقوى كانوا يلتزمون باللغـة اللاتينية لأنها أقرب اللغات الى الانجيل ، وأتقن كانت اللاتينيـة وأعجب بها كتابا وشعراء وثقافة وكان يستشهد بها فى أقواله .

غير أن هذه الكلية كانت صورة بغيضة للتزمت الدينى . الدراسة تبدأ بصلاة فى الكنيسة يوميا لمدة نصف ساعة ، ثم تبدأ كل حصة بصلاة فى الفصول بجانب ساعتين متواصلتين للعبادة أسبوعيا ودروس للديـن مع وعظ لمدير المدرسة يوم الأحد صباحا ومساء ، وهى فى حد ذاتها طقوس ومراسيم دفعت بكانت لكراهة الدين والنفور منه بدل الاقتناع بـه والاقبال عليه وأخيرا خرج من المدرسة دون اجتياز امتحانات أو حصول

على مؤهلات .

(١٢)

ب — موت أمه : كانت أرجينا أم كانت تمثل له وحدة متكاملة من العطف والحنان الدافئ والأمومة الرحيمة ، والثقافة الناعمة والصديق الوفي ، انها الهرم العالى الذى يصونه عوادى الزمان ، فاذا بها تمرض وتموت سنة ١٧٣٧م وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكن قبل قد عرف اليتم أو الحزن . فكان موتها كارثة عليه تركت فى نفسه ومشاعره جرحا داميا ، وحزنا شديدا كان له تأثير على فكره وعلى موقفه من المرأة فيما بعد .

جـ — تعثر أحوال ابيه المادية : فى الغالب الأعم تمثل المرأة ركن الأسرة ويمثل الرجل عمادها ، وفى أسرة كانت انقلبت الأمور حيث كان الأب هو الذى يمثل الثروة المالية ، أما الأم فكانت المهندس الذى يدير كافة الأعمال انها تربى الأولاد ، وتقف على كل صغيرة وكبيرة من شئونهم ، وترتب مواعيد الأب ، وتصون وقته وتحفظ صلاحياته ، انها كانت الآلة التى تطحن كل شىء حتى توفر كل شىء .

فلما ماتت أنا رجينا ، انقلبت أحوال الأسرة جميعا ، فما عاد الأب هيابا أحدا ، وما صار ينتظر شيئا ، فبدت له الدنيا بشكلها السالب ، ومنظرها المشين ، وراحت ترمقه بعين الوحدة مرة ، وبعين الاحتقار الأخرى ، فاذا بالأب يقصر فى عمله ، وينصرف قليلا قليلا عنه ، حتى

تعثرت أحواله المادية ولم تعد تكفى المتطلبات الضرورية للأسرة .

وكان شقيق أنارجينا — رشتر — رجلا دمث الخلق ، فحاول أن ينهض بيوحنا ، وأن ينقذ الأسرة من الضياع ، فقدم معونات مالية لها ، وأخرى عينية ، وظل ذلك الخال الكريم ينفق بسخاء لعل الأب يقف بعد عثرة ، وينهض بعد كبوة ، وتبسط له الحياة ذراعيها ، وتبسم له سنا ، لكن كل هذا لم يكن ليكفى فأخذ كانت وصار يخصه بكثير من الانفاق وشىء من العناية لأنه أدرك رغبة الفتى فى العلم وحاجته للاستزادة من المعرفة .

وكانت الأحوال المتعثرة التى ابتلعت أباه تقض مضجعه ، وتلفت انتباهه بعيدا عن تحصيل العلم ودروس المعرفة ، أنه رأى الحياة الباسمة تولى ظهرها اليهم ، فأمه ماتت فجأة من غير موعد وكانت الركن الركين والحصن الأمين للأسرة ، وها هو الأب تعثرت أحواله وماصار بالقادر على تخطى ظروف الأزمات كل ذلك ترك فى نفس الفتى جرحا داميا ربما لايندمل الا فى كثير من الأعوام .

د — توقف خاله عن الانفاق : لم تسر الحياة مع خاله — رشتر — على مايرام صحيح كان اسكافيا ماهرا ، لكن دوام الحال من المحال ، فعلى حين كانت الأمور تسير هادئة فى بيت الخال ، والظروف لصالحه حتى كان لديه فائض يوجه بعضه لأولاد أخته ومنهم كانت ، اذا بالأيام تدبر عنه وتكشر له

عن أنيابها الزرقاء فيصاب الخال بالمرض ويشعر بالعجز عن قيامه بأعباء عمله .

وطال مرض الخال الذى توقف معه العمل ، حتى لم يعد الرجل نفسه قادرا على تلبية احتياجات أسرته نفسه من هنا توقف عن الفضل الذى كان يجود به على أولاد أخته ومنهم كانت ، بل وصار الرجل فى حاجة الى من يمد له يد العون والمساعدة ، فماذا يفعل كانت فى هذه الظروف التى تعانده ، وهو مايزال طالبا للعلم تواقا للمعرفة ناهضا بأعبائها قدر امكانياته ، وماهى الا فترة حتى مات الخال أيضا وبقى على يوحنا وكانت أن يرتبا أمورهم طبقا للظروف الجديدة ، فأثر ذلك على كانت وجعله يفكر فى الانقطاع عن مواصلة الدراسة ويبدأ رحلة البحث عن وظيفة تضمن له لقمة العيش .

هـ — موت أبيه : حاول يوحنا النهوض مرة أخرى بعد أن وجد نفسه وحيدا يصارع الظروف ، ان خال أولاده الذى كان يمثل معونة خارجية له مرض ومات ، وكانت مايزال طالبا للعلم ، واخواته قد انقطعت بهم السبل حتى ان الأمواج العالية قد ابتلعت جهودهم ، فلم يعرف لهم أثر ، لكن نهضة يوحنا من رقدته لم تشفع له اذ كانت متأخرة تصاحبها مجموعة من الأمراض ، ومشاكل السن ، وظروف طرأت على نوعية العمل .

وبينما الرجل يصارع معركة الحياة اذ بالأمراض تقسو عليه وتتكاثر فلم تعد أسلحته فى مقاومتها فعالة ، وماهى الا أيام حتى وقع الرجل أسيرا ينتظر تطبيق قرار العفو العام ، أو الموت الزؤام · وكان الثانى أقرب اليه فسقط صريعا بين آلامه التي لم تنته ،وآماله التى باتت تنتظر فتى قويا يعيدها الى دنيا الواقع بدل أن تغرد فى دنيا الأحلام ·

وكان موت أبيه كارثة جديدة عليه ، صحيح أن كانت تجاوز الثانية والعشرين لكنه لم يكن بامكانه الاعتماد على نفسه ، من ثم وجد نفسه وحيدا فذاق اليتم على كبر ، ولسعة الحرمان بعد حنان ، وكانت الصدمات المتلاحقة تفرض نفسها عليه بالحاح ، ولذا أقبل الرجل باحثا عن عمل يكتسب منه لقمة العيش ويشعر فى رحابه ببعض الأمان ، وكان طريقه الى التدريس الخاص هو المنقذ له من تلك المسألة ·

و — رب ضارة نافعة : أخرج كانت كتابه — الدين فى حدود العقل الخالص " ، وفى هذا الكتاب تعرض للدين المسيحى ، وبين أنه لايصمد أمام النقد الدقيق ، بل انه شرّح فيه الدين المسيحى تماما ، وانتهز خصوم كانت الفرصة فقدموا الكتاب للامبراطور فردريك وليام امبراطور روسيا وكان رجلا متشددا الى حد التزمت وعرف بمصادرته للحريات ، فصادر الكتاب فورا ·

ولما كان فردريك وليام يعرف ميول كانت ، فقد مه لمحاكمة صورية حكمت عليه بالاعدام ، ثم خففه الامبراطور الى الاقامة الجبرية ، أما لماذا حكم وخفف ؟ فالجواب : أن خصوم كانت استكثروا الاعدام عليه ، ورأوا أنه لو أعدم ونفذ الحكم فيه فان ذلك سيجعله شهيداً للحرية ، ويرفع قدره فى نفوس مواطنيه ، وربما صنعوا له تماثيل طافوا بها أرجاء البلاد ، وهم لايريدون له الا الاستحقار ٠

من ثم ٠ تقرب هؤلاء الخصوم الى الامبراطور ، وقللوا من قيمة كانت وتلاميذه فى نظرهم ، وبينوا للامبراطور أن كانت وتلاميذه أقل من أن يصدر الامبراطور حكما باعدامهم ٠ بل أن هذا الحكم سيرفع منزلتهم ويظهر الامبراطور بصورة قاسية ، فاستجاب الرجل لنصيحة الأعداء وحدد اقامته ، وبهذا قفز كانت من حبال المشنقة الى دنيا الحياة على أكتاف خصومه ، وفعلا رب ضارة نافعة ، فالغيب لايعلمه الا الله ٠

٤ — وظائفه : (١)

فقد كانت كل معين ، فانقطع عن دراسته وحاول البحث عن عمل شريف يكون بالنسبة له الأمل المرتقب لراكب بحر تتقاذفه أمواجه ، عرض نفسه على كثير من جهات العمل فلم يوفق الى واحد منها ، وبخاصة أنه لم يكن معروفا فى الأوساط التى يعرض نفسه عليها ، وقد تركت هذه

المسألة فى نفسه أثرا بالغا ، اذ هو الفتى الذى تملأ رأسه الأفكار العلمية — رياضية وتجريبية وفلسفية وطبيعية — ثم هو فوق ذلك لايجد عملا يوفر له لقمة العيش .

(٢)

أ — مدرسا خصوصيا :

ويبدو أن المأساة لم تطل به ، اذ تعرف عليه أحد النبلاء ، ورأى فيه قدرة على تعليم ابنه العلم المفيد ، فاختاره النبيل مدرسا خاصا لأحد أبنائه ، ومربيا له ، وكانت هذه الأسرة النبيلة تعيش فى شرق بروسيا نظرا لقلة عدد المدارس الثانوية فى ذلك الوقت(١) ، وظل يعمل مع هذا التلميذ قرابة عام .

ولم تكن خبرة كانت فى هذا الخصوص كافية ، حقا ان رأسه مليئة بالعلم ، لكن كيفية اخراجه كانت المشكلة حيث حاول كانت تعليم الابن وظل يحاول لكن طريقته لم تكن على مايرام . اذ أن كانت نفسه يعترف بأنه لم يكن مدرسا بارعا (٢) من هنا تبرم الولد بتلك الطريقة ، ونفر من مدرسه ومربيه ، وبات الأمر معلقا ، فاما أن يعلن الابن قناعته بمدرسه ، أو أن ينقطع أمل كانت فى لقمة العيش التى ظنها قد دامت له ، لكن الولد أبى الانصياع لظروف مدرسه ، وأعلن رفضه له . فكان على كانت أن يهم بالرحيل قبل أن يعلنه له الجميع .

(١) د / نازلى اسماعيل — المقدمة ص ١٠
(٢) د / زكريا ابراهيم — كانت ص ٣٨

(٣)

بيد أن الوزير أندرتش وكان راعيا قد عرف بكانت وتعرف عليه ، ورأى فيه قدرة على أن يكون مدرسا خاصا لابنه الخامس الذى قابل رغبة أبيـــه بنوع من القبول جعلت مدرسه يستبشر خيرا ، ويحاول بذل المزيد مـــن المجهود لاقناع التلميذ بقدراته العلمية ، ومحاولة توصيل المعلومات الى ذهنه الصغير ، وفى هذه الأسرة اتيحت لكانت أمور كثيرة ، انه عاش فـى رحابها سنوات ثلاث ، وكان الوزير رجلا معروفا من أسرة برجوازية ، يقدم كانت لأضيافه ، ويعرفهم به على أنه مفكر جاد ، وأبحاثه سوف يستفيد منها الوطن فى جانبه العلمى .

بل راح يصحب كانت معه فى رحلاته ، حتى ان كانت بدأ يعيـــش مرحلة جديدة فى حياته ، انها حياة الترف بعد الشظف ، والنعيم بعد الجحيم ، والاستمتاع بعد الاستجماع ، والاصدقاء والمعارف بعد التنكر والمزالف ، وحصّل كانت بهذه الرحلات متعا ومعارف وأصدقاء ، وكان له القليل من الخصوم والأعداء ، حتى بلغ الفتى مبلغا لم يعد فيه بحاجـــة الى مدرس خاص ، ومن ثم أعلن رغبته فى الاستغناء عن مدرسه كانت .

(٤)

وقبل أن يعلم كانت برغبة الأبن وان كان يتوقعها ، اذا بأســـرة نبيلة أخرى تطلبه ، وهى أسرة " فريد ريش نون هلزن " التى كانـــت تعيش فى أنسد ورف الكبرى ، وتولى فيها تربية وتعليم ثلاثة من أبنائهـــا

نظل بها حتى عام ١٧٥٤م ، اذ ان الرجل عاش مدرسا خاصا من ١٧٤٦ حتى ١٧٥٤ قرابة تسع سنوات لدى عائلات نبيلة مختلفة ، وان لم يكن بارعا فى تدريسه ، لكنه استطاع أن ينفخ من أمله فى العديد من الطلاب الموهوبين الذين صاروا ينظرون للحرية نظرة أخرى ، بعد أن بث فيهم شعورا عميقا بها ، وتقديرا عظيما للقيم الانسانية حتى كانوا نواة تحرير العبيد فى بلادهم ، وقادة المدن ورؤسائها فيما بعد .

(٥)

ب — محاضرا خارجيا :

سلف القول بحصول كانت على درجة الدكتوراه ، وكان نظام العمل بالجامعة يسمح بتقبل محاضرين من الخارج يحملون الدكتوراه فى التخصص لأن هؤلاء المحاضرين كانت تدفع أجورهم من خلال الطلاب الذين يتلقون العلم عنهم ، وكلما كثر تلاميذ المحاضر كلما زاد دخله المالى والعكس بالعكس ، بيد أن كانت لم يكن محاضرا بارعا بقدر ماكان متقنا علمه وعمله وبالتالى فلم تكن لديه القدرة الكافية على توصيل المعلومات — أول الأمر — بالقدر الكافى مما دعا بعض الطلاب للخروج عليه وعدم الالتفات له ، وأدرك الرجل أن أفكاره عميقة ولابد له من تبسيطها حتى تلائم أفكار الطلاب الذين يتلقون العلم عنه ، وبخاصة أن المعلومات الرياضية والجغرافية والفلسفة التى كان يقوم بتدريسها كان يحيط بها بعض الغموض — فاستعمل

لغة الحوار ، والألفاظ المتداولة حتى تمكن من بلوغ غايته .

(٦)

ويبدو أن الأمر طال به على هذا العهد قرابة خمسة عشر عاما يعمل فيها محاضرا من الخارج ، ويحصل تكاليف المعيشة من طلابه الذين يدرس لهم ، وقد وجد كانت فى وظيفة محاضر من الخارج وسيلة ثابتة تضمن له حياة كريمة ، فتهيأت نفسه لكتب العلم أكثر من ذى قبل وانطلق الى مباحثه الميتافيزيقية والفيزيقية على السواء حتى أخرج العديد من الكتب ، وألقى الكثير من المحاضرات ، وحضر الأكثر من الندوات وهو فى ذات الوقت يمثل وظيفة محاضر من الخارج .

ج — مدرسا بالجامعة : وجد القائمون على أمر الجامعة فى كانت أسلوب العالم ، ودقة الباحث ، وانتظام الملتزم بجانب أن بعضا من ذيوع الشهرة وبُعد الصيت بدأ ينتشر حوله فعين بالجامعة مدرسا وكانت اراؤه النقدية على كل من هويز ونيوتن بدأت تذاع ، كما أن ملاحقاته على غيرهما من علماء الطبيعة والفلك والرياضة راحت تعبئ المجتمع وتوحى بثورة أخلاقية وتقدمية يقودها كانت وتلاميذه ، وكان قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره ، وبجانب تدريسه للرياضيات والعلوم الطبيعية كان يلقى بعض المحاضرات فى الجغرافيا الطبيعية .

د — أمينا مساعدا للمكتبة العلمية :

لم تعق أعمال كانت العلمية بالجامعة من الاشتراك فى أعمال علمية أخرى ، اذ أصبح بجانب عمله بالجامعة الأمين المساعد للمكتبة الملكيـة وكان يتولى بصفة خاصة الاشراف على مجموعات التاريخ الطبيعى مما دفعه الى دراسة علم المعادن واستفاد من عمله هذا كثيرا حتى أنه يسر لـــه الحصول على كافة المصادر المطلوبة فى أبحاثه العلمية ٠

وعلى ماييدو فان شهرة كانت قد اتسعت وبدأت بعض الجامعات تود لو أنه درس لطلابها ، وكان الرجل يرى أن استاذيته بجامعة كونجسبرج لاتعد لها أية وظيفة أخرى لذا نراه رفض العديد من الوظائف بالجامعات الأخرى آملا أن يتولى عمل الاستاذ بكونجسبرج وقد تحقق له أمله مما يجعلنا نشير الى بعض هذه الجامعات وموقفه منها ٠

١ — جامعة أرلنجن : عرضت عليه الجامعة فى ١٧٦٩م تولى وظيفة استاذ للفلسفة النظرية — المنطق وما بعد الطبيعة — ولكنه رفض هذا العــرض لأنه رأى فيه عدم ملائمة بين امكانياته ومتطلبات الوظيفة الجديدة ، التى ربما عاقته عن استكمال مشروعاته العلمية والأخلاقية ٠

٢ — جامعة ييــنا : تقدمت جامعة ييـنا بعرض طالبة كانت للعمل بهـا استاذا للفلسفة ، وكانت شهرته قد غطت ألمانيا كلها وراحت الجامعـات

تتنافس على وجوده وبخاصة بعد أن أصبح معقد الآمال فى اصـــلاح سياسة التعليم بألمانيا لما امتاز به من دقة ونظام وعمق بحث ، ولكنـــه رفض العمل بجامعة يينا كما رفض من قبل العمل بجامعة أرلنجن .

٣ — جامعة هالة : ما ان بدأ نجم كانت يصعد والجامعات تتنافـــس عليه حتى دخلت وزارة التربية ذلك التنافس حتى ان وزير التربية آنئـــذ — كارل ابراهام — أراد أن يتولى كانت عملية الاصـــلاح التربوى هذه ، وذلك بانتقاله الى جامعة هالة بمرتب ضخم ماكان يحلم به الوزير نفســـه لو كان فى درجة استاذا بالجامعة ، وكان العرض مغريا من الناحيـــة المالية ولكن كانت اعتذر وفضل أن يبقى بمدينته التى أحبها من قلبـــه ولم يبرحها الا فى رحلات قليلة .

هـ — استاذ بجامعة كونجسبرج :

ويبدو أن الملك فردريك الثانى شعـــر بحاجة الجامعة الملكيـــة لخدمات كانت فعينه الملك فى وظيفة استاذ بجامعة — كونجسبرج — وذلك اعتبارا من ٣١ مارس ١٧٧٠ وذلك بعد أن تقدم برسالته التى نال بهـــا اللقب العلمى كشكل من الأشكال التقليدية فى الجامعة وظل يمارس هـذا العمل العلمى الدقيق حتى تركها مختارا بعد تجاوزه سن الثانيـــة والسبعين .

ويبدو أن الرجل أكتسب خبرة في عمله الجامعي ، أو أن خبرته كانت كامنة حتى أبرزتها استاذيته ، في جامعة كونجسبرج ، فاهتم بمحاضراته في الميتافيزيقا واللاهوت ، وحاول أنبهارة العقول في المسائل الدينية لأن كانت نفسه كان من أنصار حركة التنوير الأوربية ، بل ومن أعظم رجالاتها وكانت امكانياته في المسائل اللاهوتية أقل منها في الميتافيزقية ، اذ أنه في الميتافيزيقا كان ينال رضى الحاضرين ، وفي اللاهوتية كان ينفلت منه الحاضرون ٠

أجل ٠ كان في المسائل غير اللاهوتية بارعا يستطيع أنتزاع الاعجاب من سامعيه الذين كانوا لايجدون حرجا في ابراز حبهم الشديد له وتعلقهم به وكانت ثقافته المتنوعة من أهم العوامل التي جذبت اليه مستمعيه الذين ، كانوا يرون فيه مثالا للعلم والمعرفة والقيم الأخلاقية ٠

و — مديرا للجامعة :

ظل كانت متمسكا بنظامه الخاص وأبحاثه العلمية الفذة ، وأستاذية فاقت الكثيرين من معاصريه ، وما هي الا فترة حتى تولى فيها قيادة — الجامعة العريقة — حيث عين مديرا لها ، وظل على هذا المنوال حتى تقدمت به السن وبلغ الثانية والسبعين من عمره فترك الجامعة مختارا في ١٧ يونية ١٧٩٧م بعد وداع حافل من طلبتها وأساتذتها ، وقد سار

الطلبة حين وداعه فى جمع حاشد من الجامعة الى منزله يعزفون الألحان ويلقون الأشعار ، مدحا فى أعظم أساتذة عصره (١) .

عواطفــه واجتماعياته :

(١)

ظن البعض من مؤرخى الفلسفة أنه من العيب ذكر عواطف الفيلسـوف وكأنه جماد لاحس فيه ولاحركة ، كما قد يغفلون ما يتعلق به من النواحى الاجتماعية خشية أن تنال من عبقريته أو تسقط بيـن الناس قدره ، وهـم ليسوا على صواب ، لأن الفيلسوف بشر ، انسان يتحرك قلبه وعقله وعواطفه معا فاذا أهمل أحدهما فقد أصاب الكل بالشلل .

أما كانت فقد زعم البعض أنه نذر حياته للعلم والبحث عن الحقيقــة وعاش منعزلا متوحدا بعيدا عن الناس ، وهذا الزعم غير صواب لأن كانـت كما هو الثابت بما كتب عنه كان له أصدقاء يحب أن يعيش معهم ويتــردد عليهم ، وكيف لا وقد عاش حياة برجوازية حين كان مدرسا لأبناء النبــلاء فى بروسيا ، أكسبته فن معاملة الآخرين ، وافادته كيفية جمع الأصدقــاء وصار صاحب خبرة بأساليب المجتمع مما اكسبه طابعا بورجوازيا مهذبـــا وصفه لنا الكثيرون من عارفيه (٢) وأنه كان رجلا اجتماعيا من الطراز الأول .

---

(١) الدكتوره / نازلى اسماعيل ص ٢٥

(٢) دكتور / زكريا ابراهيم — كانت ص ٣٨

(٢)

على الرغم من أن الرجل كان يُحَكِّم عقله فى كل شىء فان عواطفه كانت تسير معه بنفس الاتجاه ، وان كان البعض يحاول اهمالها ، وربما تسأل ما الدليل على أن عواطفه كانت تسير فى اتجاه عقله ؟ والجواب : أن كانت عرفه أصدقاؤه فلعب معهم وكان يدعوهم للغداء والعشاء عنده ، بل وكان من أصدقائه الأثرياء النبلاء ، والكادحين الفرباء وأهل الفن وحارس الحدائق .

(٣)

بل أكثر من ذلك كانت هناك اشارات يتناقلها بعض الرهبان " العلم يضيع بين أفخاذ النساء " الا أن كانت يخالف هذا الفهم ويفكر فى الزواج أكثر من مرة ، بل وحاوله ، وقد اشتهر عنه أنه حاول هذا الأمر مرتين — أمر الزواج — وهما :

الأولى : رغبته الزواج من أرملة جميلة : كانت هذه المرأة جميلة أخذت بألباب الرجل ، وجاءت لزيارة أهلها بكونجسبرج ، وكان جمالها الخلاب قد استولى على تفكيره وانتصرت العاطفة على السكون الهادىء ، فجمع الرجل أشتات نفسه وذهب لخطبتها لكن لم يقدر له الزواج منها ، لأنها كانت جميلة وثرية وقد أقبل عليها غيره ، فتزوجت قبل أن يخطبها كانت لنفسه .

الثانية : رغبته الزواج بفتاة مرافقة لنبيلة : أجل الحب لايعرف الحدود ولا الفوارق ولايقر الصيحات الشاذ التى تطلق معبرة عن قيود يجب التزامها ، وهذا ماوقع فيه كانت نفسه ، اذ أقبل على كونجسبرج ضيفان فتاة مرافقة لسيدة نبيلة تعيش فى مملكتها بغرب بروسيا ، ألتقى بهما الفيلسوف أثناء زيارتهما لكونجسبرج وجذبه جمال الفتاة ، ورغم أنها خادمة — اتخذ قرارا بالزواج منها واستشار مشاعره ، التى راحت تقلقه ، وبينما هو يفكر فى كيفية تحقيق الهدف ، اذا بالأنباء تنقل اليه أن الضيفتين غادرا المدينة على عجل ، ولم يفز " كانت بالزواج من الفتاة التى أحبها قلبه وملكت عليه فؤاده » (١) وكانت الأخلاق فى نظر الفيلسوف هى مبعث احترام الانسان وتقديره ٠

(٤)

أجل كان النظام الصارم فى حياة كانت مسألة مفروغ منها ، انه صاحب الواجب الأخلاقى فكيف لايطبق ذلك فى حياته كان الرجل يستيقظ مبكرا الخامسة صباحا صيفا أو شتاءا ويلقى محاضراته بين السادسة والسابعة صباحا حتى التاسعة أو العاشرة وبعدها يعود لمكتبه يعمل حتى الواحدة فيحضر اليه أصدقاؤه ويتناول معهم الغداء ، أما فى الرابعة ظهرا فكان يخرج متريضا ساعة فى طريق عرف باسم طريق نزهة الأستاذ ، ثم يعود الى

---

(١) الدكتورة / نازلى اسماعيل ص ١٥ الهامش

العمل حتى العاشرة مساءا ، وكان هذا النظام الصارم مسألة حيـــاة حتى قيل أن مواطنيه كانوا يرون الرجل منضبطا الى الحد الذى كانـــوا يعتبرونه ميقاتا تضبط عليه سلوكياتهم فى غدوه ورواحه حتى قال أحد معارفه لا أظن أن ساعة كاتدرائية كونجسبرج الكبيرة تؤدى عملها بصورة أكثـــر انتظاما ودقة من مواظبتها لكانت ، لقد كان الرجل يردد : ان ما سيحدث لنا بعد الموت لهو سر مطوى فى ظلام دامس ، أما الشىء الوحيد الـذى نحن على ثقة منه فهو الواجب الذى يتوقع منا الآخرون أن نؤديه ، وقـــد أخلص الرجل لما كان ينادى به فاستحق التكريم الذى يناسبه .

(ب) وفاتـــــه :

قضى كانت قرابة الثمانى سنوات بعد تفرغه من العمل بالجامعة يكتب وينشر حتى أنها لتعد من أكثر مراحل حياته خصوبة رغم تجاوزه السبعيـن وان كانت بعض الابحاث عنده قد تميزت بطابع روحانى ، وبعد بلوغـــه سن الثمانين امتدت اليه الشيخوخة ، فضعف بصره حتى عجز عن القـراءة واهتزت يداه فلم تقو على الكتابة ، ونحل جسمه فلم يقدر على الاحتمال .

وفى الثامن من أكتوبر عام ١٨٠٣م اشتدت عليه وطأة المرض ، وظـل يعانى آلامها حتى أسلم الروح فى ١٢ فبراير ١٨٠٤م فى الحادية عشـر صباحا بعد حياة حافلة بالجد والاجتهاد ، والأصدقاء ، والأعداء ، بين

صداقة الفقراء وزمالة النبلاء .

ويبدو أن أهل المدينة شعروا بالفخر لوجود كانت بينهم فلما أذيع عليهم خبر موته ، هالهم الأمر فخرجوا عن بكرة أبيهم يودعون فيلسوفهم الذى يمثل فى نظرهم الفكر الحر ومناصرة حقوق الانسان ، بجانب الانضباط والاحساس بالمسئولية ، وكان تعبير أهل مدينة كونجسبرج دليلا على أنهم تعلقوا بالرجل فى حياته وحزنوا عليه لوفاته .

أما فى الجامعة فكان الأمر تكريما كبيرا حيث لم تنس الجامعة الملكية أستاذها ومديرها فقامت على تكريمه فى وفاته كما كرم فى كيانه ، فما كان من طلابه الا أن حملوه على الاعناق وساروا به حتى كنيسة الجامعة ، وكان فى انتظارهم راعى الكنيسة الذى أدى الصلاة ومن خلفه جموع تنظر الى الجسد المسجى وقد ودع الحياة ، وهاهو القس يسمعه عظاته - رغم أنفه - التى كان ينفر منها ، وكأن كانت صاحب حركة التنوير يواجه قس الكنيسة ميتا كما كان ينتقدهم حيا ، فما أن انتهى القس من صلاته حتى شعر بألم شديد ، وصداع لم يسبق له مثيل نقل بعده الى المستشفى .

وكان المثال " هيجمان " قد صنع لكانت تمثالا اهداه له وأعجب به فقامت الجامعة بوضع هذا التمثال فى مدخل الجامعة تقديرا للرجل الذى علم أبناءها ، وحافظ هيبة العلم ، وانتصر لرأى العقل والتجربة ، أما

رفاته فقد وضع في المدفن الملحق بالجامعة المعروف باسم تبة الاستاذ.

وإذا كان الناس يهملون إعادة عظمائهم ، فان أهل مدينة كونجسبرج وطلاب جامعتها لم يصبهم هذا التقليد ولم ينل منهم ذلك الاهمال فاحتفلت الجامعة بمرور مائة عام على وفاته ١٩٠٤م ، ونقل رفاته من تبة الاستاذ الى الأعمدة الخارجية لكاتدرائية كونجسبرج ، ونقشت على قبره العبارة التي كان يرددها كثيرا " شيئان يملآن نفسي اعجابا السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي ، والقانون الأخلاقي في قلبي " .

وهكذا انتهت حياة كانت الحافلة ، والتي حاولت تقديم بعض الجوانب فيها ، مذكرا أن الرجل نال احترام الكثير ، وخصومة الأقل ، وحب بعض وبغض آخرين ، فلاغرو أن تكون حياته مادة حافلة بالاثارة والمغامرة ، وأن تكون مؤلفاته حافلة بالغموض والافصاح ، وهذا ماعبر به عن نفسه حين قال : " ان مؤلفاتي لن تفهم الا بعد مائة سنة ، ويبدو أنه قصد من عدم فهمها الجانب التطبيقي الذي تمت معالجته وتطبيقه فيما بعد . فما هي مراحله الفكرية ؟

* مراحـــــله الفكريـــــة :

من المعلوم أن المفكر لاينشأ من فراغ ، ولايقذفه رحم أمه عالما ومفكرا ولاتنبته الأرض مفكرا ، وانما لابد أن يمر بمراحل عديدة كل منها تؤدى — دورها فيه — حتى اذا اكتمل عوده ، واستوى ساقه بدأ يخرج علما وفنـــا وحكمة ، وهذه المراحل المعرفية الفكرية غير المراحل الجسدية التى لسنا بصدد الحديث عنها ، أما المراحل الفكرية المعرفية فهى :

(١) مرحلة التلقين :

وهى مرحلة الطفولة فى السن الأولى حيث يحاول الطفل التعرف على الأشياء ، والسؤال عن اسمائها ، ويحاول الجمع بين المعارف التى تساق اليه ، حيث يبدأ بالنطق ، ورسم الصور المادية فى أشياء معنوية داخـــل ذهنه ، فاذا عبر عنها خرجت كلمات ومفردات قد لقنها من والديه والاقربين ممن يتولون أمره .

(٢) مرحلة التلقـى والحفظ:

وهى التى يميز فيها الأشياء وينزعها حتى يمكنه التعبير عنها اذا طلب منه ، فهى مرحلة يتلقى فيها العلوم والمعارف ، وتتولى ذاكرته حفظها على ماهى عليه ، انه يراجعها وهى فى عقله الغض منتصبة على قدم وساق ، وهذه المرحلة ربما امتدت مع بعض الناس حتى الوفاة متى كانوا خاملـــى

الذهن ، لاحيلة لهم الا الحفظ والتلقى والتكرار .

وفى هذه المرحلة ينشط الذهن وينقدح الفكر ، حتى يكتسب معلومات أكثر ، وكلما تلقى أكثر كانت معارفه ومعلوماته بنفس الكثرة شريطة أن يكون العقل ، قوى المدارك صحيح الحواس ، بغض النظر عن أن تكون معارفه صحيحة أم خاطئة ، انه كجهاز التسجيل يسجل كل ما يصل الى حواسه ، ولذلك فهى مرحلة تلق وحفظ ليس الا .

وربما تسألنى مثالا : فأقول ، تلاميذ المدارس ، وأطفال مكاتب حفظ القرآن الكريم ، انهم يتلقون معلومات ، ويحفظون سور القرآن الكريم وآياته ، لكنهم لايفهمون معنى ما قد حفظوا ، انهم يرددون من خلال قدرتهم على الحفظ ليس الا ، بدليل أنك لو سألت أحدهم عن معانى ماقد حفظ ، وطلبت منه تصويره لما قد حفظ ، أو فهمه لما أخفاه فى عقله ترى العجز أداته .

وهى من أخطر المراحل الفكرية ، متى كانت تعبئتها خاطئة أو صاحبها لم يرفع عقله الى نقدها أو النظر فيها ، أو التأكد من سلامتها باستثناء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، لأنها حقائق مسلمة يقينية أنزلها رب العالمين على قلب رسوله الأمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والتابعين .

(٣) مرحلة النقد والموازنة :

وهى المرحلة المهمة فى جميع الحالات ، انها مرحلة متميزة بطابع النظر العقلى الحر ، الذى استوى عوده ، وصار قديرا بالنظر فى كل المعلومات وعرضها على دائرة البحث ، والنظر فيها بعين ناقدة قد استوت عندها كل المقومات ، فصارت ميزانا صحيحا ودقيقا توزن به الأفكار وتقيّم الآراء والاتجاهات ، انها مرحلة قد يغلب فيها الشك فيه مسر كل المعلومات ، صح منها ومالم يصح ، وقد يستسلم صاحبها للأحلام والرؤى فتظل معلوماته كما هى لاينقدها أو يقيمها ، والأمران شطط وغلو ، انها ثورة الشباب المندفع ، والفكر المغرور الذى لايرتجع .

بيد أنه لو نظر الى معلوماته نظرة الخبير لِمَا يقدم عليه ، البصير لما ينظر اليه ، فوضعها موضع النقد والموازنة ، وأسقطها من دائرة العصمة التى استولت على ذاكرته منذ طفولته الغضة وصباه الفج ، فانه حتما لن يقبل منها الا ماكان صحيحا فى نفسه ، سليما من شوائب الجهل والضلال ، خاليا من أوجه القلق والاضطراب ، وتلك هى الميزة فى مرحلة النقد والموازنة .

ولكنى استثنى مما يوضع موضع النقد والموازنة النقل المنزل ، قرآنا كريما وسنة مطهرة - أما ماعداهما فلا مانع عندى من انزاله الى دائرة البحث لأنه مازاد عن كونه فكرا بشريا يؤخذ منه ويرد عليه . وفى هذه

المرحلة تكثر الخصومات ، وتظهر العداوات ، وتقع بين المفكرين الاختلافات الا من عصم الله من المؤمنين والمؤمنات ٠

(٤) مرحلة الابداع :

وهى مرحلة مهمة لأنها تظهر فكر الفيلسوف ، وفقه المفكر ، انها نتائج لما سبق ، وتجارب لما قد انتهى ، وعصارة لفكر هضم فى سنوات العمر الطويلة ، وفى مراحل الحياة المتتالية ، وهذه المرحلة بجانب أنها تطلعنا على فكر المفكر وابداعات الفيلسوف ، وعصارة اجتهادات الفقيه ، فانها كذلك تقدم خدمات جليلة للانسانية التى سوف تستفيد من هذا المفكر ، وذلك الفقيه ، وتسترشد به فى رحلة حياتها الطويلة ٠

وهذه المرحلة الابداعية فيها نوع من الجرأة والثقة بجانب اسقاط فكرة الخوف ، لأنها تأتى -فى الغالب- بعد أن يكون نجمه قد سطع وشمسه على المدائن قد ظهرت ، وراح الناس يتطلعون اليه أملا أن يراود أحلامهم ومنقذا يأخذهم الى الخير من تلابيبهم ، فهم له ينظرون ، والى ابداعاته يتطلعون ، وحول نتائجها يقبلون أو يدبرون ، وقد يتفقون عليها أو يختلفون مع أنها عصارة فكر ، ونتاج ذهن ، وخلاصة تجارب ٠

كما أن مرحلة الابداع -بجانب ما مضى- تجعل المرء يستقبل حوادث الحال والمستقبل برؤية أكثر وضوحا ، فيصدر أحكاما فيها الرويه والتعقل

تارة باعتبار ثقافته ومخزونها ، وأخرى باعتبار سنه وبدلولها ، وثالثة باعتبار قدرته على امتصاص الظواهر واجترارها بعد مضغها وتحليلها وهضمها واخراج لبنها من فرثها ، وتلك مهمة نبيلة ، وغاية كريمة ، متى كانت فى صالح البشرية ، وبعيدا عن اغضاب رب البرية .

انها مرحلة تبدو فيها المتمايزات على ما هى عليه ، لاخلط فيها ولا هبل ، انها قد ميزت بميزان النقد وحكم عليها من خلال الموازنة التى تمت فى المرحلة الثالثة ، وبالتالى فالأفكار والنتائج التى يدونها المفكر والفيلسوف ، تمثل عصارة ذهنية لمعلومات بشرية ، كما تمثل آراء استقرت ونتائج قد قرت ، وخبرات من قيود الرغبة قد تحررت ، ولذا فهى مرحلة مهمة جدا .

واذا نحن ذهبنا نتلمس المراحل السابقة فى حياة عمانويل كانت لنرى هل تنطبق عليه أم لا ؟ فاننا نراها بالنسبة له واضحة ، وان اتسمت بالغموض والتلوى فى بعض مظاهرها ، والشدة والصرامة فى مظهر آخر أو اللولبية والاختباء من تيار العنف ، تحت راية تنحنى الرؤس حتى تنتهى العواصف مما يجعلنا نذكر مراحله الفكرية على النحو التالى :

(١) مرحلة التلقين (١٧٢٥ - ١٧٣٠م) :

هذه المرحلة كانت قوية ومؤثرة فى حياته ، أنها المرحلة التى عنيت فيها أمه بتلقينه كل ما تقع عليه عيناه ، وتعريفه بكل ما يطرأ بخلدها ،

لقد كانت ترضعه لبنها وأفكارها معا ، حتى قيل : أن أمه كانت تهدهده ، رضيعا بعبارات من نصوص الانجيل ، وتضحكه بشعائر المسيحية ، وتخيفه بغضب الرب عليه ، وتجعل سلواه تأمل أجزاء البيت الهادى' .

وقد استمرت هذه المرحلة عنده قرابة الست سنوات ، كان الفتى فيها مجرد صغير لايدرك ما حوله ولايعيه ولكنه يحاول التعرف عليه ، وكـــان لهذه المرحلة أثر قوى فعال فى حياة الفتى ظل يلازمه حتى وافاه أجله . لقد حفرت أمه فى قلبه حب الواجب ، والتمسك بالأخلاق ، والانطلاق نحو الحرية ، والتعبير عن كل ما يجيش بداخله ، وربما كانت هذه الفترة فـــى حياة الفتى من الثراء بمكان ، ولذلك كان أثرها فى حياته بارزا اذ تفتحت عيناه على حب الطبيعة والمعرفة .

(٢) مرحلة التلقى والحفظ (١٧٣٠ — ١٧٤٠م) :

أجل ترعرع الفتى فى جو من الأخلاق الرفيعة ، والقيم النبيلـــة ، والمشاعر الدينية السامية ، وكان لذلك أثر فى حياته الفكرية حيث رصدت الأسرة الفتى نابغا ذكيا فألحقته بالمدرسة التابعة لمستشفى القديـــس جورج تلقى فيها الفتى الحساب والديانة المسيحية ، وفى كلية الملـــك فردريك تعلم اللغة اللاتينية كتابة وثقافة وشعرا ، كما تلقى دراسة عـــن علوم القدماء ومعارفهم وفنونهم ، وكانت هذه المرحلة هى التى اختزن فيها الفتى معلومات ليست كثيرة وان كانت مهمة ظهر أثرها فيما بعد عليه .

(٣) مرحلة النقد والموازنة (١٧٤٠ — ١٧٥٥م):

وهذه المرحلة اختلطت فيها الأوراق ، وتداخلت الخطوط ، اذ تبدأ معه حين التحق بجامعة كونجسبرج — كلية الملك ألبرت — وكانت سنه قد بلغت السابعة عشرة تقريبا ، فتعلم فى هذه الكلية الفلسفة ، واللاهوت والرياضة ، وبدأ يفحص اساتذته فيعجب بهذا وينفر من ذاك ، حيث اعجب بمارتن كنوتسن وطريقته فى فهم فلسفة ليبنتس ، وكذلك الأصول الرياضية التى يبنى عليها العلم الطبيعى عند نيوتن حتى أخذ عنه كانت كثيرا من آرائه ، بينما لم يعجب بشخصية شولتس استاذ علم اللاهوت وكان ينفر منه .

وهذه المرحلة تمكن فيها الفتى من مراجعة أوراقه ، ونقد أفكاره وفحص معلوماته ، وعرض نتائج ما توصل اليه على اساتذته الذين وثق بهم وتطلع اليهم ، حتى حين كان يعمل مدرسا خصوصيا — بعد انقطاعه عن الدراسة لموت أبيه وانقطاع مصدر الرزق — فقد كان فى ذهن الفتى من المعلومات ما يحتاج الى المزيد من المراجعة ، وفى نفس الوقت تمكن من ملكة النقد للأفكار المعروضة ، والموازنة بينها ، بل صار كالصائغ الماهر الذى تعرض عليه مكونات الذهب فيميز بين أجزائها ، ويتعرف عليها .

ومن غير شك أن أبرز مظاهر تلك الفترة هو تمكن الفتى من القيام ببحثه للدكتوراه فى فلسفة الطبيعة والعرض البسيط والأساسى جدا للفلسفة ،

وحديثه عن النار ثبت أن الفتى قد تمكنت منه هذه المرحلة ، وأنه تشبع من العلوم والمعارف وتمكن من النظر اليها من زاوية أخرى ، بعيدا عن مجرد التلقين الذى شغل المرحلة الأولى من فكره ، كما أنها غير مرحلة التلقى والحفظ التى ملأت عشر سنوات من عمره ، ومن ثم يمكن القول بأنها مرحلة كانت ضرورية ، وان كانت بشائر الابداع الفكرى قد بدأت التسلسل اليها .

(٤) مرحلة الابداع الفكرى (١٧٥٥ —١٨٠٣) :

هذه المرحلة ربما لن تجد حوائط مانعة بينها وسابقتها ، انها خيوط رقيقة ، لكن هذه المرحلة الابداعية كانت أكثر المراحل خصوبة فى حياته . خصوبة فى الفكر حيث انتج كل مؤلفاته وتحدث بكل مقالاته ، واقام كافة بحوثه ، وانتفض لكل ما تقتضيه طبيعة البحث العلمى من جد وبحث ونشاط ، وتأليف فى كافة النواحى الفكرية ، خصوبة فى قدرته على التدريس لطلابه ، خصوبة فى معارفه وأصدقائه ، وعلاقاته الاجتماعية ، خصوبة فى عواطفه ووجدانه ، انها مرحلة ابداع فى كل نواحيها ، بحيث يمكن اعتبارها أهم المراحل على الاطلاق .

تميزت هذه المرحلة بالتعقل والروية ، ولم تمتد اليها اندفاعات الشباب وثورته ، وانما حكمة الشيوخ وتعقله ، ولذا نرى للرجل فى هذه المرحلة كل ابداعاته الفنية والأدبية والفكرية والعلمية على السواء ، وظل

يمارس هذا الابداع حتى قبيل وفاته بقليل ، اذن يمكن اعتبار هـــذه المرحلة الأخيرة هي المعول عليه في التعرف على فلسفة الرجل وأفكاره وان كانت هناك بعض المباحث والمشروعات التي وضعت في المرحلـــــة السابقة لكنها لاتعدو أن تكون خطط بحث ، أو مشروع كتاب ليس الا ، وانما المهم هو المرحلة الابداعية وهذا ما ظهر في مؤلفاته التي ذكرت مقرونة بسنواتها .

(جـ) مؤلفاتـــــه :

تعددت مؤلفات الرجل وتنوعت بحيث شملت موضوعات لاهوتيـــــة وميتافيزيقية ورياضية وفيزيقية كذلك ، بل وفي الحب والجمال والملكـــات الانسانية ، كما ألف في السياسة والأخلاق ، بحيث يمكن أن يقال : أن الرجل حاول أن تغطى مؤلفاته كل المعارف الانسانية من وجهة نظـره .

انها مجموعة من الكتب والمؤلفات والمقالات التي تمثل حياته الفكرية ، وقد جمعها أحد الدارسين لفكره (١) فكانت قرابة الستين ، بين كتـــاب وبحث ، ومقال ، سواء ابداعا ، أو شرحا وتعليقا ، أو ردودا ، أو اعتراضات ، غير أنها كلها لاتكوّن فلسفته ، وانما تقوم فلسفته على بعـض منها ، لأنه مؤلف شامل ، من ثم لن نهتم بمؤلفاته الا التي تقدم لنـــا فلسفته أو تحملها الينا .

---

(١) د / زكريا ابراهيم — كانت أو الفلسفة النقدية ص ٣٢٩/٣٤٢ حيث قام بجمعها وتدوين السنة التي نشر فيها فليرجع اليها من شاء ، أمـا نحن فسنولي عناية بما يمثل فلسفته منها .

وسنحاول القاء الضوء على أبرز هذه الكتب ، وأهم تلك الرسائل وأقرب المقالات والمحاضرات الى روحه الفكرية ، لأنها تحمل رأيه في حل مشاكل الميتافيزيقا ، والسياسة والأخلاق ، ومشاكل الكون العويصة فما هي فلسفته ؟

((الخاطر التاسع))

(فلسفة عمانويل كانت)

((ثانيا : فلسفة عمانويل كانت))

لعلنا لاحظنا أن الفلاسفة الذين سبقت دراستهم — تاريخا وفلسفة — كانت فلسفاتهم تأتي عند السياسة وتلتزم الصمت ، أو يخضعون الفلسفة لخدمة السياسة ، أو يجعلون السياسة منطقة نفوذ تخص السلطة حتى اذا تناولها أحدهم كان لمسا خفيفا . فمثلا :

١ — فرنسيس بيكون : اشترى راحة باله بأخلاقه الشخصية ، ومواقفه مع الملكة اليصابات على حساب الحقيقة لا تخفى ، بل أن دعمه للأسرة الحاكمة وانشاءه سر أرل أسكس وحكمه عليه ليقيد الأحرار ويدفن في نفوسهم الثورة ، لأبلغ دليل على أنه جعل الفلسفة لخدمة السياسة .

٢ — توماس هوبس : اشترى راحة نفسه ببيع الفلسفة للسياسة حتى رأيناه يقدم فلسفة ملوكية تدعم سلطة الملك ، وتخضع المجتمع والكنيسة ذاتها ورجالها بل والدين نفسه الى سلطة الحاكم ، انه نادى "الناس على دين ملوكهم" . ان الملك في نظره هو المثال الأعلى للديمقراطية ، وبالتالي فلم يقترب بفلسفته من السلطة إلا للتأييد فقط ، ولم يفكر في نقدها أبدا .

٣ — رينيه ديكارت : اشترى راحة نفسه بصمته المطلق ، انه لم يقترب من ساحة السياسة ، بل كان خادما لها ، انه وظف بعض فلسفته

لصالح السلطة ورجال الكنيسة ، انه يخاف على نفسه ويرجو راحتها .

أما كانت فالحال معه اختلف ، انه تكلم فى السياسة وكتب فيهـــا ، وعرض نفسه لسخط الامبراطور فردريك وليام حتى عرض نفسه للاعدام وتحديد الاقامة الجبرية ، ومع هذا لم يسكت قلمه وان كان صوته قد اختفى فترة ثم عاد لممارسة نشاطه السياسى بعد موت وليام نفسه .

أ — علاقة فلسفته بمؤلفاتـه :

أجل ترك كانت فلسفة ناعمة فيها ثراء وخصوبة مع دقة وجدة فى بعض الأحيان ، ولئن كانت مؤلفاته الخصبة قد حملت لنا فى مجملها تلـــك الفلسفة ، فانه من الأحرى أن نتناول فلسفته من خلال مؤلفاته ، ولايمنـع هذا من تقديم فكرة عامة عن المؤلفات التى خصها بالنظر الفلسفى وحـده ، على النحو التالى :

١ — كتاب : نقد العقل الخالص :

منهج الكتاب يقوم على محاولة وضع الانسان أمام امتحان صعب ، انه امتحان لطريقته فى الحياة ، والنتائج التى توصل اليها ، وبالتالى فـان مهمة الكتاب والغاية التى ينشدها كانت من ورائه هى تمحيص العقل تمحيصا دقيقا واختبار كافة النتائج التى توصل اليها .

وهذا الكتاب فى حد ذاته ربما أعتبر أهم كتب كانت وأكثرها غموضـــا حتى أن من دفع اليهم لقراءته جاءت آراؤهم حوله متباينة ، فمثلا :

دفع كانت الكتاب الى صديقه الفيلسوف شوبنهاور ، حتى اذا انتهى من قراءته قرظه بقوله : ان هذا الكتاب ربما كان أهم كتاب ظهر في الأدب الألماني على الاطلاق ، وفي هذا تزكية للكتاب ومؤلفه معا ، لأنه اذا لحقت عظمة بكتاب فهي بمؤلفه أكثر التصاقا .

أما حين دفع الكتاب الى صديقه " ماركس هيرز " وكان من الأصدقاء المقربين له ، ظل يقرأ الكتاب بعناية ، وكان هيرز فيلسوفا كبيرا ، قرأ الرجل نصف الكتاب - قبل طبعه - ثم رده الى كانت وقد علق عليه بقوله : " انى أخشى على نفسي من الجنون اذا أنا واصلت القراءة في هذا الكتاب . أما لماذا ؟

فلأن أسلوبه معقد ، وقضاياه محيرة ، وفيه كثير من التشكيك حتى في المسلمات البدهية ، ومن ثم فلم يتمكن هيرز من مواصلة القراءة فيه رغم أنه أهم كتب كانت على الاطلاق .

٢ - كتاب " نقد العقل العملي " :

وهذا الكتاب مهد فيه الرجل لنظريته في الأخلاق ، فاذا كان الرجل في كتابه الأول - نقد العقل النظري - قد وجه فيه امتحانا للعقل وطالبه بالمنطق حتى يستدل ويستنتج ، فانه ههنا ينتقد فيه مايسمى بالحاسة الأخلاقية أو الضمير الأخلاقي ، بل ويوطئ في الكتاب لنظرية كاملة في الأخلاق .

٣ — دعائم ميتافيزيقا الأخلاق :

اذا كان الرجل قد وطأ في نقد العقل العلمي لنظرية الأخلاق فانه هنا يحاول بناء نظرية كاملة في الأخلاق ، بل انه عرضها بكل مافيها من تفاصيل ، اذن هناك شبه تكامل بين الكتابين الثاني والثالث بحيث يكون الأول تمهيدا للنظرية الأخلاقية والثاني عرضا لها .

٤ — نقد قوة الحكم :

وهذا الكتاب : يعرض فيه ملامح نظرية خاصة في الجمال من وجهة نظر كانت نفسه ، بعد استعراضه لكافة المدارس السابقة وان لم يبين عنها كما يحلل قوة الحكم على الأشياء لكن من ناحية جمالية وليس من ناحية تجريبية .

٥ — الدين في حدود العقل الخالص "النظري المنطقي" :

في هذا الكتاب ثأر كانت لنفسه من سلطة الكنيسة التي ذاق بعضا من جمودها حين كان طالبا بكلية الملك وليام ، حيث جاء هنا وشرح الدين المسيحي وانتقده وبيّن أنه لا يصمد لحظة أمام البحث الحر ، وكان بعض الخصوم لكانت قد دفعوا بالكتاب الى الملك فردريك وليام امبراطور — روسيا — وكان متشددا وعرف بمصادرته للحريات ، وكان الرجل يعرف ميول كانت التنويرية .

فما كان من وليام الا أن صادر الكتاب ، وحدد اقامة كانت ، وتُرِكَ حبيس بيته فترة ، لكن بعد فترة ظهر الكتاب مرة أخرى مطبوعا من جديد فثار القسس وطالبوا الامبراطور بمصادرته مرة أخرى ، ولكن مالبث الكتاب أن أعيد طبعه مرة ثالثة فى مقاطعة أخرى من ألمانيا ووصلت نسخة الى روسيا أيضا كأنها مسألة تحدى للكنيسة والامبراطور معا .

اغتاظ الامبراطور وليام جدا لوصول النسخ اليه ، فأرسل الى كانت رسالة قاسية العبارة شديدة اللهجة ، تنم عن جمود فكرى ، وتسلط امبراطورى يقول الامبراطور فى رسالته لكانت : " ان ذاتنا السامية قد ساءها اساءة بالغة ما تفعلونه ضد الدين المسيحى ونصوص الكتاب المقدس ، وان لم تستخدم فلسفتك فى دعم الدين المسيحى ، فتوقع من العواقب مالايرضى " .

ولم تكن المسألة من وليام نوعا من الولاء للدين المسيحى بقدر ما كانت محاولة لارضاء خصوم كانت على حساب البحث العلمى والحقيقة الماثلة بجانب تدخل ميول ونواح شخصية ، اذ أن كانت قد سبق له أن نشر رسالة صغيرة وفيها تعريض بالحكم ككل ، فأثارت هذه الرسالة حفيظة الملك على كانت ، ووجد خصومه فى الكتاب فرصتهم لتحريض الامبراطور عليه وقد كان لهم ماكان .

ولعل لهجة الرسالة وقسوتها لم تنل من كانت أول الأمر ، ففيها اتهامات عدة ، وتحذيرات كثيرة ، أما الاتهامات فمنها :

(١) اساءة استعماله الفلسفة .

(٢) محاولة زعزعة وتحطيم الكثير من أهم آراء الكتاب المقدس .

(٣) محاولة التشكيك في الديانة المسيحية .

(٤) تكديـر الأمن العـام .

أما التحذيرات منها :

(١) شرح موقفك فورا شرحا دقيقا .

(٢) الامتناع في المستقبل عن هذا الايذاء .

(٣) استخدام مواهبك فيما يتفق مع واجبك حتى يتيسر لنا القيام بواجبنا الأبوى .

(٤) اذا لم تستجب فتوقع من العواقب مالا تحمد عقباه .

وبعد و أن كانت ادرك ما ينطوى عليه الأمر فأجاب برسالة مكتوبة وأخرى شفوية ، أما المكتوبة فجاء فيها :

" سعادة الامبراطور ، كنت أحب أن يعمل كل فيلسوف ومفكر بما تطلعه الحقيقة ذاتها عليه ، أن يعمل بحرية وأن تكون له الحرية فى تكوين أحكامه عن الأمور الدينية ، كما يتاح له أمر اذاعته بين الناس ، لكـن

مادامت تلك هي الرغبة الملكية ، فأعد أنني سألتزم الصمت ، ولن أحيد عنه طالما أشار به الملك ، وفعلا وفى كانت بوعده ، ولزم الصمت لكن صمته لم يدم طويلا اذ سرعان ماخطف القدر هذا الامبراطور الطاغية وتولى العرش امبراطور متسامح فعاد كانت الى الكتابة والحركة الفكرية من جديد .

٦ — المبدأ الطبيعي للنظام السياسي وعلاقته بفكرة التاريخ الدولي العام :

واسم الرسالة طويل ، لكنها صغيرة عنى فيها بعرض نظريته فى السياسة ، ومترجموها قد أحسوا بهذا الطول فى العنوان فترجمت الى العربية تحت عنوان " دستور السلام الأبدى ، أو مشروع السلام الدائم " ، مع ملاحظة أن الترجمة الى السلام الأبدى فيها اخلال كبير ، بينما الترجمة الى السلام الدائم فيها نوع من التوفيق الذى يتلاءم مع أفكار كانت نفسها .

ما مضى كان أبرز الكتب الكانتية التى حملت آراءه الفلسفية من وجهة نظرى ، ولكن هناك ملاحظتان عامتان على مؤلفات كانت عموما هما :

(١) الملاحظة الأولى : شيوع مسألة النقد :

وشيوع مسألة النقد ماخلا منها كتاب كانتى ، سواء التى عنون لها بالنقد أو التى لم يعنون لها بنقد ، حتى أن الكتاب الذى لم يشتمل على كلمة نقد ، ترى فيه أيضا النقد ذاته .

(٢) الملاحظة الثانية : سريان الفلسفة فى كل مؤلفاته :

وتلك الملاحظة جديرة بالنظر لأن نظريات الفلسفة الثلاثة — الوجود والمعرفة ، والقيم ، دارت حولها تلك الكتب ، وكانت تشغله مسائل الحق ، والخير ، والجمال باعتبارها قيما ، ففى كتابه " نقد العقل العملى " تكلم عن الخير ونقد العقل الخالص كانت الاشارات الى الخير أما فى الرسالة التى خصها بالسياسة فقد تناول مسألة الحق ، أما فى الجمال فقد تناوله فى " نقد قوة الحكم " .

اذن نحن أمام فلسفة شاملة خصبة ، تمثل الأبعاد للفلسفة الحديثة فى أوربا ذاتها ، ومن خلال الكتب التى سلف ذكرها تستطيع استخلاص هيكل عام لفلسفة كانت على وجه العموم .

ب — أمثلة لفلسفته من مؤلفاته :

بعد تخرج كانت من الجامعة شغلت حياته فترة زمنية تقدر بسنوات ، بالنواحى العلمية ، وكانت له مجموعة من المحاضرات والمقالات والأبحاث الخاصة تكلم فيها عن الزلازل ، والرياح ، والبراكين ، والنار ، والأثير والأجناس البشرية ، وربما شغلته هذه النواحى وأخذت منه نصف حياته ، وله آراء تتسم بالطرافة والسبق مع الجدة ، وكلها داخلة فى المباحث الفلسفية .

ج — اجتهادات العلميـــة :

١ — سكنى الكواكب :

حاول كانت تقديم بعض الحلول للمشاكل التى تعترض طريقه ، ومما قرر فى بحثه عن الكواكب أنه لايوجد كوكب فيما عدا الشمس الا وفيـــه جماعات يسكنونه ، حتى مال الى أن بعض الكواكب فيها سكان أرقـــى بكثير من سكان كوكب الأرض ، لأن الكواكب أقدم من كوكب الأرض وأهلهـا أسبق فى التقدم والمدنية بحكم سبقهم لهم فى الوجود ، وقرر هذه الفكرة من خلال دراسته الخاصة ٠

بيد أنه فى هذه الفكرة مسبوق بما قرره علماء الاسلام قديما من ذلك مانسب الى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، أن هذه الأرضين السبع فيها خلق كخلقكم ، وأنبياء كأنبيائكم ، وفيهم معايش ولهم معاد ٠ اذن الفكرة عند كانت ليست نتاجا خالصا ٠

٢ — نظرية التطور :

فى كتابه الأجناس البشرية قرر كانت أن الانسان ينحدر من أصـــل حيوانى ، وأن هناك أوجه تشابه عديدة بين الانسان وبعض الحيـــوان كالقردة ، وكان هذا الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبته فى الجامعة فى العلم الطبيعى غير أنه فى هذه الفكرة قد سبق دارون فى

نظريته التى عرفت باسم تطور الكائنات ، أو النشوء والارتقاء ، أو الانتخاب الطبيعى التى أحدثت دويا هائلا فى أوربا الحديثة .

د ـ شخصيات أثرت أفكاره وأثرت فيه :

هناك شخصيات كثيرة أثرت الفكر الكانتى وأثرت فيه ، سبقت الاشارة الى بعضها ، الا أنه هنا يخص شخصيتين بالذكر هما : هيوم ، وروسو ونحن نذكر وجه تأثره .

(١) الشخصية الأولى : دافيد هيوم :

ترا كانت مؤلفات هيوم وشغلته هذه الكتب لدرجة أنه قال : ان هيوم أيقظنى من سبات عميق ، هيوم الذى شك فى كل شىء ، وأنكر وجود العقل الانسانى ، وشكك فى المعارف الانسانية كلها يقول كانت عنه أنه أيقظه من سبات عميق ، اذن أثر هيوم يقره كانت ولا ينكره ، وكان أثره واضحا فى نظرية كانت فى المعرفة .

(٢) الشخصية الثانية : جان جاك رسو :

روسو كانت له كتابات عاطفية مرهفة ، وحساسية بالغة مع فنية محكمة ، وأفكاره الأخلاقية الممتازة ، وقد تأثر كانت بروسو فى هذا الجانب لدرجة أن كانت ألغى برنامجه اليومى الذى كان حريصا عليه طوال حياته ، وهو

النزهة والسير على الأقدام ، شغلته قراءاته لروسو حتى ألغى هـــذا النظام اليومى تقريبا ، والسبب هو انشغاله بكتابات رسو ٠

لقد أدرك كانت أن كتابات روسو الأخلاقية والاجتماعية مليئة بالقيـم والأخلاق — رغم أن حياته الشخصية ليس فيها قيم ولا أخلاق — لقد كانت حياة روسو الشخصية خالية من القيم الفاضلة ، والأخلاق النبيلة ، بـــل كانت اخـــلاقه كلها نوعا من الخلاعة والاتصال بالجنس الآخر ، وكانت فيها أنواع البهيمية فى السلوك ، تلك شخصية ، أما مؤلفاته فكانت فيهـا المبادئ والأخلاق والأهداف النبيلة والسلوكيات الرفيعة ، لكنها لم تزد عن كونها مدونات فى كتبه ليس الا ٠

وماد ام روسو قد أثر فى كانت فلابد أنه أثر بجانبه الفكرى فى الأخلاق النظرية المدونة فقط ، وليس الأخلاق باعتبارها سلوكا — كان يمارسه رسو على ما سلف ذكره ٠

هـ — عرض لفلسـفته :

الواقع أن فلسفة كانت عبارة عن محورين أثنين تقوم عليهما فلسفته ، أو بعبارة أخرى فلسفة كانت تحاول الاجابة على سؤالين هما : كيف نعـرف؟ وماذا ينبغى أن نعمل ؟ والاجابة على السؤالين تمثل المحورين الرئيسيين لفلسفة كانت وهما :

المحور الأول - نظرية المعرفـــــة .

المحور الثاني - نظرية الأخلاق ..

فما هى نظرية المعرفـــــة ؟

* نظريـــــة المعرفـــــة :

قامت عند كل فيلسوف سابق على كانت بالتحليل والعرض واستنفـاذ كافة الوسائل ابتداء من فرنسيس بيكون حتى كانت ، انهم بحثوا فى العقل وطريقة تكوينه للمعلومات وفى خطته للمعرفة ، اذًا هناك ثلاث خطـــوات بالنسبة لما يتعلق بنظرية المعرفة :

أ - العقل .

ب - طريقة تكوينه للمعلومات .

جـ - خطته للمعرفـــــة .

وكانت سلك نفس السبيل فوجد للمعرفة الانسانية ثلاث وسائل متميزة ، بحيث لايمكن للمعرفة أن تخرج عليها مما يجعلنا نعتبر وسائل المعرفـــة عنده موضوعا مستقلا .

وسائل المعرفة عند كانت :

(أ) الحواس :

ان كانت يتحدث عن الحواس باستفاضة ، انها فى نظره التى تنقـل الى الذهن صور الأشياء الموجودة على ماهى عليه ، وهذه الحواس أمينـة

فى نقل ما تقوم به متى كانت جيدة ، واستطاعت أن تتعامل مع الأشياء من غير قيود أو رتوج ، انها تتعامل مع الماء مثلا على ماهو عليه ، فــاذا اختلط به زيت أو دهن فقد اختلطت حقيقتان ، ومن ثم فالحواس حينما تنقل الى الذهن صورة الماء والدهن المختلط به فانما تنقله على ماهــو عليه .

اذًا الحواس يمكن اعتبارها وسيلة معرفية بجانب أنها موصل معرفــى وهناك فرق بين الوسيلة والموصل فى التسمية وان كانت الدلائل متقاربــة فعلى أى وضع كان الأمر جاءت الحواس احدى وسائل المعرفة .

(٢) الادراك الذهنى :

وهذا الادراك يحصل عندما تنقل الحواس الى الذهن أعدادا كبيرة من المحسوسات كناحية ادراكية فيقوم الذهن بتجميع هذه الصور واعتبارها ظواهر يجب استخلاص المعانى الكلية منها حتى يجعلها عنده كمخــزون لديه . خذ مثلا :

الفرس — الجمل — الخروف — الحمار — الفيل تجد أن الحواس من العين واليد قد نقلت هذه الصور الى الذهن على ماهى عليه مفــردات لحيوانات فاذا بالذهن يستخلص منها الحيوانية بحيث تشمل هــــذه الحيوانية كافة أفراد الحيوان التى ذكرها والتى لم يذكرها .

وخذ مثلا :

التفاح ، والبرتقال ، والمانجو ، والعنبر ، ستجد أن هذه المفردات وغيرها مما هو فى علم النبات قد نقلت الى الذهن عن طريق الحواس باعتبارها مفردات ، فاذا بالذهن يستخلص لها صورة ذهنية هى النباتية التى تشمل كافة أنواع النبات .

وخذ مثلا :

أحمد ، ومحمد ، وحازم ، وخالد ، وبدر ، وكمال ، وهبة ، ونعمة ورحمة ، ستجد أن هذه مفردات نقلت عن طريق الحواس الى العقل باعتبارها مفردات ثم قام العقل باستخلاص الانسانية الشاملة لهذه المفردات وغيرها مما صار مركوزا فى الذهن باعتباره معنى من المعانى الذهنية ، وهذا عمل العقل .

ان الذهن يستخلص – باعتباره وسيلة ادراكية – المعانى من المفردات بحيث تكون محصلة الادراك الذهنى هى المعانى المنتزعة من الأفراد الموجودين بالخارج وبالتالى ستجد فى الادراك الذهنى الحيوانية ممثلة فى الحيوان ، والجمادية ممثلة للجماد ، والانسانية ممثلة للانسان وكذلك كل أفراد تجمعهم رابطة ترى هذه الرابطة موجودة فى الادراك الذهنى .

(٣) العقل النظرى :

العقل النظرى يحاول الوصول الى الحقائق النهائية ووسيلة العقل

النظرى ليست محددة ، أنه يستعمل أكثر من وسيلة ، ولذلك فان هذا العقل يتشبث به أنصار الميتافيزيقا تشبثا قويا ، وكانت باعتباره أحــــد الميتافيزيقيين ، وصاحب نظرة فى المعرفة ، فانه يتحدث عن هــــذه الوسائل مستخدما بعض التعبيرات التى لم تكن مألوفة من قبل ، فهـــو يسمى :

١ ــ الحواس : بالحس السامى .

٢ ــ الادراك الذهنى : التحليل السامى .

٣ ــ العقل النظرى : الجدل السامى .

أما لماذا ؟ يطلق عليها هو صف السامى ، انه ذكر الحس بأنه سام وذكر الادراك الذهنى بأنه تحليل سام ، كما ذكر العقل النظـرى بأنه جدل سام ، فلماذا كل هذا ؟

والجواب : ان كانت يرى هذه الوسائل متعلقة بالمعرفة وليس أسمى عنده منها ، انها أولى من غيرها وأول قبل أى بحث آخر ، وأسمـــى من أن تنالها عقول البله أو تغرق فى محيطاتها أفكار التائهين ، وسامية لأنها تعلو بصاحبها فوق الهامات .

كما أنها أولى : لأن المفروض قبل البحث فى أى شىء أن يبحــث فى طبيعة المعرفة الانسانية ، ويسميها كانت سامية لأنها متعلقة بأسمى

الموضوعات وأهمها ألا وهى موضوعات المعرفة الانسانية ، ويكفى فى سموها أنها الأساس الذى يقوم عليه أى بناء فلسفى ، ولنبدأ بشرح هذه النقاط الثلاثة :

(١) الحس السامى " الحواس " :

الحس السامى تمثله الحواس التى تنقل الى الذهن صور الأشياء على ماهى عليه ، كى يلتقط الذهن هذه الصور ، فلابد له من التسليم بفكرتى الزمان والمكان ، لأن الزمان هو الفترة التى تنقل فيها هذه الصور الحسية للذهن ، وكما أن الزمان وعاء للظواهر النفسية ، فأن المكان وعاء للأشياء المادية .

وكانت يرى الزمان والمكان مجرد افتراض ، لكنه الآن مجبر للتسليم بوجود الزمان والمكان أما لماذا ؟

فلأنه افترض المكان والزمان باعتبار المكان وعاء الأشياء المادية ، والزمان وعاء الظواهر النفسية ، ولامانع من أن يكون الزمان وعاءا للأشياء المادية أيضا .

العلوم الرياضية — الهندسة والحساب — تعتمد على الزمان والمكان فالمكان تلعب فيه دورها اذا تعلق الأمر بالهندسة ، ان الهندسة سطوح وأحجام — الكم المتصل موضوعها — كما أن الزمان يؤدى فى الحساب دوره .

ان الحساب عبارة عن وحدات رقمية يمكن ترتيبها زمانيا ، بمعنى أن الرقم ٥ لايأتى الا قبل الرقم ٦ ، والرقم ٦ لايأتى الا قبل الرقم ٧ ، و ٩٩ لايأتى الا قبل ١٠٠ ، وبهذا يثبت أن كانت استخدم فكرتى الزمان والمكان لاثبات كيان العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة والحساب ومن ثم تمكن من أن تكون معارفه الانسانية رياضية وطبيعية وميتافيزيقية .

والذى يعنيه هو أن المعرفة الانسانية تتعلق بالعلوم الرياضية والطبيعية والميتافيزيقية ، اذا نجح فى اثبات ذلك تكون المعرفة الانسانية صحيحة بدرجة ١٠٠٪ ، واذا شك فى اثبات أن المعرفة الانسانية تشمل الرياضية والطبيعية والميتافيزيقية ، تكون المعرفة الانسانية فاشلة ، ثم نستطيع القول بأن كانت قد أثبت العلوم الرياضية عن طريق الحس السامى .

الحواس :

بعد ذلك أثبت العلوم الطبيعية والكيماء والطب والحيوان ووظائف الأعضاء ، بعد أن نظر اليها وتسائل : هل لهذه العلوم الطبيعية كيانات حقيقية يمكن من خلالها أن تثبت هذه العلوم ، ان كانت أثبت هذه العلوم عن الطريق الثانى وليس الطريق الأول ، ان كانت أثبت العلوم الرياضية عن طريق الحس السامى ثم جاء الى العلوم الطبيعية التى تحتاج الى تحليل وادراك فأثبتها عن طريق التحليل السامى الذى

اعتبره الوسيلة الثانية للمعرفة فما هو التحليل السامى ؟

٢ ـ التحليل السامى " الادراك الذهنى " :

يرى كانت أن الذهن الانسانى ينطوى على مجموعة من المقولات المتعددة منها :

(أ) مقولة : الكلى والجزئى .

(ب) مقولة السببية والمسببية .

(ج) مقولة الكم والكيف .

هذه المقولات الثلاث يرى كانت أنها موجودة فى الذهن بشكل ما وهى تشكل مايعرف بقوانين الفكر بحيث يمكن اعتبارها فطرية فى وجودها مثل : الكل أعظم من الجزء الذى تقوم عليه مقولة : الكل والجزء ، وهذه المقولات ترتكز عليها قوانين فكرية .

ونحن اذا حاولنا اختبار الصور الموجودة فى الذهن يرى هل تتطابق مع قوانين الفكر أم لا ؟ حتما سنجد صورة المطابقة قائمة . ... يقول " هيجل " الفيلسوف الشهير : " ان نظام الكون وقوانين الفكر شئ واحد ، ان القانون الطبيعى يقرر وجود علاقة قوية و... تربط بين كافة أجزائه برباط محكم ، بمعنى أن هناك أسبابا ومسببات ، ... يوجد كموم وكيوف وأجزاء وكليات وجزء وقوة وفعل ، فاذا كانت قوانين الفكر

صحيحة وحججه سليمة فكذلك قوانين العلوم الطبيعية تكون صحيحة لأنها منتزعة منها .

العلوم الطبيعية لها كيان حقيقى فى وجودها ، يمكن ادراكه عن طريق التعرف على مبادئها ، وأنواعها والغايات والعلاقات التى تربط بين مبادئها وأنواعها ، وموضوعها والغايات ، وبالتالى تكون كانت من اثبات وجود العلوم الطبيعية عن طريق التحليل السامى - الادراك الذهنى - كما فرغ قبل ذلك من اثبات العلوم الرياضية عن طريق الحس السامى .

(٣) الجدل السامى " العقل النظرى " :

هذه الوسيلة تتعلق باثبات الميتافيزيقا ما وراء الطبيعة ، لأنه لم يبق من المعارف الانسانية الا هذا النوع ، لأنه سبق القول بأن المعارف الانسانية اما أن تكون رياضية أو طبيعية أو ميتافيزيقية ، وقد سلف الحديث عن الرياضية والطبيعية اذًا لم يبق الا الميتافيزيقية .

ان كانت يرى الميتافيزيقا طريقًا وعر المسالك ، كثير العقبات شواطئه غير مأمونة - ولذلك فهو يرى أنها أشبه شئ بمحيط لا شاطئ له ولاقنار طالما تحطمت بين أمواجه نظم فلسفية عديدة ، انه يرى الميتافيزيقا أخطر من أن يفصل فيها قاض متعجل - أو يحكم فيها فنان لم يذق من

الميتافيزيقا الا حلو النغم •

كانت كتب في الميتافيزيقا وهو في سن ناضجة حيث كان تجاوز الأربعين بقليل ، انه كتب في سن أكثر نضجا ولذلك كان يقول عن الميتافيزيقا : لقد شاء لي حسن طالعي أن أكون عاشقا للميتافيزيقا غير أن معشوقتي لم تطلعني الى اليوم على دقات قلبها انما ترد عليّ بقليل من مفاتنها وعطر أريجها •

وعلى الرغم من أن بحث كانت في الميتافيزيقا قد استمر قرابة العشرين سنة ومع هذا فهو يرى أنه لم يصل الى شيء فيها اللهم الا أن يكون قليلا كم تمنى وطمحت نفسه أن يعرف أكثر وأكثر ، وقد حاول ولكنه في كل مرة كان يكبر عجزه أمام المحيط المظلم الذي تخفت الميتافيزيقا في أعماقه •

ومع هذا لم يمنعه من الحديث واتخاذ موقف معين من الميتافيزيقا ذلك العجز الذي يكبر باستمرار ويمثل حاجزا بين كانت وبين الميتافيزيقا الا أنه مع ذلك حاول أن يجذب طرفها اليه رغم تمنعها عليه ثم ارتد اليه جذبه بموقف يتلخص في ناحيتين من الميتافيزيقا :

الناحية الأولى : الموقف السلبي :

وهذا الموقف السلبي من كانت كان غرضه هدم الميتافيزيقا القديمة واجتثاثها من جذورها ، ثم اشعال النار في بقايا حطامها •

الناحية الثانية : الموقف الايجابي :

بعد أن اجتث الميتافيزيقا القديمة من وجهة نظره وأحرق جذورها تطلع الى بقايا أنقاضها المحطمة فراح يختبرها وينتقي الممتاز منها وسماه فيما بعد الميتافيزيقا الجديدة في مقابلة القديمة ، وأطلق عليها فيما بعد اسم الميتافيزيقا النقدية ، لكن كيف هدم ؟ وكيف أقام ؟ هـــذا ماسوف نلمحه في السطور القادمة :

لكن قبل أن نسترسل يحسن بنا أن نتسائل : هل كانت آراء كانت التي ســلف ذكرها راجحة أم مرجوحة ؟

ان اينشتاين صاحب نظرية النسبية التي تقرر أن الزمان والمكـــان ليس لهما وجود ثابت مطلق ، بل وجودها نسبي لايرضيه ماقرره كانت من أن وجود الحقائق المطلقة أمر ثابت وقد وقف العلم الحديث بجانب نظرية النسبية فقرر أن الحقائق العلمية راجحة وليست مطلقة وثبوتها نســـبي ، ان العلم لايعرف الكلمة الأخيرة والتلازم بين الأسباب والمسببات انما هـــو تلازم عادي وليس من قبيل التلازمات العقلية .

((الخاطـــــر العاشــــــر))

(مناقشــــة فلســــفة كانـــــت)

((مناقشة فلسفة كانت))

أجل : كان لفلسفة كانت ذيوع وانتشار بجانب بريق ولمعان ولكن لايعني هذا أن العمل الانساني اكتمل من كل جوانبه ، والحق يقال : أن هناك نقودات كثيرة يمكن ذكرها فتنسف فلسفة كانت بحيث لاتبقى لها شيئا : لكن هذه النقودات ستطول أكبر من فلسفته نفسها ، ولذلك سأنتقي بعضها نظرا لظروف البحث وذلك على النحو التالي :

(١) قرر كانت أن الحقائق مطلقة فاذا بالعلم الحديث يقرر أن حقائق الأشياء ثابتة وليست مطلقة ، كما أن الحقائق العلمية راجحة وثابتة ثبوتا نسبيا وليست مطلقة وثابتة ثبوتا كليا .

(٢) قرر كانت حرية الارادة واستدل على هذه الحرية بالطريق المباشر ولكن كانت قد استفاد هذا الرأى من المعتزلة وان كان هو قد أتى برأيهم مبتسرا ، لأن المعتزلة لم يستدلوا على حرية الارادة فقط بل قالوا اننا نشعر بها شعورا مباشرا ، وبالتالي أثبتوا الشعور والارادة وكانوا أعمق من كانت نفسه .

(٣) فكرة الواجب تغنى بها كانت حتى ظن نفسه طاووسا تلمع شعور جناحيه في فكرة الواجب التي قررها ولكنه كان مسبوقا فيها بابن باجة بل ان فكرة الواجب عند " ابن باجة " كانت أدق لأنها قامت على

فعل الشيء دون انتظار أي ثواب وسماها التكمل العقلي والخلقي وابن باجه قرر أن الانسان يفعل الشيء ليكون مقبولا فلا يكون متكملا ، أما أن يفعله للتكمل العقلي والخلقي فذلك يكون أمرا مقبولا .

بل ان ابن باجة فرق بين أنواع العقل وألوان التكمل ، الفعل الانساني الأخلاقي غير الفعل الشيطاني غير الفعل الملائكي غير الفعل الالهي ، وكلها يصف بها الفعل الانساني عند ابن باجة اذا كانت مسبوقة بفكرة الواجب أيضا .

(٤) خلود النفس عن طريق تحقيق العدالة ، هتف بها كانت ، وتغنى بعده الكانتيون متصورين أنه أتى بعالم يسبق اليه ، والحق أنها فكرة جاهلية سبقه بها عبد المطلب جد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي كان يقرر أن كل ظالم سيحصل له جزاؤه ويحصده حصدا قبل الموت .

وسئل عن واحد ظَلَمَ ومات قبل أن يأخذ الناس منه حقوقهم ، فكيف يحصلون هم على حقوقهم منه ؟ انه مات ظالما وسيلقى جزاءه لكن الذين سلبت حقوقهم فما عوضهم ؟ فهتف عبد المطلب من داخله بأن هناك خلودا للنفس وحياة أخرى يأخذ كل انسان فيها حقه وتلك طريقة تتحقق بها العدالة وفيها القصاص .

كما أن هذه الفكرة قد قررها القرآن الكريم قبل كانت بصورة أرقى مما في ذاكرة عبد المطلب وأدق مما تصوره كانت ، ان هناك عدالة الهية في توزيع الأدوار الحياتية وكذلك الجزاءات الأخروية ، قال تعالى : " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار " وقوله تعالى : " أفنجعل المسلمين كالمجرمين " .

اذًا لابد من التسليم بخلود النفس حتى تتحقق العدالة وعليه توزيع العدالة هذه تحتاج الى الخالق نفسه ، اذًا القرآن الكريم قرر الفكرة بأدق وأفضل بحيث لايمكن لكانت أو غيره الادعاء بأنه صاحب اليد الطولى والعلم الذي لم يسبق اليه .

هل كان كانت يؤمن بوجود الله ؟

الاجابة على هذا السؤال تفاجئنا بها وجهات نظر كثيرة منها :

(١) أنه كان ملحدا :

يميل الى رمي كانت بالكفر والالحاد رجال الدين الكهنوتي باعتباره واحدا من رواد عصر التنوير الذين حاربوا سلطة الكنيسة وانتقدوا الطقوس والشعائر الدينية .

كما يميل الى هذا الرأي من الفلاسفة " شوبنهور " الذي قرأ فلسفة كانت وقرر أن كانت قد قوض دعائم اللاهوت النقلي والعقلي ، انه يرى

كانت قد ناقش الأدلة التى تثبت وجود الله وتحامل عليها وأثبت أن هذه الأدلة باطلة لكنه أبقى على اللاهوت الشعبى أدلة العامة فى اثبات وجود الله .

وهناك من يقارن بين كانت " وروبسبير " وأن كانت كان ضعيف البنية ، نحيل البدن ، لكنه كان أخطر من روبسبير الذى كان أحد زعماء الثورة الفرنسية وكان معروفا بالقتل وسفك الدماء ، فهو يقول أن " روبسبير " لم يقتل الا ملكا واحدا وبضعة آلاف من الفرنسيين ، وهذه قد يغفرها أحد الألمان ، أما كانت فقد هدم دعائم اللاهوت كلها .

(٢) رأى شان يرى أن فلسفة كانت تشعرك بأنك فى سوق ريفى به المواشى والأغنام بجوار التفاح والجوجير ، وتستطيع أن تشترى من هذا السوق الشىء ونقيضه ، حرية الارادة أو الاكراه ، المثالية أو المادية الايمان أو الالحاد ، انه كالحاوى الذى يخرج للناس من مخلاته الفارغة كل شىء .

أما لماذا فعل كانت ذلك واشتملت فلسفته على الأخذ والرد والقبول والرفض ، والأشياء المتقابلة دون أن يكون له موقف معين ؟

فالجواب : أن الرجل عاش فى بيئة متزمتة تفرض فيها الأفكار فرضا ، ومطارق السلطة تدق رأس أى فكرة ، فكان الرجل يتوارى

خلف دخان كثيف من المتناقضات - وبى تعديون لو قدر له أن يعيش في بيئة أخرى واستطاع أن يجاهر برأيه ، لكان له موقف آخر .

ولكن أمن كانت وسلامته كانا موقوفين على رأى العامة ، وحكم الغوغاء ، وغشم الامبراطور ، وتحجر رجال المسيحية ، ولو ترك على حريته لرفض كل هذه الأشياء ، وبخاصة الدين المسيحى الذى حبل بالكثير من الأفكار والطقوس والشعائر التى تناقض العقل .

حتى قال كانت نفسه أن تعاليم الدين المسيحى كأقراص الدواء ، ان بلعت أفادت ، وان مضغت كانت مرة المذاق ، وكان يستشعر هذا فى داخله ، فها هو يكتب رسالة لأحد أصدقائه قال فيها : هناك أشياء كثيرة أود قولها ولكنى لا أجد فى نفسى الشجاعة على ذلك وهى متعلقة بالدين أو السياسة .

اذا كانت كان يتعمد اللولبية والاختفاء من ذكر الرأى الذى يعتنقه بل ويميل الى اللف والدوران وهى لغة تكون آثارها على حساب القارئ الذى لايواجه الأفكار والنتائج على ماهى عليه ، وانما يحاول استشفافها من الغموض الذى غرقت فيه وأنى له أن يصل اليها ؟

ويبدو أن مؤلفات كانت حملت فى داخلها هذا العمق الغريب حتى أن ماكس هيرو " أحد أصدقاء كانت حينما قرأ الكتاب الأول : " نقد

العقل الخالص " علق عليه بقوله : " انني أخشى أن أصاب بالجنون اذا أنا واصلت القراءة فيه " .

وكانت نفسه عبر عن هذا الغموض : فقال " ان مؤلفاتي لن تفهم الا بعد مرور مائة سنة ، بينما قال " شوبنهور " عن مؤلفات كانت العلمية بعيدا عن الدين : ان الانسان لايزال طفلا حتى يفهم كانت .

وفي تقديري : أن كانت ربما التمست له بعض الأعذار لأن قسوة الحاكم ، وكهنوت رجال الدين ، وخشية المفكر على عقله ربما حالت بينه وبين ابراز مايريده ، ومن ثم يلجأ الى التعمية ، ممثلا المثل الشعبي : " قال الخشب للمسمار انك فلقتني ، قال المسمار : لو تعرف الدق الذي وقع فوق رأسي لعذرتني " .

والى هنا نكتفي مؤقتا من مناقشتنا لفلسفة كانت ولكن تبقى هناك نقطة هي أن فلسفة الرجل أدت ما عليها في محيطها الأوربي وكانت شمعة أضاءت سماء أوربا المظلمة فخرجوا خلفها يتلمسون الطريق الذي كان قد تفلت من أيديهم .

وبعـــد !

عزيزى القارىء : ماذا ترى بعد هذا الترحال ؟ أما أنا فذاكر لك أن النسبة التى ذكرتها لك ضئيلة ، لأن تاريخ الفلسفة الحديثة امتلأ بهؤلاء الذين لهم شهرة وذيوع ، وأفكار وأبحاث ، لكنى قائل لك : اياك أن تبهرك الأبرقة اللماعة ، لأن النتيجة الحتمية هى أنهم قلة التى يمكن أن يطلق عليهم اسم فلاسفة ، أما الأكثرين فهم مجرد أسماء لامعة ، وأفكار براقة لاتثبت أمام النقد والتمحيص •

انهم يشبهون فى نظرى – بعد ما قرأتم تعليقاتى على كبار الفلاسفة منهم – يشبهون فرقة حسب الله وهى فرقة كانت تتمتع بسمعة طيبة ، فاذا أراد أحد أعيان البلد تزويج ابنه يتفق مع المعلم حسب الله على زفاف العروس وتبدأ المساومة على أفراد الفرقة التى لم يكن يفهم العزف منهم غير المعلم ، أما باقى الفرقة فكانوا بريس أسماء ولمعان عمم وآلات وأثواب وهكذا فلاسفة العصر الحديث ، يعدون بالمئات ولكن الفيلسوف الحقيقى منهم واحد ، وما أصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " الناس مائة لاتجد فيها الا راحلة •

أما أنا عزيزى القارىء فمازلت أهتف من أعماقى بقول الحق جل علاه : وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله "

((الخاتمـــة))

من الشائع أن المقدمة ملخص لمباحث الكتاب وفصوله ومسائله وجزئياته والخاتمة تلخيص لنتائج الكتاب التى تم التوصل اليها ، والتعرف عليهـا ، والتوصيات التى يرى الدارس التنبيه اليها ، ولفت نظر الدارسين لتناولها.

وانطلاقا من هذه المفاهيم ، أرانى مقبلا على خاتمة الكتاب فأشــير الى نقاط عديدة أبرزها :

(١) أن الفكر الاسلامى كان له تأثير قوى على الفكر الأوربى الحديث بحيث يصح القول بأن الفكر الاسلامى الموثق فى جانبيه الدينى والعلمـى قد أثر فى الفكر الأوربى حيث كان الأصل الذى قام عليه .

(٢) أن الفكر الاسلامى تمتع بالحرية العقلية التى حملتها نصوص قويـة — فى القرآن الكريم والسنة المطهرة — وكانت هذه الحرية العقليـة فى بلاد الاسلام ضرورة لعصر الازدهار والنور الذى ملأ الحواضـر الاسلامية فى الوقت الذى كانت أوربا نائمة ، لايذكر لها اســم ، ولا يسمع لها صوت .

(٣) أن التراث الاسلامى تم نقله وترجمته الى أوربا وبخاصة الجانـب العلمى المادى فيه ، وكان الجانب الدينى قد تأخر نقله بعـض الشيء الى أوربا وترجمته اللهم الا أن يكون ذلك متعلقا بالناحيـة

الروحية ، وأعنى به التصوف الاسلامى .

(٤) أن التراث الاسلامى - بعد ترجمته - قد خلب القلوب بريقه ، وكان دافعا قويا عاما ومتازا ، أخذ الفكر الأوربى الى التقدم ، وأطلق فيه كوامنه ، وكان أحد الدوافع القوية التى ساعدت على ظهور الفلسفة الحديثة والفكر المتحرر فى أوربا ابتداء من القرن الثالث عشر حتى الآن .

(٥) ان الحداثة فكرة زمانية أقرب من أن تكون نقطة مكانية ، وأن الفكر الاسلامى قد امتلأت ساحته فى ذات الوقت - القرن الثالث عشر وماتلاه حتى الآن - بالمفكرين العظماء الذين كان الاسلام دينهم ، والقرآن والسنة النبوية مصدر الهامهم بجانب أنهما نصوص دينهم .

(٦) أن الفكر الأوربى فى جانبه المادى انما يمثل قطرة فى بحر العلم المتسع عمقه ، المترامية أطرافه ، الذى شمل اليابسة كلها ، كل مافى الأمران وسائل التمكين لهذا العلم المادى وابرازه كانت فى أوربا ميسرة ، ولو أن هذه الظروف كانت فى آسيا أو أفريقيا أو أية دولة من بلدان العالم ضمت بين حناياها علماء ومفكرين لكان لهم نفس الشأن .

(٧) ان الفلسفة التجريبية قد ارتضعت ألبان العلم التجريبي الاسلامي الذى ترجم فيما ترجم الى أوربا ، فاذا أخرجت ثمارا ، فالأصل يعود اليه كل ناتج هذه الثمار سواء حملت اسم فرنسيس بيكـــون أو غيره من زعماء المدرسة التجريبية ٠

(٨) ان توماس هوبز ومذهبه الآلى كان صورة متطورة فى بعض جوانبـه لنفس المذهب الذرى فى الفكر اليونانى الذى قاد اليه ديمقريطس كما أن جانبه الاجتماعى كان مترددا الى أبعد حد بين سلطـان الكنيسة والسلطة الحاكمة حتى يمكن القول بأنه عبودية تحت اسـم التحرر وان كانت العبودية فيه للملك ٠

(٩) أن ديكارت صاحب الفلسفة التى هزت أوربا لم تتفق أفكاره وقيمــه التى دعا اليها مع ممارساته الشخصية بل أنه مع ذلك أثر الصمــت ورضى بالنعيم ، واهتزت جوانحه خوفا من بريق سيف لامع وان لــم يكن بتارا ، كما أن فلسفته وان نهضت بعض الشيء فى جانبهـــا الفكرى ، فانها لم توفق عند التطبيق وآية ذلك عجزه عن تفســـير العلاقة بين الجسم الذى اعتبره من العالم الخارجى عند اثباتــه وبين النفس التى اعتبر اثباتها أمرا أوليا ، وأنها تثبت بالفكــر ، لأن الغدة الصنوبرية التى لجأ اليها احتماء بها لم تسعفه ، بــل العلم العملى جاءت نتائجــه على عكس ما فاض هو به ٠

(١٠) أن كانت رغم ما أشيع عنه وعن فلسفته ، الا أنه قد هدم هـذه وتلك حين صاح بأعلى صوته " ان عقل الانسان مركب تركيبا يؤسف له فانه مع شغفه بالبحث فى مسائل لاتدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف عن معمياتها " (١)

وفى تقديرى أن الفلسفة الحديثة بقدر مافيها من جدة وطرافة فان الأمر لايعدو أن يكون بريقا ولمعانا من غير أن تكون له قواعد ثابتة وانما هى صيحة مكلوم فى ليل بهيم خشى على نفسه فى أرض مسبعة ، فأطلقها علها تزيل عنه الخوف ، وتعيد اليه شارب الأمن الذى طالما تغنى به وحلم .

ولاينقص هذا الرأى من قدر الفلسفة الحديثة فى أوربا ، اذ هى عمل فكرى ناله بعض الصواب ، وجانبه فى بعضه الآخر ، فان تكن أدت ماعليها فتلك مهمتها ، وان تكن قد عجزت عن أدائها فقد سعدت بشرف أنها هيأت الطريق لمن بعدها من فلسفات ونظريات علمية ، وتجريبية على ما هو شائع عنها .

المؤلف

دكتور / محمد الغزالى

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٤٤٠ مع مقدمة فى التصوف للدكتور / عبد الحليم محمود .

فهرس الموضوعات

(تابع الفهـــــرس)

(تابع الفهـــرس)

(تابع الفهـــرس)

(تابع الفهـــــرس)

(تابع الفهـــــرس)

رقم الإيداع المحلى ١٠٥٨٠/١٩٩٦
الترقيم الدولى 947/9/74743
فى ٨/١٠/١٩٩٦